TAG-811-M/61

الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة

وزارة التّعليم العالي و البحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد. تلمسان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية

قسم اللّغة و الأدب العربي

سجل تحت رقم 1134
بتاريخ 31 ماي 2008
الرقم

الـمـوضـــوع

الاتّجاه الإصلاحي في شعر محمّد العيد آل الخليفة

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان كلية الآداب و العلوم الإنسانية و العلوم الإجتماعية

رسالة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي

إعداد الطالبة :
-عمارة حياة

إشراف :
أ.د. محمّد عبّاس

أعضاء اللجنة :
- د. مختاري زين الدين رئيسا
- د العربي الأخضر مناقشا
-د. بورديم عبد الحفيظ مناقشا

السّنة الجامعيّة:

1422هـ - 1423هـ

2001م - 2002م

الشكر

أتقدّم بالشّكر الخالص إلى أستاذي المشرف الدّكتور عبّاس محمّد الّذي قاسمني عبء الرّسالة و قدّم لي كلّ التّسهيلات و المساعدات.

كما أخصّ بالشّكر أختي زينب الّتي كانت نعم العون، و والدتي الّتي لم تتوان عن مساعدتي و تشجيعي إن ماديا أو معنويّا.

الإهـــداء

- إلى الوالدين العزيزين اللذين أحاطاني بالرّعاية و الحنان.

- إلى رفيق الدّرب، زوجي.

- إلى إخوتي جميعا .

- و إلى أبنائي إيمان و جواد و أحلام.

أهدي هذا العمل المتواضع.

المقدمة

مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، و الصّلاة و السّلام على أشرف المرسلين و خاتم النّبيين و بعد :

فالإصلاح في الأصل هو تقويم الشّيء و إزالة الفساد عنه، و مادّة إصلاح مشتقّة من الفعل أصلح،و صلح و صلّح، و تدلّ على تغيير حالة الفساد إلى الحالة الضدّيّة و هي الصّلاح.

أمّا الإصلاح بمفهومه الواسع فيتجسّم في الثّورة، أو بمعنى آخر التّغيير للأوضاع السّياسية و الاجتماعية أو الدّينية أو الفكريّة و الثّقافيّة.

ففكرة الإصلاح إذن فكرة نسبيّة تختلف باختلاف الظّروف و العصور و البيئات، و قد تعتمد على الجانب السّياسي أحيانا أو على الجانب الدّيني و الاجتماعي أحيانا أخرى.

أمّا الإصلاح المقصود في بحثنا هذا فنعني به وعي الأمّة، أو بعبارة أصحّ وعي زعماء الإصلاح بها بعد أن أصبحوا يشعرون بآلام شعوبهم و يدركون الأخطار المحدقة بهم، و يفكّرون بعمق في أسباب الدّاء و و صف الدّواء.

و لمّا كان موضوع الإصلاح موضوعا شاسعا يكاد يكون من المستحيل الإلمام بجوانبه المختلفة في بحث واحد، آثرنا أن نختار شخصيّة مثّلت منهج الإصلاح في الجانب الشعري تمثيلا حقيقيا فنتعقّب خطاها و نتتبع مسيرتها ذلك هو الشّاعر محمد العيد آل خليفة الذي يعدّ بحقّ ركنا من أركان الإصلاح يجسّده خير تجسيد أكان ذلك في شعره أم سيرته الذّاتية.

فلقد واكب الشاعر الحركات السياسية و الإصلاحيّة و ناقش موضوعات كثيرة استقطبت اهتمامه و اهتمام الكثير من دعاة الإصلاح، تحدث عن موجة الفرنسة التي كادت تغمر المجتمع الجزائري، كما تحدّث عن الاندماج و رفضهما بقوّة، داعيا إلى إحياء التّراث العربي و مؤكّدا على فكرة العروبة و الإسلام، كما رفض الظّلم و السّيطرة و الطّغيان و رأى

أنّ السبيل الوحيد للخلاص من ذلك هو التّسلّح بسلاح العلم و المعرفة و الوطنية، و قد ركز اهتمامه على عنصري الشّباب و المرأة باعتبارهما الرّكيزة الأساسية التي تبنى عليها المجتمعات قويّة، كما نالت الشّخصيّة الجزائريّة مكانا بارزا في شعره.

كلّ هذا و غيره عرضناه في هذه الرّسالة الّتي تهدف في غايتها إلى التّعريف بداعية من دعاة الإصلاح لا لمجرّد التّعريف بشخصيّتها الذّاتية أو الوصول إلى ترجمة لسيرتها فحسب، فذاك رجع بعيد، و إنّما هي دراسة للمنهج الإصلاحي ممثّلا في شخصيّة محمّد العيد، تلك الشّخصيّة التي لم توفّ حقّها من الدّراسة.

و قد أردنا أن نبرز الدّور الرّائد الّذي يؤدّيه الشّاعر في تحفيز الهمم و تحريك المشاعر متّخذا من الإصلاح منهجا و سبيلا لتحقيق أهدافه، فكان أن اعتمدنا المنهج الوصفي التّفسيري الّذي يمكّننا من الإدراك العميق لأبعاد الشّاعر الفكريّة و خفاياه الفنيّة من خلال آثاره.

و أمّا محتويات الرّسالة فقد اقتضت الضّرورة أن نوّزعها عل خمسة فصول و مدخل تسبقها مقدّمة و تنهيها خاتمة مع قائمة المصادر و المراجع الّتي رصدنا بها بحثنا.

تضمّن المدخل دراسة موجزة للإصلاح و إرهاصاته الأولى للإصلاح و الّتي ظهرت أوّل ما ظهرت مجرّد فكرة تعمد إلى نقد الواقع للخروج من التّخلّف بعد أن كاد المستعمر يقضي على مقوّمات الشّخصيّة الجزائريّة و أخذت تلك الفكرة تتبلور شيئا فشيئا إلى أن تكوّنت جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين كتجمّع منظّم يمثّل حركة إصلاحيّة لها منهجها و مبادئها و أهدافها الخالصة.

و كان شعار الفكر الإصلاحي يتمثّل في :

أ- الرّجوع إلى الماضي العريق فكرا و ثقافة و تراثا مع صياغته على وجه يساير العصر.

ب- الردّ على محاولات المسخ و التّشويه الّتي كان يقوم بها المستعمر الفرنسي.

ج- النّقد الاجتماعي بمعنى نقد الواقع للخروج من التّخلّف المادي و الأدبي و الفكري.

و قد واجه رجال الإصلاح عدوين أحدهما سياسي و الثّاني ديني، يتمثّل الأوّل في اليد الدّخيلة للاستعمار الفرنسي ، و يمثّل الثّاني دعاة الانحراف من طرقيّين و متزمّتين.

إنّ الشّعر الّذي ساير الحركة الإصلاحيّة عبر مختلف مراحلها قد أوسع الانحراف تعقّبا و مطاردة و فضيحة و تعرية، و اتّجه إلى مهاجمة الانحراف الدّيني القائم على فكرة "اعتقد و لا تُنتقد" مع المواجهة الملحّة بالإصلاح.

و قد أصبح الشّعر بعد ظهور جمعيّة العلماء، أكثر تحمّسا و التزاما و أكثر جرأة و عنفا في التّهجّم على الانحراف الدّيني، فقد عمد التّعرية لمواطن الضلال و التّدجيل في الفكر الدّيني، فالشّاعر يتحسّس ملامح الانحراف بيتا بيتا بعد أن كانت الفكرة الإصلاحيّة عامّة لا تتخطّى العموميّات تتّخذ صيغة أمر أو نهي قبل ظهور الجمعيّة و الشّعر الّذي ساءه هذه التّدهور العقلي في فهم الدّين و حقيقة مبادئه، و آلمته تلك القطيعة المريعة بين الإسلام و أبنائه، لم يتردّد في الاتّجاه نحو المنبع الأصلي و الدّستور السّماوي الإسلامي، فكان القرآن الكريم هو منطلقه الأوّل، عليه يبني أفكاره الإصلاحيّة .

و أمّا الفصل الأوّل فقد خصّصناه لحياة الشّاعر في ترجمة شاملة لسيرته تقرّبه إلى الدّارس في مرحلة تكوينه و نشأته فرأينا كيف تربّى في جوّ أسري مفعم بالتّقى و الورع، فشبّ على ذلك الحبّ العميق الموروث للعقيدة الإسلاميّة و الأخلاق الفاضلة و كيف أنّ الظّروف الاجتماعيّة و الفكريّة الّتي ترعرع الشّاعر فيها ساعدت على تكوين شخصيّته الوجدانيّة و العقليّة فكان شاعرا و مصلحا و معلّما و داعية، و قد جمع في تكوينه الفكري بين مبادئ الإصلاح و بين النّزعة الصوفيّة، و هو يلتزم في زهده بالصّدق في أقواله و سلوكه.

و تناولنا في الفصل الثّاني دراسة لشعر العيد استنباطا لمضامين نصوصه التي كانت تجسيدا لجوانب مختلفة ممّا كان يتفاعل في المحيط الجزائري خاصّة و المحيط العربي و الإسلامي عامّة، من قضايا، و انشغالات، و طموحات، و آمال مستغلاّ في سبيل ذلك كلّ المناسبات الدينيّة الّتي كان يتّخذها منبرا للحثّ على الحفاظ على مقوّمات الأمّة و الدّعوة إلى إحيائها .

فقد كان الشّاعر يرى في تعاقب المناسبات الدّينيّة حافزا على بعث الهمم و يجد فيها متنفّسا جديدا يسمح له بالتّذكير بما تزخر به تلك المناسبات من مواقف الإذكار، و مشاهد الاعتبار، فيما يسمو بحياة الأمّة، و يعلي صرح حضارتها .

و هكذا استطاع محمد العيد أن يسهم بفعالية في تحقيق جملة من الأهداف كان الإصلاح يتوخّاها من هذه الاحتفالات الدّينيّة بتوجيهه إيّاها نحو ما يخدم الصّالح العامّ، و ينفع الأمّة في دينها و دنياها لهذا لا غرو إن وجدنا أوّل ما يتحدّث عنه أثناء تلك المناسبات هو الوحدة و العروبة ليتعدّاهما إلى دائرة أوسع و أرحب، و هي الإسلام، فيعنى في جانب كبير من شعره للتّمكين للعقيدة الإسلاميّة فيدعو النّاشئة إلى الاعتصام بالقرآن الكريم حتّى تشبّ على قيمه و فضائله، كما يدعوها إلى التّمسّك بلغتها و الاعتزاز بها باعتبارها لغة القرآن الكريم، و لغة أمّة ذات حضارة عريقة.

ثمّ انتقلنا إلى الفصل الثّالث للتحدّث عن الإصلاح الاجتماعي و كيف يتصوّره الشّاعر، الّذي بدأ أوّلا يرصد أسباب البلاء و رأس الدّاء و المتمثّلة في الجهل و الفقر و الانحلال الخلقي، و قد تصدّى لهذه الآفات و سخّر طاقته الإبداعيّة و الفكريّة لتصويرها و تشخيصها و بيان مخاطرها على حاضر الأمّة و مستقبلها مع وصف الدّواء الملائم لها و الّذي يتمثّل أساسا في العلم الّذي خصّ به عنصرين أساسيين في المجتمع و هما الشّباب و المرأة إيمانا منه أنّهما الرّكيزة الأولى لبناء مجتمع صالح. فالشّاعر يؤمن أنّ تهذيب الشّعب و إصلاح عيوبه هو الخطوة الأولى

نحو التّحرّر، فهو لم يكتف بتعداد تلك السّلبيّات و استنكارها بل عمد إلى إيجاد العلاج النّاجع لها و هو العلم و المعرفة، فأوقف الكثير من قصائده عليه داعيا إلى تعظيمه و تكريم رجالاته و مشجّعا على الأخذ بأسبابه مع نبذ الجهل و التّخلّف.

و تناول الفصل الرّابع الشّاعر و الثّورة في محاولة لدراسة هذا الشّعر الّذي تحدّث فيه عن الثّورة و دعا إليها قبل اندلاعها ليمجّدها و يفخر بأبطالها بعد انتهائها دون أن نغفل ظاهرة سكوته أثناءها محاولين التماس الأسباب الّتي أدّت "بالطّائر الصّدّاح" كما يسمّيه الشّيخ البشير الإبراهيمي إلى السّكوت و الانزواء فقد حدث أن تحدّث الشّاعر إلى ذلك الضّيف الثّقيل و طالبه بالرّحيل في وقت كان مجرّد التّلميح إلى كلمة "ثورة" يؤدّي بصاحبه إلى الهلاك، و لكن هذا لم يمنع الشّاعر من الاهتمام بقضيّة أمّته و تبنّيها إن تلميحا أو تصريحا، و لاسيّما بعد أحداث 8 ماي 1945م الّتي أسقطت كلّ الأقنعة، و أظهرت النّوايا الحقيقيّة للمحتلّ، فطرح الشّاعر بهدوء الإصلاح جانبا و دخل المعركة السّياسيّة بوجه سافر، يحثّ الشّعب أن يهبّ إلى الجهاد و يتمنّى اليوم الذي يرفرف فيه علم الجزائر.

على أن شاعريّة محمد العيد عرفت فتورا إبّان حرب التّحرير و قد تعرّضنا للأسباب الّتي أدّت بالشّاعر إلى السّكوت و نودّ أن نشير إلى أنّ العيد، و إن سكت عن قول الشّعر، فإنّه لم يكن بمعزل عن معاناة شعبه اليوميّة، فلقد عاشها و عايشها رغم الحصار الّذي فرض عليه، و هو إن لم ينظم الكثير من الشّعر فقد نظم القليل منه ليعود بعد الثّورة يسجّل أحداثها و يشيد بصانعيها و صانعي المجد التّليد و النّصر العظيم.

و تضمّن الفصل الخامس: دراسة لخصائص شعر العيد الفنية حيث أدركنا في تلك الدّراسة أنّ شعرالعيد قد تأرجح بين القديم و الجديد، علما أنّ الشّاعر كان ميّالا إلى التّقليد و المحافظة، و هو دأب مدرسة الإحياء عموما، و لكن بالرّغم من هذا فقد احتوى شعره

على بعض المظاهر الّتي تعدّ من الحداثة بما كان و ظاهرها هو أنّ الشّاعر كان يسعى إلى تجسيد آلام شعبه و آماله فجعل شعره وقفا على خدمة المجتمع إيمانا منه أنّ للشّاعر رسالة نضاليّة هو ملزم بأدائها .

فكان أن اهتمّ بالموضوع على حساب النّاحية الفنيّة، فهو لم يكن يسعى إلى تحقيق غاية الامتاع بقدر ما كان يسعى إلى معالجة الواقع و النهوض به و بهذا كانت معظم مضامين شعره جديدة ، و حاولنا في هذا الفصل أن نتعرّض لمظاهر التّجديد و التّقليد عند الشّاعر فتحدثنا عن ظاهرة الالتزام في شعره، و صفة تأثّره بالقرآن الكريم و استلهامه في شعره معنى و مبنى . كما تعرّضنا للوحدة الموضوعيّة و اللّغة الشّعريّة عند الشّاعر ، و كيف أنّ محمّد العيد كان يعتمد وحدة البيت مقياسا للجودة و الرّداءة، و عموما فإنّ الشّاعر قد عبّر عن تأمّلاته بلفظ سلس، و عبارة قويّة عزّزها بإيمان صادق و أحاسيس مرهفة.

و إن كان لا بدّ من ذكر العقبات الّتي اعترضت الرّسالة، فهي تتمثّل أساسا في قلّة المصادر و المراجع الّتي تتناول موضوع الإصلاح بالدّراسة.

و قد ناصفني أستاذي الكريم الدّكتور محمد عبّاس و تجاوز هذه العقبات و متاعب هذا البحث، و تجشّم معي عناء العناية به قراءة و نقدا و نصحا و توجيها، لهذا لا يسعني إلاّ أن أعبّر عن إكباري و امتناني و احترامي له، و جزاه الله عنّي خير الجزاء .

– وعلى الله قصد السّبيل –

مـــدخـــل

الحركة الإصلاحية في الجزائر

و ارهاصاتها الأولى

قبل الخوض في الشّعر الإصلاحي عند محمد العيد آل خليفة، لا بدّ من إلقاء الضّوء و لو بصورة موجزة على الحركة الإصلاحيّة في الجزائر و قبلها الحالة الدّينيّة، السّياسيّة و الاجتماعية الّتي كانت تعيشها الجزائر قبل ظهور تلك الحركة.

لا يخفى على أحد الحالة المزرية الّتي عاشتها الجزائر تحت نير الاستعمار، فقد كانت تعاني الأمرّين، كيف و لا قد عمل المستعمر الغاشم على تفقير الشّعب و تجويعه، بل لقد سعى إلى ماهو أخطر من ذلك و أدهى، فقد حاول القضاء على الإسلام – الرّكيزة الأولى للشّعب الجزائري – حتّى يتسنّى له بذلك القضاء على الكيان الجزائري ككل.

فالحملة الفرنسية كانت إذا صليبية في دوافعها و أهدافها و هكذا شوّهت العقيدة و "استبدلت بعقيدة جديدة تبارك محتلّها و غاصبها و تمكّنه من رقاب الشّعب باسم الدين، و من حريّته باسم الأمن و الاستقرار و تسخر أقلامها للدّعاية له، و التّنويه به و الدّعوة لطاعته"[1].

و لئن ركّز المحتلّ على الجانب الدّيني و جعله هدفه الثّاني بعد الجانب السّياسي فذلك وعيا منه أنّه لا يمكنه تحقيق استقرار سياسي في الجزائر ما لم يهدم أهمّ و أبرز مقوّمات شخصيّتها ذلك هو الدّين الإسلامي و من ثمّ ركّز ضغطه عليه و عمل على تحويله إن لم يكن إلى المسيحية فليكن إلى الانحلال و التّميع.[2]

---

[1] د. صالح خرفي- الشعر الجزائري الحديث – الجزائر – المؤسسة الوطنية للكتاب – 1984 – ص 12.

[2] ينظر د. أحمد الخطيب – جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر – الجزائر – المؤسسة الوطنية للكتاب- 1985 – ص 48.

لقد استهدفت إذا العقيدة و شوّهت و استبدلت بأخرى تخدم أغراض المستعمر و نواياه،و قد وجدت تلك العقيدة الجديدة – جانبين يأخذان بيدها و يعملان على تثبيتها الأوّل محلّي و تتزعّمه طائفة من الطّرقيّين، و الثّاني أجنبي تتزعّمه طائفة المبشّرين [1]، أولئك المبشّرين الّذين اتخذتهم فرنسا روادا و دعاة لها، "تستهدي تصريحاتهم الحاقدة على الإسلام، و تقتحم بصلبانهم المساجد تحولها إلى كنائس، و دور العلم و العبادة تسخرها ثكنات لجيش الاحتلال". [2]

و إنّ قول الجنرال بيجو لخير دليل على انّ الحملة الفرنسيّة كانت صليبيّة فقد صرّح قائلا « آخر أيّام الإسلام قد دنت، و في خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غيرالمسيح، أمّا العرب فلن يكونوا ملكا لفرنسا إلاّ إذا أصبحوا مسيحيّين جميعا . و نحن إذا أمكننا الشكّ في أنّ هذه الأرض تملكها فرنسا فإننا لا نشكّ في أنّها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد» . [3]

و فعلا لقد مضت فرنسا في خطّتها، تبذل كلّ ما أوتيت من جبروت في سبيل تحقيقها و هكذا أخذ الإسلام يتراجع شيئا فشيئا إلى أن انحصر في الزّوايا و الكتاتيب، و أصبح يدور في فلك الصّوفيّة و ما تخدر به الشّعب من أضاليل و طقوس واهية.

هذا عن النّاحية الدّينيّة، أمّا النّاحية السّياسيّة فقد اتّخذت طابع المواجهة المباشرة في تشتيت شمل الشعب بالقوّة و القضاء على كلّ نشاط سياسي و فرض قانون التّجنيد الإجباري. . .

---

[1] ينظر د .محمد عباس – البشير الإبراهيمي أديبا – الجزائر – ديوان المطبوعات الجامعية – المطبعة الجهوية بوهران – ص 19 .

[2] د. صالح خرفي- الشعر الجزائري الحديث مرجع سابق – ص 11 .

[3] الرجع نفسه، ص 11 .

و عموما يمكن تلخيص شعار الحملة الفرنسيّة في مقولة بيجو : "احتلال الجزائر بالسّيف و المحراث، السّيف في رقاب العرب و المحراث في يد المستعمر الفرنسي [1]" و قد سنّ المستعمر الفرنسي قوانين و أنظمة غاية ما تكون في الجور و الظّلم و التّعسف و هي قوانين (الأندجينا) الّتي ضيّقت الخناق على الشّعب و أخمدت أنفاسه و جعلته يعيش في جوّ مظلم و حالة ضغط يصعب تصوّرها .[2]

وإذا انتقلنا إلى النّاحية الاجتماعيّة و جدناها أكثر انتكاسا من سابقتيها فقد بذل المحتل كلّ ما أوتي من جبروت ليحرم الشّعب الجزائري من أدنى حقوق العيش بسنّ قوانين لا تخدم سوى مصالحه الخاصّة، "و أشدّ هذه القوانين أثرا في النّفوس، و أكثرها تجاوبا مع أهداف المستعمر تلك الّتي ترمي إلى إغراق المواطن في بؤس دائم و شقاء جاثم بالضّرائب القاصمة و التّغريم المشترك و انتزاع الأراضي فإذا المجتمع في فقر و بؤس و أمراض و أوبئة و انحرافات خلقية و اجتماعيّة"[3] .

إذن فقد تجرّع الشّعب الجزائري كووس الذلّ و الهوان و عانى الفقر و الحرمان حتّى لقد قال أحدهم :"أرى الجزائر في أنياب بؤس يمضغها مضغا و أراها في فقر يأكلها أكلا و أراها بعد ذلك تتخبّط في جهالة عمياء و تعمه في ضلال مبين"[4] و لم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ بل تعدّاه إلى تشريد الشّعب و تفريقه عن طريق تزكية النّظام القبلي و تنمية روح العنصريّة كخطوة أوّلية

---

[1] د. صالح خرفي- المدخل إلى الأدب الجزائري – الجزائر – الشركة الوطنية للنشر و التوزيع- 11983، ص 15 .

[2] المرجع نفسه، ص 15 .

[3] المرجع نفسه، ص 36 .

[4] القول للزاهري نقلا عن الشعر الجزائري الحديث- مرجع سابق – ص 17 .

تتبعها إقامة حدود حصينة بين الجزائر و شقيقاتها كخطوة ثانية حتّى يحرم الشّعب من أدنى بريق أمل.[1]

هذا بإيجاز عن النّواحي الثّلاث : الدّينيّة، السّياسيّة و الاجتماعيّة، و لم تكن النّاحية الثّقافيّة أوفر حظّا منهم، بحيث لم تسلم هي الأخرى من بطش المستعمر الّذي غزا مراكز الثّقافة القوميّة مدّعيا أنّ هذه الأخيرة ثقافة جامدة متحجّرة و أنّها لا تساير العصر لهذا أصبح من الضّرورة الاقتداء بالغزاة و تحصيل ثقافتهم "و إذاكانت وسائل العيش ممّا يزيد في إقبال النّاس على هذه الثّقافة الدّخيلة فلتكن شروط العيش نفسه و الحصول على وظيفة أو مكانة هي الكفاءة الشّخصيّة من ثقافة الاحتلال".[2]

و بمقابل ضمّ المساجد إلى أملاك الدّولة قصد إخماد الحياة الفكريّة و شلّ النّشاط الثّقافي باعتبار المساجد مراكز للعلم و المعرفة – بمقابل ذلك سعى المحتلّ لفتح الحانات، و تشجيع العربدة، يقول الشّيخ البشير الإبراهيمي : "جاء الاستعمار الفرنسي إلى هذا الوطن كما تجيء الأمراض الوافدة تحمل الموت و أسباب الموت ، و الاستعمار سمّ يحارب أسباب المناعة في الجسم الصّحيح، و هو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلاميّة و عبث بحرمة المعابد و حارب الإيمان بالإلحاد و الفضائل بحماية الرذائل،و التّعليم بإفشاء الأمّيّة و البيان العربي بهذه البلبلة الّتي لا يستقيم معها تعبير و لا تفكير".[3]

---

[1] ينظر د. أبو القاسم سعد الله – شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة – الدارالعربية للكتاب – المؤسسة الوطنية للكتاب – ط3– 1984. – ص 75.

[2] المرجع نفسه – ص 78.

[3] د. صالح خرفي – المدخل إلى الأدب الجزائري – مرجع سابق، 38.

و حسبنا في الأخير قول أبي اليقظان شاهدا و ملخّصا يوضح لنا ما آل إليه حال الشّعب تحت وطأة الاستعمار إذ يقول : "لقد تسلّط على الأمّة عوامل ثلاثة لو تسلّط عامل واحد منها على أمّة كبيرة لزعزع ركنها و هدّ بناءها ألا وهي : الجهل و الفقر و الفرقة. فالجهل أفقدها شعورها بوجودها و كيف تذبّ عنه و الفقر أقعدها عن العمل و شلّ اعضاءها عن الحركة، و الافتراق أذاب قوّتها و ذهب بريحها فبقيت و الحال هذه عرضة للتلف و الاضمحلال و الهلاك و هي نتيجة طبيعيّة لتلك الحالة المحزنة الّتي جرّ إليها الظّلم و الاستبداد"[1] .

في هذا المنعرج الخطير الّذي كاد يقضي فيه المستعمر على مقوّمات الشّخصيّة الجزائريّة ظهرت إرهاصات تبشّر بوجهة جديدة للحياة الدّينيّة و الفكريّة و دعوة أصيلة إلى المنبع، و اتّصال مباشر بالكتاب و السّنّة و تطلّع نافذ إلى المستقبل، كلّ ذلك من أجل تحقيق هدف واحد أو بالأحرى مبدإ واحد هو مبدأ الأصلاح، إصلاح المجتمع الجزائري بعد أن تفطّن العقلاء و الرّاشدون من أبناء الأمّة أنّ تهذيب الشّعب و إصلاح عيوبه هو الخطوة الأولى الّتي تسمح لهم بالمضيّ إلى الخطوة الّتي تليها فأمّا الخطوة الأولى فهي الإصلاح الدّيني و العلمي و أمّا الثّانية فهي الثّورة ضدّ العدوّ الغاصب، و هكذا أخذ العلماء يكشفون مواطن الضّعف و المرض و ينبّهون إليها سعيا منهم للقضاء عليها و تطهير البلاد منها .[2]

و إن أردنا تتبّع المسار التّاريخي للفكر الإصلاحي سوف نجد انّ الثّلاثينيّات تعدّ أزهى فتراته إلّا أنّ بوادره قد بدت قبل هذا التّاريخ و أخذت تتبلور شيئا فشيئا حتّى قامت الحرب العالمية الأولى حيث بدأت تبرز بشكل منظّم إلى أن اتّضحت معالمها عام 1925 بظهور

---

[1] د . محمد عباس، البشير الإبراهيمي أديبا، مرجع سابق، ص 20 .

[2] ينظر د . محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي، ج1، ص 243 .

جريدة المنتقد [1] و هي أوّل صحيفة رفعت شعار الفكر الإصلاحي الّذي يمكننا تلخيصه في النّقاط الآتية :

1- الرّجوع إلى الماضي العريق فكرا و ثقافة و تراثا مع صياغته على وجه يساير العصر، و هو ما عرف بعمليّة « الإحياء » .

2- نقد الواقع للخروج من التّخلّف المادي و الأدبي و الفكري، فالنّقد الاجتماعي كان أسلوبا من اساليب الإصلاح.

هكذا ظهرت الحركة الإصلاحيّة في الجزائر و انتشر دعاتها في مختلف ربوع الوطن إلى أن تكوّنت جمعيّة العلماء المسلمسن الجزائريين سنة 1931 الّتي أصبحت تجمّعا منظّما، يمثّل حزبا إصلاحيّا، له منهجه و مبادئه و أهدافه الخالصة[2]. و كان ذلك بزعامة الشّيخ ابن باديس الذي يعتبر "أوّل من صدع بالدّعوة جهارا، و انبرى لإذاعتها بين الشّعب الجزائري على اختلاف طبقاته"[3].

و لم يكن ظهور الجمعيّة وليد الصّدفة و إنّما كان ثمرة بذور زرعها بعض المصلحين العرب و المسلمين في أواخر القرن التّاسع عشر، أمثال جمال الدين الأفغاني و محمد عبده. قد ساعد على ظهور الجمعيّة عوامل نلخّصها فيما يلي :

---

[1] المنتقد: صحيفة أسبوعية أصدرها عبد الحميد بن باديس سنة 1925،و لم تعمّر إلا ثمانية عشر أسبوعا .

[2] ينظر د . عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، ص 559 .

[3] د . عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، ط2، 1983، ص 30.

1- الاستعداد الفطري للشّعب الجزائري، بحيث كانت هناك بذور إصلاحيّة محليّة و كان يمثّلها الرّعيل الأوّل من المصلحين.

2- جيل المصلحين الأوّل الّذي ظهر في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر، وكان سلفيّا و قد تأثّر بالحركة الإصلاحيّة المشرقيّة و من أعلامه : الشّيخ صالح بن مهنا [1]، و الشّيخ عبد القادر المجاوي[2]، و الشّيخ عبد الحليم بن سماية [3]، و الشّيخ محمد بن الخوجة [4]. إلاّ أنّ تأثير هؤلاء العلماء في نشر الإصلاح كان محدودا لأنّ الظّروف لم تكن مواتية إذ أنّ بعضهم كان يعمل مدرّسا في مدارس الإدارة الحكوميّة ممّا اضطرّهم إلى تخفيف نشاطهم، و كان البعض الآخر يحتفظ لنفسه بأفكاره لأنّهم يؤمنون أنّ الوقت لم يحن بعد لنشرها.

3- الصّحافة العربيّة الإصلاحيّة في الجزائر و الدّور الّذي لعبته في أوائل العشرينات في تحضير الرّأي العام لتقبل الحركة الإصلاحيّة و منها "الجزائر" لعمر راسم، و "الفاروق" لعمر بن قدور و « ذو الفقار» لعمر راسم، و "الإقدام" للأمير خالد ، و "المنتقد" ثمّ الشّهاب لابن باديس: و "الجزائر" للزاهري و "صدى الصحراء" ثمّ "الإصلاح" للطيب العقبي: و "وادي ميزاب" لأبي اليقظان .

---

[1] توفي عام 1907 م في مدينة قسنطينة، لقي في سبيل دعوته الإصلاحيّة الوطنية النفي و التشريد من قبل الإدارة الفرنسية و صودرت مكتبته.

[2] 1848-1913، كان يؤمن بأن الإصلاح يكون عن طريق العلم و التعليم و له في ذلك مؤلفات عديدة .

[3] 1866-1933، من أهم مؤسسي الحركة الإصلاحية في الجزئر، له مؤلف "فلسفة الإسلام" يعرض فيه النظرة الإصلاحية السلفية.

[4] 1865-1917، كان من المقربين للشيخ محمد عبده و اهتم بالحياة الاجتماعية و الأخلاقية، يدعو لمنح المرأة حقوقها في كتابة "الاكتراث في حقوق الإناث"، كما اهتم بالاجتهاد و رفض الجمود و التقليد .

4- الثّورة التعليميّة و التربويّة الّتي أحدثها الشّيخ ابن باديس في قسنطينة منذ عام 1913.

5- عودة الطلبة الأوائل من البلاد العربيّة كالحجاز و مصر و تونس أين تلقّى هؤلاء العلم و كان من بينهم البشير الإبراهيمي و الطيب العقبي و مبارك الميلي، فكوّنوا مع ابن باديس النّواة الأولى لجمعية العلماء.

6- الحرب العالمية الأولى و التّطور الفكري الّذي أفرزته على الصّعيدين السّياسي و الاجتماعي.[1]

هذا باختصار عن الإرهاصات الأوّلية للحركة الإصلاحيّة،و ما يجدر الإشارة إليه هو أن تلك الحركة قد واجهت نوعين من المعارضة و قاومتهما كانت الأولى معارضة سياسية تمثلت في السّلطة الإستعماريّة الّتي عملت بشتّى الطّرق و الوسائل على تعطيل مسار الحركة بدءا باضطهاد أصحابها و توقيفهم لينتهي بهم الأمر إلى السّجون و الإبادة. و كانت الثّانية معارضة دينيّة و هي ذات جانبين : جانب أجنبي يمثّله المستعمر و آخر محلّي يمثّله رجال الصّوفيّة و الطّرقيّون.[2]

و قد اعتمدت الحركة في عملها اتجاهين: أولّهما الدّعوة و الثّاني الصراع، الدّعوة للعودة إلى التّاريخ المجيد و الاستفادة منه و هو ما أشرنا إليه سابقا بعملية الإحياء، و الصّراع ضدّ الطّرق الصّوفيّة و أساليبهم و فهمهم للإسلام، و هي في هذا و ذاك تغرف من منبع واحد لا يشوبه تغيير و لا تبديل ألا و هو القرآن و السّنّة، فالإصلاح الدّيني إذن هو نقطة الانطلاق و فاتحة أعمال

---

[1] ينظر د. أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، مرجع سابق، ص 91 - 94.

[2] ينظر د. محمد عباس، البشير الإبراهيمي أديبا، مرجع سابق، ص 19.

الحركة الإصلاحيّة الجزائريّة الّتي عملت على "تحرير العقول من الأوهام و الضّلالات في الدّين و الدّنيا و تحرير النّفوس من تأليه الأهواء و الرّجال [1]".

فمنهج الحركة الإصلاحي يعتمد محاربة البدع و الخرافات و الضّلال في الدّين كخطوة أوّليّة ليتسنّى لها بعد ذلك محاربة المستعمر الغاشم، و عن ذلك يقول الشّيخ الإبراهيمي :"استعمار ماديّ هو الاستعمار الفرنسي يعتمد على الحديد و النّار، و استعمار روحاني يمثّله مشائخ الطّرق المؤثّرون في الشّعب و المتغلغلون في جميع أوساطها المتجورن باسم الدّين، المتعاونون مع الاستعمار عن رضا و طواعيّة [2]".

و دعوة الحركة بالعودة إلى الماضي لا تعني بأيّ حال من الأحوال الرّكون إلى هذا الماضي بكلّ خلفيّاته و إنّما الاستفادة منه و اخذ العبرة من معاني تراثه السّامية الّتي لا تتغيّر و لا تتبدّل مهما طال الزّمن و تغيّر من هذه المعاني: الحريّة و الكرامة، الشّجاعة و الجهاد و النّصر، فالمرحلة إذن هي مرحلة تجاوز، تجاوز عهد الضّياع و الخمول إلى عهد النّشاط و الحضارة، و لهذا كان الصّراع ضدّ الطّرقيّة و الفقهاء المتزمتين من رجال الزّوايا الّذين تشبّثوا بالماضي و بالنّصوص القديمة دون أن يحاولوا التّجديد و لا أن يفسّروا الدّين تفسيرا صحيحا يناسب العصر و إنما توقّفوا عند عصور الانحطاط و اكتفوا بها، فجاءت الحركة لترفع شعار الإسلام، دينا و دولة و عقيدة،و فتحت باب الاجتهاد في فهم الدّين بعد أن أغلقه الطّرقيّون، و فكرة الإصلاح تبدأ بالقرآن و السّنّة و تنتهي بهما لأنّ الاعتماد على سواهما قد أحدث بلبلة و اضطرابا و أوقع النّاس في الشّكّ و التمزّق بحيث ظهرت طوائف أضرّت بالوحدة الإسلاميّة بينما نجد الفكر

---

[1] البصائر، سل 2، ع2، 1366 هـ، 1947م، ص 2.

[2] القول للبشير الإبراهيمي، نقلا عن د. عباس، البشير الإبراهيمي أديبا، مرجع سابق، ص 81.

الصّوفي يعتمد نصوصا أخرى -إلى جانب القرآن و السّنّة - و خاصة تلك النّصوص الّتي تتّصل بالتّصوف و معانيه، و هنا يكمن الاختلاف بين الفكر الإصلاحي و الطّرقيّة و هي نقطة تحسب لصالح الحركة الإصلاحيّة الّتي أخذت شعبيّتها تتّسع لتشمل أرجاء الوطن كلّه لا سيّما و قد استطاع رجال الإصلاح التّجاوب مع الشّباب و تشجيعهم على تفسير الدّين و إنشاء المدارس، في حين فقد رجال الزّوايا بعض أتباعهم لأنّ دورهم أصبح روتينيا تقليديّا إضافة إلى كونهم يعيشون في عزلة تامة عن المجتمع، و هكذا أصبحت تلك البرجعاجية - الّتي كانت مصدر قوّتهم أوّل الأمر - أصبحت عائقا قويّا بالنّسبة للمجتمع الّذي كان يعجّ بالأفكار الجديدة الّتي استغلّها رجال الإصلاح. و كان الإصلاح الدّيني منطلقا للإصلاح الاجتماعي، فالحركة الإصلاحية لم تكن لتقف عند حدّ إنتاج الأفكار، و إنّما كانت تترصّدها بالتوجيه المنظّم حتّى تحقّق غايتها الاجتماعيّة.[1]

هذا عن الحركة الإصلاحيّة بصفة موجزة، حركة بدأت كفكرة وأخذت تسري في صفوف الخاصّة و العامّة إلى أن تصعّدت في الثلاثينيّات بظهور جمعيّة العلماء الّتي جاهدت و ثابرت بعزم و إصرار حتّى حقّقت الأماني و كان النّصر حليفها.

الشّعر الإصلاحي :

بعد ظهور جمعيّة العبماء المسلمين الجزائريّين تكاثرت المؤسّسات الإصلاحيّة و تغيّرت الأهداف و الأبعاد، فاكتسب الشّعر بعدا قوميّا و سياسيّا تجلّى بوضوح في القصائد الّتي واكبت النّهضة - منذ بداياتها الأولى- فـ "الشّعر الإسلامي رسم صورة صادقة للمجتمع بكلّ مافيه

---

[1] ينظر د. محمد عباس، البشري الإبراهيمي أديبا، مرجع سابق ص 86.

من تناقضات في أسلوب يناسب روح العصر، روح الدّعوة فهو تعبير مضمونا و شكلا عن واقع معاصر و عن فترة لها ظروفها و تجاربها الخاصّة[1]".

إنّ الشّعر الإصلاحي يعدّ إذن مرآة للمجتمع، نقل إلينا بأمانة الظّروف الّتي كان يعيشها الشّعب في أخطر مراحل حياته و لئن ارتبط الشّعر بالحركة الإصلاحيّة فهذا لا يعني أنّه كان بمعزل عن باقي الاتّجاهات، و لكنّه مع ذلك كان ينظر إلى جميع القضايا الوطنيّة من زاوية واحدة هي زاوية الإصلاح الثّقافي منه و الاجتماعي على حدّ السّواء [2].

و نحن إن تتبّعنا شعر تلك الفترة – و خاصة الإصلاحي منه – وجدنا النّزعة التّقليديّة المحافظة تغلب عليه ذلك لأنّ الظّروف السّياسية و الثّقافية و الاجتماعيّة الّتي أحاطت به طبعته بطابع المحافظة و التّقليد [3]. و هكذا فإنّ روّاد الشّعر الجزائري الحديث في بداية النّهضة كانوا يتشابهون في الاتجاه و التّفكير و يتقاربون في الأسلوب و طريقة التّعبير ذلك لأنّهم كانوا يتهلون من منبع واحد هو الثّقافة العربيّة القديمة "يبنون عليها رسالتهم الإصلاحيّة، و يقيمون عليها نهضة البلاد و إذا بفكرة الإحياء و الرّجوع إلى الماضي الّتي تجذب العقل و العاطفة معا [4]".

و إلى جانب الثّقافة العربيّة القديمة، فقد اعتمد الشّعراء الإصلاحيّون على القرآن الكريم يغرفون منه و يستلهمون معانيه يقول ابن باديس "إنّنا و الحمد لله نربّي تلامذتنا على القرآن من أوّل

---

[1] عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري، مجع مرجع سابق، ص 628.

[2] ينظر سعد الله،دراسات في الأدب الجزائري الحديث، تونس، الدّار التونسية للنشر– الجزائر – المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط 3، 1985.

[3] محمد ناصر، الشّعر الجزائري الحديث، اتجاهاته و خصائصه الفنية (25 – 1975)، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1985، ص 39.

[4] المرجع نفسه، ص 42.

يوم و نوجّه نفوسهم إلى القرآن في كلّ يوم، و غايتنا الّتي ستتحقّق أن يكوّن القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم، و على هؤلاء الرّجال القرآنيين تعلّق هذه الأمّة آمالها، و في سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا و جهودهم"[1].

هكذا أصبح القرآن مصدرا من مصادر الصّورة الشّعريّة و إنّنا نلمس أثره في الشّعر الجزائري بصفة جليّة في التّعبير و التّصوير معا إضافة إلى الأدب العربي القديم الّذي يعتبر من أغزر الرّوافد الّتي صبّت في الشّعر الجزائري الحديث عن هذا يقول ابن باديس :"الشّعر العربي هو أصل ثروتنا الأدبيّة، و أصل بلاغتنا، و مرجع شعرائنا في اللّغة و البلاغة، و الأساليب العربيّة، فدرسه و الاستفادة منه أمر ضروري لحفظ هذا اللّسان المبين . . ."[2] و كان الإبراهيمي أشدّ زعماء الإصلاح تأكيدا على هذا الجانب فهو ينصح الأدباء الشّباب "أن يدمنوا القراءة لآثار فحول الكتّاب من قدماء و محدثين و أن يحملوا أقلامهم على احتذائها بالتّدريج و أن يتكثروا بحفظ اللّغة الأدبيّة و يتبصّروا مواقع استعمالها في التّركيب . . ."[3].

و كان رجل الإصلاح يعتبر هذا التوجيه من المهام الّتي لا تكتمل رسالة جمعيّة العلماء بدونها و من ثمّ كان لزاما على جريدتها "البصائر" أن تصبح الميدان الحقيقي الّذي يتجلّى فيه الأدب الرّاقي عمليّا .

و نعود لنتقصّى و نتّبع الخطوات الأولى للشّعر الإصلاحي، و لعلّ أوّل قصيدة تمثّل بداياته هي قصيدة "المنصفة" للشّاعر محمّد المولود ابن الموهوب و الّتي مطلعها :

---

[1] المرجع نفسه، ص 43 .

[2] المرجع نفسه، ص 46 .

[3] المرجع نفسه، ص 48 .

صعود الأسفلين به دهينا ∴ لأنّا للمعارف ما هدينا

و يصف الشّاعر في قصيدته تلك واقع الشّعب الجزائري في مطلع القرن السّابق الّذي كان غارقا في الخرافات و البدع كما يتقصّى أمراض المجتمع واحدا واحدا كالخمر و القمار و الرّبا و غيرها . . . و كلّ هذه أمراض سببها الجهل و الابتعاد عن تعاليم الدّين الحنيف و عدم العناية بالتّعليم :

نعم إنّا شقينا إذا سقينا ∴ كؤوس الجهل لكن ما روينا

يناديا الكتاب لكلّ خير ∴ فهل كنّا لذلك سامعينا .

ثمّ يعمد الشّاعر بعد ذلك لإصلاح الواقع و نقده ليصل بعدها إلى المخلّص الوحيد و الطّريق القويم ألا و هو الإسلام و الرّجوع إلى تعاليمه الحنيفة، ليصل في الأخير إلى وصف الحضارة العريقة ثمّ يأمر الشّعب للعودة إلى الأصل .

و حسبنا قصيدة ابن الموهوب مثالا لنكوّن فكرة عن الشّعر الإصلاحي فالمقام لا يسمح لأن نورّد أشعارا كثيرة – مع الإشارة إلى أن جلّ أشعار تلك الفترة كانت تنظم على منوال واحد–، فالقصيدة إذن تكاد تمثّل منهجا كاملا للشّعر الإصلاحي .[1]

إنّ الوسيلة الّتي اعتمدها الشّاعر ليوصل شعره للشّعب هي الصّحافة العربيّة الّتي أنشأت في تلك الفترة كالإقدام و المنتقد و الشّهاب .[2]

---

[1] ينظر عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري، مرجع سابق ص 565 .

[2] الشهاب: جريدة لجمعية العلماء من تأسيس ابن باديس صدرت في قسنطينة سنة 1925 م و توقفت سنة 1939 بيد المستعمر الفرنسي.

كما اعتمد على الاجتماعات العامة التي تحمل طابع المناسبة مثل تدشين المدارس الحرّة و إحياء المواسم الوطنيّة و الدّينيّة إلى جانب المدارس التي ساهمت في نقل الشّعر إلى الجمهور باعتبار أنّ جلّ الشّعراء كانوا معلّمين.[1]

و بقي الشّعر على حاله حتّى الحرب العالميّة الأولى حيث بدأت بذور الرّومانسيّة تظهر فأصبح الشّاعر يرسل قصائده في نغمة شجيّة حزينة يربط فيها بين نفسه و واقع بلاده و من أمثلة ذلك قصيدة "دمعة على الملّة" و قصيدة "إلى الأمّة الإسلاميّة" و قصيدة "أنين الضّمير" للشّاعر عمر بن قدّور الذي يمثّل هذه الحقبة بأسلوبه القويّ الدّالّ على أنّ الشّعر قد استطاع التّحرّر إلى حدّ كبير من الأساليب المتكلّفة، فقد استطاع الشّعر أن يستوعب النّماذج الغربيّة القديمة و أن يستفيد منها، و قد تأثّر بهذا الشّاعر الكثير من معاصريه أمثال المولود الزريبي في قصيدة "زفرات العشيّ" التي يصوّر فيها الأضاليل و الشّعوذة، و ينصح بالرّجوع إلى الكتاب و السّنّة[2]. و كان أغلب شعراء هذه الفترة يعمدون إلى نقد الواقع و البكاء عليه، و هو ما اختفى في الفترة التي تليها، أي العشرينيات أين قويت شوكة الحركة الإصلاحيّة و انتشر دعاتها في شرف الوطن و غربه، فلم يبق الشّعر مجرّد سرد للأحداث مع التّحسّر عليها و التّأسّف و النّحيب، و إنّما أصبح سلاحا في يد رجال الإصلاح يستخدمونه لإيقاظ ضمير الشّعب المخدّر بالأكاذيب و الأوهام، فظهر ما يعرف بشعر الدّعوة[3]، دعوة إلى العلم ورفض الفكر الغيبي الذي لا يمتّ بصلة إلى الكتاب و السّنّة. و قد تميّز الشّعر في هذه الفترة بالهجوم

---

[1] أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 37.

[2] ينظر عبد الله الركيبي، الشعر الدّيني، مرجع سابق، ص 572.

[3] المرجع نفسه، ص 573.

و الصّراحة في دعوته إلى اليقظة، اليقظة من السّبات العميق الّذي كان يطبق على أنفاس الشّعب من ناحية، و الدّعوة إلى الاتّجاه نحو المشرق و التّجاوب معه و الانتماء إليه من ناحية أخرى.

و قد بلغت الجرأة بشعراء هذه الفترة إلى حدّ المطالبة بتكوين حزب إصلاحي يجمعهم و يمكّنهم من تحقيق أهدافهم، فالشّيخ الطيب العقبي [1] تمنى أن "يوحّد ذووا العلم الصّحيح صفوفهم و يجمعوا أشتاتهم حتّى يكوّنوا من جموعهم جبهة دفاع قويّة تقف في وجه ذوي العقائد الزّائفة لتردّ إفك الأفاكين و تدحض حجج الدّجالين المضلّين" [2].

و هكذا فقد ظهرت في العشرينات أسماء كثيرة لشعراء تؤيّد الحركة الإصلاحيّة، هؤلاء الّذين اتّخذوا من الصّحف وسيلة لعرض نماذج شعريّة مختلفة و متفاوتة من حيث الأسلوب و المحتوى، و كان الشّاعر يستغلّ أيّة مناسبة ليعلن عن إيمانه بالتّطوّر و أمله في النّهضة و خير من يمثّل هذه الحقبة الزّاهري [3] و رمضان حمّود [4] إلى جانب محمد الصالح خبشاش [5] الّذي

---

[1] الطيب العقبي من مواليد 1988 بسيدي عقبى، قضى مرحلة شبابه في الحجاز، كان ممثلا لجمعية العلماء، تجنّب السياسة و ناضل في مجال الإصلاح الديني ، أنشأ جريدة الإصلاح و حرر في جريدة المنتقد ثم الشهاب و البصائر، أسس نادي الترقي سنة 1927، اعتقل سنة 1936 .

[2] عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري، مرجع سابق، ص 573 .

[3] محمد السعيد الزاهري :1897 م، من قرى الزاب الشرقي، تخرج من الزيتونة سنة 1924، اشتغل مدرسا في جمعية العلماء في مدينة الأغواط، تلمسان و و هران.

[4] رمضان حمود، شاعر سياسي، ولد بغرداية 1906 و توفي في 1929 تاركا شعرا غزيرا و كتاب "بذور الحياة".

[5] محمد الصالح خبشاش : ولد في سنة 1904 بوادي يعقوب على مقربة من قسنطينة، توفي أثناء الحرب العالمية الثانية و كان يعمل آنذاك في جريدة "النجاح".

استطاع أن يعبّر عن هذه المرحلة بدقّة و محمد العيد في قصيدته "لا حياة إلاّ بالعلم"الّتي يدعو من خلالها إلى العلم كما يوضّح ذلك عنوانها و سعد الدين بن الخمار يدعو هو أيضا للعلم :

الله أكبر نور العلم وضّاح ∴ و للخلائق أمراح و أفراح

و غيره من الشّعراء كثيرون الّذين ركّزوا في شعرهم الإصلاحي على العلم و نبذ الجهل و التّخلّف مع مدح علوم الغرب و حضارته و ما استطاع التوصّل إليه من رقيّ في الصّناعة و المدنيّة، و قد اتّخذ بعضهم أسلوب المقارنة، مقارنة حال الغرب بحال الجزائر و ما هي عليه من تخلّف و ركود، يقول محمّد اللّقاني بن السّائح.[1]

النّاس بالعلم شقوا الأرض و اخترقوا ∴ و شيّدوا و بنوا عزّا و تمكينا

النّاس في الجوّ طاروا و حلّقوا و علوا ∴ و نحن نحسبهم جهلا شياطينا [2]

و قد تحدّث الشّعراء كذلك عن الصوفية والطرقية و الأضاليل الّتي أشاعتها في الأوساط الشّعبيّة كما سبق و أن أشرنا، فقصيدة الشّيخ الطيب العقبي " "الدّين الخالص" تهجو البدع المستحدثة في الدين خلال تلك الفترة و لعلّها أوّل قصيدة هاجمت التّصوّف أو هي على الأقل من أوائل القصائد الّتي صوّرت حالة المجتمع من حيث انتشار الخرافات و ضعف الدّين في نفوس النّاس و سيطرة الطّرق عليه"[3].

ماتت السّنة في هذه البلاد ∴ قبر العلم و ساد الجهل ساد

---

[1] ولد محمد اللقاني 1313، في نقطة ثم انتقل إلى تقرت و سافر إلى تونس أين تحصل على شهادة العالمية ثمّ عاد إلى الجزائر و اشتغل مدرسا ليعود ثانية إلى تونس أين توفي 1389 هـ - 1970م.

[2] عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري، مرجع سابق، ص 573.

[3] المرجع نفسه، ص 590.

و فشا داء اعتقاد باطل ∴ في سهول القطر طروا النجاد

عبد الكلّ هواء شيخه ∴ جدّه ، ضلّوا و ضلّ الاعتقاد

و هو سلفيّ لا يؤمن بالخرافات و عماده القرآن و السّنّة و هو يسخر ممّن يعبد الأوثان و يعني بهم الطّرقيّين، و هكذا فإنّ قصيدته نقد للأوضاع و وصف للبدع الكثيرة الّتي غلبت على تلك الفترة.

و قد اتّخذ بعض الشّعراء أسلوب الفكاهة و السّخريّة طريقة للتّعبير، نلاحظ ذلك من خلال قصيدة قدور الحلوي الّتي نورد منها بعض الأبيات على سبيل المثال لا الحصر:

أشركوني بالله ، لله أشكو ∴ من صنيع الزعانيف الجهّال

زعموا أنّني أريد و أقضي ∴ نسبوا إلي التّأثير في كلّ حال

و تنادوا من رام حفظ كتاب ∴ فليغالب في سومها و ليغال

و يقول رمضان حمود متهما التصوّف بقتل كلّ جديد :

فمن شاء أن يحيا على النّاس مشرفا ∴ و منعزلا عنهم يحبّ التصوّفا

يقدّم رجلا ثمّ يدبر عشرة ∴ و إن سمع الأقدام زاد توقّفا

و يمضي على قتل الجديد من أصله ∴ و يرجع للقصر القديم و قد عفا

و يجمد في أفكاره و آرائه ∴ و لوكان ما يبغي اعتقادا مجوفا

و يتحدّث في قصيدته تلك عن الإصلاح و رجالاته و يدعو إلى العلم و التّقدّم .

و تفاديا للإطناب يمكننا أن نحدّد المراحل الّتي مرّ بها الشّعر الإصلاحي بثلاث مراحل [1]:

1- الحسرة و التّفجّع في العشرينيات.

---

[1] ينظر د. صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 102 .

2- الاعتزاز و الإثارة في الثلاثينيات و الأربعينيات.

3- تداعي الأمجاد الغابرة و الحاضرة في ثورة نوفمبر و الخمسينيات.

الحسرة و التفجّع في بداية الصّحوة على ما آل إليه واقع الشّعب من ذلّ و هوان بعدما كان يتمتّع به من عزّ و شرف، و تجدر الإشارة إلى أنّ البكاء كان أسلوبا من أساليب التعبير أو طريقة للتّروّح على النّفس :

بكيت عليهم - لا أبا لك - فالبكا ∴ طبيب يبلّ الصّدر عند المصائب[1]

و لكن ما لبث أن اكتسب الشّعر طاقة جديدة و ذخيرة تعبيريّة لم يجدها من قبل، و السّبب في ذلك هو ميلاد جمعية العلماء، و ظهور الحزبين الشّيوعي و الاشتراكي، و ظهور جريدة البصائر و قبلها مجلّة الشهاب ممّا زاد الشّعب إيمانا بنفسه و بمستقبله و جعله يستيقظ و يفتح عينيه على صبح جديد . قال ابن باديس يؤرّخ للنّهضة :"أعلن الشّهاب من أوّل يومه - و المنتقد الشّهيد قبله أنّه لسان الشّباب النّاهض في القطر الجزائري، ولم يكن يوم ذاك من شباب، إلاّ شباب أنساه التّعليم الاستعماري لغته و تاريخه و مجده و قبح له دينه و قومه و قطع له من كلّ شيء إلاّ منه - أمله و حقره في نفسه تحقيرا . أمّا اليوم فقد أسّست في الوطن كلّه جمعيّات و مدارس و نواد باسم الشّباب و الشّبيبة و الشّبّان، و لا تجد شابا إلاّ نادرا إلاّ و هو منخرط في مؤسّسة من تلك المؤسّسات و شعار الجميع : الإسلام - العروبة - الجزائر[2]".

إنّ الشّعر رأى في ميلاد الجمعيّة بعثا للماضي المجيد و عودة إلى الماضي التّليد . و قد اشتدّ ساعد الحركة الإصلاحيّة في تلك الفترة،و قوي معها الشّعر الإصلاحي الّذي أخذ صيغة

---

[1] المرجع نفسه، ص 104 .

[2] ينظر د . صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 107 .

التّحدّي و المجابهة، مجابهة الاستعمار من ناحية و أذياله الّذين ينكرون تاريخ الجزائر من ناحية ثانية، فوجد الشّعر بذلك مناخا جديدا يساعده على التطوّر و الإقدام، لا سيّما و أنّ الجمعيّة أصبحت تخوض في السّياسة – حتّى و إن كان قانونها الأساسي يمنع ذلك – و أصبحت تدلي برأيها في أمور الدّولة و تناقش آراء الجهات الأخرى ممّا أعطى للشّعر متنفّسا جديدا ، هذا إضافة إلى انعقاد المؤتمر الإسلامي الجزائري سنة 1936 م و الّذي يعتبر ملتقى وحدة وطنيّة جمع جلّ الاتّجاهات السّياسيّة و الإصلاحيّة و لكن الحرب العالمية الثانية جمّدت الأقلام و القرائح – ظاهريا على الأقلّ – لتتفجّر و تنطلق مجدّدا بعد أحداث 8 ماي 1945 م فأصبح الشّعر الّذي كان مجرّد تساؤل ممزّق و دمعة مسفوحة، أصبح تحديا صارخا، و المسحة الدّينيّة الّتي كانت تطبع الأشعار تعدّتها لتلمس في الماضي مواقف البطولة و الشّرف و الجهاد و الاستشهاد في سبيل الحرّية و الكرامة، فتضفي بذلك مسحة سياسية على الشّعر الّذي تحوّل شكلا و مضمونا إلى صرخة ثوريّة تستحثّ الهمم و تستصرخ فتية الضاد فمن غيرهم يستطيع تغيير الواقع، يقول أحمد سحنون [1] يحيّي هلال شهر محرّم من سنة 1947 م:

يا فتية الضاذ هدا ∴ شهر المحرّم حيّا

شهر تألف فيه ∴ تاريخنا عبقريا

يبدو به كلّ عام ∴ كغرة في محيا

عودوا إليه، ففيه ∴ ما يستفزّ الخليا

فيا شبيبة طه ∴ و جنده المفديا

---

[1] ولد الشيخ أحمد سحنون في 1906 أو 1907 بقرية ليشانة من الزاب الغربي، كان عضوا في جمعية العلماء، نشر شعره في "النّجاح"، "الشهاب"، "البصائر"، سجن أثناء الثورة عمل إماما كما كان عضوا في المجلس الإسلامي الأعلى (بعد الاستقلال).

و من بذكراه أضحى ∴ رغم العوادي حفيا

محمد ليس يرضى ∴ بأن تعيش شقيا

و إن قنعت بدون ∴ يكون منك بريا

إن لم تكن مثل طه ∴ فلست في طه شيا

تبني كما كان يبني ∴ مجدا يطول الثريا

إلى الأمام لتحيي ∴ ما كان بالأمس حيا[1]

و نفس الأسلوب نلحظه عند الجريدي في قصيدة ألقاها في مولد سنة 1950 م يستحثّ فيها الشّباب للنّهوض من سباتهم و الاستفادة من تاريخهم، كما نراه في موضع آخر يبكي و يتحسّر على حال المسلمين و ما أصابهم من هوان بسبب ما قدّمت أيديهم و لكنّه لا يركن إلى البكاء و النّحيب كما عهدنا غيره بل يتخطّاهما ليثور و يتمرّد قائلا :

فعودوا، و سوّوا للكفاح صفوفكم ∴ و خوضوا إلى تحريركم لجج الخطب

فحسبكم قرن و عشرون حجّة ∴ تجرّعتم أثناءها غصص الكرب

كفى من حماس القول ما قلّ نفعه ∴ و أذكوا حماس الفعل في الفتية النجب[2]

و هكذا واصل الشّعر ثورته ضدّ الأوضاع السّائدة و ضدّ الاستعمار الغاشم و ما إن أهلّت الخمسينيّات حتّى اتّضحت معالم الشّخصيّة الجزائريّة و تبخّرت أسطورة "الجزائر الفرنسية " و تبيّن أنّ عبارة "الجزائر بلا تاريخ" إنّما هي أكاذيب واهية لن تستطيع الصّمود أمام عزيمة الشّعب القويّة، و فعلا قد أضحدت رصاصة نوفمبر كلّ المزاعم، فقام الشّعر يهلّل لها

---

[1] ينظر د. صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 116.

[2] المرجع، السابق، ص 120.

و يمجّدها فتحوّلت رسالته من استلهام الماضي إلى تمجيده حيا في الحاضر، و تلاشت الفواصل التّاريخيّة و انصهرت الشّخصيّة التّاريخيّة في الشّخصيّة المعاصرة.

و الشّعب إسرع للشّهادة عندما ∴ ناداه عقبة للفداء و حيدر
و تكلّم الرّشاش جلّ جلاله ∴ تزت الدّنيا و ضجّ النّير
و الذكريات و إن تقادم عهدها ∴ في أمّة أشباهها تتكرّر
يوم الزّمان كأمسه، و غداته ∴ و حوادث الأيّام لا تتغيّر
إنّ الجزائر لم تنم عن ثأرها ∴ أو تنسها ألم المصاب الأعصر[1]

إنّ مصرع المواطن على رفات آبائه تأكيد لتواصل الشّخصيّة الوطنيّة و أصالة التّراب، يقول السّائحي على لسان الشّهيد :

آه، لو تدري أنّني في مكان ∴ لثم الترب فيه أقدام عقبة
و خنت دوجه عليه يصلّي ∴ و سرت شهبه تواكب ركبه
و غشاه حسان ذات صباح ∴ و رآه عند المسا، فأحبّه
عربيّ هذا التّراب، فلا تخشى ∴ عليّنا فلم يسلّم عربه[2]

تلك هي المراحل الّتي مرّت بها الحركة الإصلاحيّة في نهضتها و معها الشّعر "صحوة متثائبة متثاقلة تتملّكها الحيرة و الالتفات يمنة و يسرة و يقعدها التّفجّع و التمزّق في فترة يسودها الضّياع"[3] في أوّل أمرها ثمّ تلتفت إلى تاريخها و أبطالها الخالدين و أيامها المشهودة فيملأها ذلك

---

[1] مفدي زكرياء، ديوان الهب المقدس، ص 137.

[2] ينظر د. صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 130.

[3] المرجع نفسه، ص 133.

نخوة و اعتزازا ممّا يحفّزها لبعث نهضة معاصرة فلم تجد أفضل من الشّعر لإثارة النّخوة و بعث الهمم.

و ما يمكننا قوله في الختام هو أنّ الشّعر الإصلاحي يعدّ مرآة للمجتمع نقل لنا بصدق و أمانة ما عاشه الشّعب خلال تلك الفترة في أسلوب يناسب روح العصر، أسلوب غلب عليه الاهتمام بالمضمون على حساب الشكل، فالشّعراء كان همّهم الوحيد هو لمّ شمل الشّعب و المضيّ بخطوات ثابتة و تحت راية واحدة إلى التّقدّم الّذي لن يتحقّق إلاّ بعد التخلّص من جبروت المستعمر، فكانوا بذلك ألسنة صادقة تعبّر عن آلام و أمال الشعب .

الفصل الأوّل

حياة محمد العيد آل خليفة

من المتعارف عليه إلقاء الضوء علي حياة الشّاعر أو الأديب عموما قبل التّحدث عن نتاجه الأدبي، و حتى لانكون الشاذ الذي يخالف القاعدة خصّصنا هذا الفصل للتعريف بحياة الشّاعر بدءا بنشأته و تكوينه إلى المؤثرات التّي طبعت شخصيّته.

1 -النشأة و التكوين:

تنحدر أسرة محمد العيد من عرش المحاميد الّذين استوطنوا وادي سوف قادمين إليها من ليبيا في العهد العثماني[1]. و قد نزح والد الشّاعر الحاج محمّد علي خليفة في أواخر القرن التّاسع عشر الميلادي من قريته الصّغيرة إلى مدينة العين البيضاء بالشّرق الجزائري، حيث استقرّ به المقام هو و أسرته، و أخذ يمارس التّجارة.

و في مدينة عين البيضاء الجميلة المتربّعة بين التّلال و السّهول عرف محمد العيد النور في 27 جمادى الأولى 1322هـ- 28 أوت 1904 و نشأ في جوّ أسري مفعم بالتقى و الورع[2]. و كان أبوه قد بنى مسجدا بعد أن ربحت تجارته و علّم أبناءه و لا سيّما محمد العيد و هو رابعهم[3]، فكان أن شبّ على ذاك الحبّ العميق الموروث للعقيدة الإسلاميّة و الأخلاق الفاضلة و الإيمان الشّديد بعزّ الإسلام و الوطن.[4]

و في سنة 1918م[5]، بعد الحرب العالمية الأولى تدهورت الحالة الاقتصادية و معها ظروف المعيشة للسّكّان و ذلك بسبب اضطهاد المحتلّ لهم و استيلائه على خيراتهم، فكان أن غادر

---

[1] محمد بن سمينة، محمد العيد آل خليفة، دراسة تحليلية لحياته، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية 1992، ص 7.

[2] محمد بن سمينة : شخصيات لها تاريخ : محمد العيد آل خليفة، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب 1989، ص 7.

[3] د. أبو القاسم سعد الله : شاعر الجزائر محمد العيد، مرجع سابق، ص 21.

[4] المرجع السابق، ص 8.

[5] يذكر الد. سعد الله أن سنة الهجرة كانت 1917 م شاعر الجزائر محمد العيد.

والد الشّاعر عين البيضاء متّجها صوب بسكرة أين استقرّ به المقام و اشترى بيتا - كانت ملتقى رجال الإصلاح أمثال العقبي و ابن باديس - و قد مكث ببيته تلك إلى أن وافته المنيّة سنة 1927م.

و ببسكرة اختلف الشّاعر إلى مقاعد العلم، فكانت - إلى جانب البيت - عاملا مساعدا على تشبّع هذا التّلميذ الصبيّ بالرّوح الدينيّة و تعميقها في نفسه، و كان قد استهلّ تعليمه بقراءة القرآن و حفظه على يد الشّيخين محمد الكامل بن عزوز و أحمد بن ناجي في مدينة عين البيضاء، و تابع دراسته ببسكرة على يد المشايخ علي بن ابراهيم العقبي الشّريف و المختار بن عمر البعلاوي و الجنيدي أحمد مكي[1] و هناك أتمّ حفظه للقرآن الكريم وهو ابن أربع عشرة سنة .

و في سنة 1921م توفي شيخه عليّ بن ابراهيم و لم يتمم الشّاعر دراسته بعد و لم يرو ضمأه من مناهل المعرفة، فتاقت نفسه إلى الإغتراب طلبا للمزيد من العلم فكان أن سافر إلى تونس ليزاول الدراسة بجامع الزيتونة[2] و هناك حاول سبر أغوار الثقافة العربية قديمها و حديثها، و لكنه ما لبث أن عاد أدراجه إلى الجزائر بعد فترة قصيرة[3] دون أن يحصل على أيّة شهادة علميّةبعد أن أدركته متاعب و أمراض أضنت جسمه بسبب المناخ الرّطب الذّي لم يكن الشّاعر متعوّدا عليه في بيئته.

---

[1] المرجع السابق ، ص 86.

[2] محمد بن سمينة:دراسة تحليلية .مرجع سابق ص12

[3] تقدّر الفترة الّتي قضاها بتونس بسنتين

وهكذا إستقر العيد ببسكرة أين إتصل بالشيخ المختار البعلاوي أرطباز و أفاد منه في الفقه و الحساب، كما إختلف إلى دروس الشيخ البشير الإبراهيمي في الزاوية التيجانية، و دروس الشيخ الطّيب العقبي في التفسير و علوم البلاغة[1] .

و إلى جانب تأثره بهؤلاء المشايخ، تأثر الشاعر ببيئته التّي كان يغلب عليها الطابع الدّيني، و هكذا جمع في تكوينه الفكري بين مبادئ الإصلاح و بين النزعة الصوفية التّي أخذها عن أبيه الذّي كان صوفيّا مقدّما للتيجانيّة و قد عبّر بنفسه عن تأثّره ذلك بقوله:"كانت سيرة والدي مرجعا لي في حياته و بعد مماته"[2].

"و استمر هذا التأثير المزدوج يقوى و يشتدّ، و هو يختلف ببسكرة إلى حركات الدّروس بالزّاوية القادريّة حينا و الزّاوية التّيجانية حينا آخر و يحتك بمن يرتاد هذه الأوساط من شيوخ مصلحين[3]"

و لم يكن الشاعر ليكتفي بما حصّل عليه من علم و معرفة سواء في الجزائر أو تونس لهذا عكف على دراسة أمّهات الكتب الأدبيّة القديمة مثل الأغاني و الكامل و البيان و التّبيين والأهالي، ودواوين كبار الشّعراء العرب في مختلف العصور،كما إطّلع على مدارس النّثر و قرأ ما ترجم إلى العربيّة من الآداب العالميّة، و كان دائم الصّلة بالنّتاج الأدبّي في المشرق العربي[4]، مما مكّنه من الإطّلاع على مبادئ كل من المدرسة التقليديّة بزعامة شوقي، و مدرسة المهجر الثّائرة المجدّدة و كان العيد من الأوائل الذّين تأثروا بمدرسة المهجر بدا ذلك جليّا في تأثره بفلسفة

---

[1] المرجع السابق ص14

[2] المرجع نفسه ص15

[3] المرجع نفسه ص15

[4] سعد الله : شاعر الجزائر مرجع سابق ص91

جبران في الحياة و الإحياء و لكنّه مع ذلك لم ينح منحى تلك المدرسة و لم يتبنّ أفكارها ذلك بسبب الأوضاع الّتي كانت تسود البلاد من ناحية و بسبب احتفائه بالأدب و النّقد القديمين من ناحية ثانية فـ" إنّ المطّلع على مكتبة الشاعر الخاصّة يلحظ أنّ ما تحتوي عليه من المصنفات الدينيّية ، العلميّة و السلوكيّة يغلب على غيره من الكتب . . . "[1] .

و إلى جانب كلّ هذه الروافد كان الشاعر يطالع الجرائد الّتي كانت تصل الجزائر الغربيّة منها و العربيّة . أمّا عن الجرائد الجزائريّة فقد ظهرت جرائد وطنيّة ساهم الشاعر فيها بشعره بدءا بالإقدام الّتي أصدرها الأمير خالد بالعاصمة سنة 1919م ثمّ جريدة النجاح بقسنطينة و جريدة المنتقد الّتي أصدرها إبن باديس بقسنطينة سنة 1925م ، و في السّنة نفسها أصدر أحمد بن العابد العقبي جريدة صدى الصحراء ببسكرة و كان الشاعر من محرّريها ليساهم بعد ذلك في الإصلاح الّتي أصدرها الطيب العقبي ببسكرة دائما ، و غيرها من الجرائد الّتي توالت بعد ذلك .

و كان للشّيخ الطيب العقبي و ابن باديس الأثر الكبير في تكوين شخصية الشاعر الدينية و الثقافية إذ اعتنق مبدأ الإصلاح و هو إبن العشرين ، و قد توطّدت صلته بالحركة الأدبيّة و الفكريّة بعد سفره إلى الجزائر العاصمة الّتي كانت الحركة الإصلاحيّة و الثقافيّة بها – في الثلاثينيات– أكثر نشاطا و أشدّ حيويّة ممّا كانت عليه قبلا . فقد كان الشاعر على اتّصال بنادي الترقّي الّذي كان ملتقى العلماء و الأدباء و منطلقا للّقاءات الفكريّة و الثقافيّة بحيث كانت ترد الجزائر جرائد و مجلّات شرقيّة يتّخذ منها و صحبه منطلقا للمناقشة و الحوار و ممّا كان يذكي صلتهم بالشرف تلك الزيارات الّتي كان يقوم بها بعض المفكرين و الادباء المشارقة للجزائر

---

[1] ذكر إبن سمينة بعض تلك المؤلّفات ، أنظر محمد العيد ، دراسة تحليلة ، ص24

فيتمّ تبادل الأفكار و الآراء بين الجانبين ممّا كان له الأثر في تدعيم الحركة الفكريّة و الأدبيّة في مسارها العربي الإسلامي. و يلخصّ الشّاعر مسيرته في التّحصيل و المطالعة قائلا :"كنت أميل إلى القراءة بشغف زائد و أصرف جلّ أوقاتي متتبّعا و باحثا و منقّبا و خاصّة في الدّراسات الاجتماعيّة و الأدب بنوعيه الشّعر و النّثر، بيد أنّي الآن عزفت ذلك جميعه و انصرفت إلى حياة الهدوء و العبادة العميقة المتّصلة"[1].

و نخلص في الأخير إلى القول إنّ الظّروف الاجتماعيّة و الفكريّة الّتي ترعرع الشّاعر في رحابها و غرف من مناهلها ساعدت على تكوين شخصيّته الوجدانيّة و العقليّة فكان بذلك شاعرا و مصلحا إلى جانب أنّه كان معلّما يشارك في بناء المدرسة و إحياء التّعليم العربي و تربية النّشئ. و "كان للشّيخ ابن باديس الفضل في اختياره هذا اللّون من الحياة، إذ رشّحه لمنصب مدرّس بمدرسة الشّبيبة بالعاصمة و هي مدرسة حرّة أنشأها بعض الفضلاء من أبناء الجزائر لكي تؤدّي رسالة تربويّة و ثقافيّة، و أطلقوا عليها اسم مدرسة الشّبيبة الإسلاميّة"[2] تأسّست المدرسة إذن سنة 1927 م و عكف الشّاعر على تأدية عمله ذلك حوالي إثني عشرة سنة أمضى السّنوات الأولى منها كمعلّم، ليصبح بعد ذلك مديرا للمدرسة خلفا لمديرها الأسبق محمد الهادي السنوسي، كان ذلك سنة 1931م. و في السّنة نفسها خرج الشّاعر من عزوبيّته حيث تمّ قرانه بابنة عمّه، فكانت بداية عهده بالحياة الزّوجيّة.[3]

و هكذا نلاحظ أنّ الشّاعر استطاع أن يجمع بين نشاطات شتّى و ينجح في تأديتها، فقد انغمس في التّعلّم و التّعليم مشاركا في الحركة الشّعريّة فكان بذلك مربّيا يربّي النشئ،

---

[1] محمد بن سمينة، دراسة تحليلية، مرجع سابق، ص 28.

[2] سعد الله، شاعر الجزائر، مرجع سابق، ص 87.

[3] محمد بن سمينة، دراسة تحليلية، مرجع سابق، ص 57.

و شاعرا لسان حال الأمّة، و هو في الوقت ذاته إمام يؤمّ الطّلاّب و الأساتذة في الصّلاة و مدير يشرف على تسيير المدرسة وهو إلى جانب هذا كلّه ينظّم لقاءات ثقافيّة أسبوعيّة تشتمل على محاضرات و مناقشات [1].

و في بداية الحرب العالميّة الثانية و تحديدا ف سنة 1940م ترك الشّاعر العاصمة عائدا إلى بسكرة [2] حيث ركن إلى العزلة و الانطواء و كان قد مهّد لهذا ببعض أشعاره نذكر من بينها الأبيات التالية :

هـذا و داع محبّ ∴ ينوي فـراقك دهرا
ما عـنده رأس مال ∴ إلاّ أمـاني حسرى
يا بحر إن ضاق أمر ∴ قد يحدث الله أمرا
لا بدّ من بعد عسر ∴ أن يجعل الله يسرا [3]

ترك الشّاعر العاصمة و مدرسة الشّبيبة معها، و لعلّ هجرته تلك كانت بعد أن التحق المعلّمون الفرنسيّون بالمدسة و فتحوا بها قسمين و عيّن من بينهم مديرا، فانقلب بذلك النّظام المدرسي رأسا على عقب و جمعت مدرسة الشّبيبة بين اللّغتين : العربيّة و الفرنسيّة، يضاف إلى تلك المضايقات و التّجاوزات الّتي كان يتعرّض لها الشّاعر – مدير المدرسة – ممّا أجبره على ترك المدرسة بعد أن نفذ صبره، و هو يرى أنّ الجيل الّذي كدّ و جدّ في سبيل تربيته

---

[1] المرجع نفسه، ص 55.

[2] سعد الله، شاعر الجزائر، مرجع سابق، ص 88.

[3] ديوان محمد العيد، الجزائر، الكوسسة الوطنيه للكتاب، ط3، ص 67.

و تكوينه التّكوين الصّحيح القويم لسنوات طوال ينهج نهجا غير الّذي أراده له و يسير في طريق غير الّذي أعدّه له .[1]

و قد شدّدت السّلطات الفرنسيّة أثناء الحرب العالميّة الثانية قبضتها على الوطنيّين، تسجن البعض و تنفي البعض الآخر، وكان محمد العيد من الأوائل المشتبه فيهم، فكانت العيون تترصّده و تحسب عليه حركاته و سكناته، و تطارده أينما حلّ[2] يشيرالشّاعر إلى تلك المضايقات في الأبيات التّالية :

إنّ للنّاس أنفسا ∴ ضاريات على الضّرر

و عيونا رقيبة ∴ شره تقذف الشرر

فانج من كيدها و كن ∴ من أذاها على حذر[3]

مكث الشّاعر ببسكرة زهاء ثمانية أشهر لينتقل بعدها إلى باتنة حيث عاود مهنة التّدريس و واصل مشروعه التّربوي، فكان يشرف على مدرستها العربيّة، و قد ظلّ هناك حوالي ستّ سنوات عانى فيها قسوة الحياة و جفاء الأصدقاء إضافة إلى تعسّف المحتلّ و ضغوطه فخاب أمله و اعترته أزمة أثّرت عليه تأثيرا حادّا جعله يصمت برهة من الوقت ثمّ يتّجه بشعره اتّجاها صوفيّا و يهرب من النّاس و من الأصدقاء .[4]

ظننت في النّاس خيرا ∴ فخاب ظنّي و خبت

كم قلت شيئا كثيرا ∴ في مدحهم و كتبت

---

[1] محمد بن سمينة، دراسة تحليلية، مرجع سابق، ص 66 .

[2] المرجع نفسه، ص 66 .

[3] الديوان، ص 132 .

[4] أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب و الرحلة، الجزائر، المؤسسة الوطنية لكتاب، 1983، ص 38 .

لقد كذبت فحسبي ∴ في شأنهم ما كذبت

و ليت نحوك وجهي ∴ و تبت يا رب تبت[1]

و لكن إذا كان الشّاعر قد توقّف حينا من الدهر عن نظم الشّعر، فإنّه لم يستسلم بذلك للمأساة و لم يكن منزويا بعيدا عن قضايا وطنه، كلّ ما في الأمر أنّ نشاطه خفّت بعض الشّيء في تلك الآونة مقارنة بما كان عليه في الثّلاثينيات، شأنه في ذلك شأن معظم الأدباء و العلماء و قد أوقفت جمعيّة العلماء جلّ أعمالها طوال سنوات الحرب، و هكذا ظلّ الشّاعر بباتنة يواصل نشاطه العلمي و الإصلاحي، و قد بقي هنالك من سنة 1941 م إلى 1947م أي ما يعادل السّت سنوات لينتقل بعد ذلك إلى عين مليلة حيث بقي ثمانية أعوام مديرا لمدرستها الحرّة (مدرسة العرفان) و كان في الوقت ذاته يؤمّ المصلّين في مساجدها الحرّة، و هناك واصل نضاله التّعليمي و الإصلاحي إلى أن اندلعت الثّورة المظفّرة في فاتح نوفمبر 1954م[2] و في أحضان تلك القرية الصّغيرة، عاد محمد العيد إلى الشّعر مجدّدا آماله بالنّاس و المستقبل و خرج من عزلته إلى آفاق واسعة يصف أحاسيسه و أحاسيس من حوله في نغمة شجيّة هادئة أحيانا و غاضبة داعية أحيانا أخرى.[3]

و لم يكن الاحتلال ليرضى عن نشاطات العيد تلك، حيث أخذ يترصّده و يتحيّن الفرص للانقضاض عليه، و فعلا قد سنحت الفرصة لذلك بحيث تمّ استدعاء الشّاعر من طرف قاضي التّحقيق لعين مليلة ليطلب منه المصادقة على منشورات تدين الثّورة مقابل حرّيته و طبعا فقد آثر الشّاعر الحلّ الثاني مضحيا بحرّيته، و لم تكتف السّلطات الفرنسيّة بتوقيفه بل عمدت إلى غلق

---

[1] الديوان، ص 364.

[2] المرجع السابق، ص 71.

[3] سعد الله، شاعر الجزائر، مرجع سابق، ص 89.

أبواب المدرسة و الاستلاء عليها ثمّ تحويلها إلى ثكنة عسكريّة، لكنّ الشّاعر المصلح واصل نشاطه بالرّغم من تهديدات الاستعمار له – حاثّا النّاس على الجهاد و الانضواء تحت لواء الثّورة ، و في سنة 1955 م أوقف الشّاعر و قدّم للمحاكمة بتهمة تحريض الشّعب على الانضمام إلى الثّورة ليطلق سراحه بعد ذلك في السّنة نفسها، ثمّ يتمّ إيقافه مرّة ثانية في أواخر 1955 م لينتهي الأمر بفرض الإقامة الإجباريّة عليه بمنزله الكائن ببسكرة ليظلّ حبيس جدرانه طوال أيّام الثّورة. و قد تحدّث الشّاعر عن تلك الأيام فقال :"و في هذه الأثناء كنت أكتب و أكتم ما أكتب" و بهذا لم يصلنا من شعره سوى قصيدتان[1] "الأسير و أبو البشير" و "مناجاة أبي منقوش"[2] و فيها نجد بعض ملامح الحياة الّتي كان يحياها إذ يقول :

أبا المنقوش[3] هل تدري بحالي ∴ فأنت اليوم جاري في الجبال
ببسكرة النّخيل خططت رحلي ∴ و أنت بأرضها حامي الرّحال
رأيتك مشرفا أبدا عليها ∴ كإشراف الولي على العيال
رماني حول سفحك موج دهري ∴ أسيرا بعد أحداث طوال
فعشت به كيونس في سقام ∴ لدى قومي و لكن في انعزال
إخال إقامتي جبرا كقبر ∴ حملت إليه كالجثث البوال[4]

---

[1] ذكر ابن سمينة أن عدد القصائد 4 و ليس اثنان.

[2] المرجع السابق، ص 48.

[3] جبل قريب من بسكرة جنوب الجزائر.

[4] الديوان، ص 425.

أمّا القصيدة الثانية (الأسير و أبو البشير) فكانت إيذانا باستة المؤمن بشائرا تلوح في الأفق بعد أن سمع الطّائر يحييه بصوته الـ خيرا:

جزمت بقرب إطلاق الأسير ∴ غداة سمعت صوت أبي البشير

فـقـمـت مرحّبا بنزيل يمن ∴ عـلـيّ بـكـلّ إكـرام جـدير

و جـئـت أبـشّـه نجواي سرّا ∴ و مـن للحـر بالـصّوت الجهير

أنـاجـيـه بآمـالي و حـالي ∴ و اسـتـفتيه عن شعبي الكسير[1]

و فعلا لم تمض إلاّ أيّام معدودات و تحقّقت الأماني و بزغ فجر الحرّية فهلّل لها الشّاعر و كبّر، و أخذ يغنّي لها و للثّورة و الشّهداء و كفاح الشّعب و تضحيات الأبطال، مع وصف الطّبيعة الجزائريّة الخلاّبة بجبالها و وديانها و صحاريها، ليلتفت بعد ذلك إلى الأشقّاء و الأصدقاء الّذين ساندوا الثّورة، ثمّ يتحدّث عن مكاسب الثّورة و عن التّطوّر الاجتماعي الّذي شهدته الجزائر تحت ظلال الاستقلال.[2]

2- سماته الشّخصيّة :

كان محمّد العيد رجلا ذا وقار و هيبة، تعلو رأسه عمامة، لحيته مخضّبة بالحنّاء، "كان تقيّا ورعا في مظهره و سلوكه، و كان يستلهم كثيرا من خواطره و أفكاره من رصيده الدّيني .. كان يطلق لحيته و يغطّي رأسه و يلبس الجلباب و يؤدّي الواجبات الدّينيّة في أوقاتها و كان يطرق في شعره موضوعات دينيّة محضة أو تهدف إلى غرض ديني . . . " .

---

[1] الديوان، ص 422.

[2] سعد الله، شاعر الجزائر، مرجع سابق، ص 49.

فهذا القول للدكتور سعد الله يبيّن لنا مدى تديّنه و ورعه، فلقد شبّ الشّاعر على الدّين و التّقى ممّا جعله يرغب عن متاع الحياة الدّنيا، مولّيا وجهه عن زخرفها قانعا بالقليل منها ممّا طبع حياته بطابع الجدّ و العزلة و الزّهد، فنشأ بذلك عروفا عن حياة البذخ و الملذّات، و كان يتميّز بطهارة القلب و عزّة النّفس و الميل إلى البساطة و التّواضع و النّفور من الادّعاء و التّعقيد و التّكبّر، كما عرف بالغيرية و نكران الذّات، تغلب عليه عاطفة الجماعة و الحرص على الصّالح العام، و هو إلى جانب هذا جبل بصفة الكرم و مسارعته بالإحسان إلى الفقراء، فهو يؤثّر المعوزّين على نفسه و لو كان به خصاصا. كما امتاز بحسن المعاملةو طيب العشرة، و دوام الوفاء للأصدقاء [1].

"و كان شديد الحساسية، رقيق العاطفة، سريع التّأثّر، مرهف الشّعور تهزّه الكلمة المشحونة، و يثيره المشهد الشّاحب، و تدمي قلبه حظوظ البؤساء، فيذرف الدّمع لما نالهم من مظالم و نكبات..."[2].

و كانت تعتري الشّاعر أحيانا أطوار نفسيّة – لعلّ مردّها إلى الظّروف المأساوية الّتي كانت تحيط به فنجده تارة يواكب الرّكب و يكون في الطّليعة و تارة أخرى يميل إلى العزلة و الصّمت بعد أن تتراكم على قلبه و عقله ظلمات الشّكّ. و العشرينيات كانت بداية للصّحوة القوميّة و منطلق التّجارب من سياسية و إصلاحية و مفترق الطّرق بين تجربة تكبو و أخت لها تنبعث بين ملابسات تلوح بحسن الظّنّ و وقائع تناقض ذلك[3] فكان لذلك صدى في نفسيّة الشّاعر إذ طغت عليه مسحة من التّشاؤم كادت تطبق على أنفاسه، و هو يحاول فهم أغوار الكون

---

[1] سعد الله، شاعر الجزائر، مرجع سابق، ص 16.

[2] محمد بن سمينة، دراسة تحليلية، مرجع سابق، ص 36.

[3] د. صالح الخرفي، سلسلة في الأدب الجزائري الحديث، محمد العيد آل خليفة: الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب 1986، ص 70.

و عظمة الخالق فيتحوّل ذلك التّطلّع إلى الأسرار إلى تخبّط يشبه الإلحاد لكنّه سرعان ما يتدارك نفسه و يفيء إلى أمر خالقه، فيستغفره و يستعيذ به من الانحراف و التمرّد :

و أقرأ من آي الشّقاوة أسطرا ∴ على صفحات الكون مرتسمات
فسطر عيابيل، أمضهم الطوى ∴ عراة على لفح الأثير حفاة
و سطر آيامى يصطرخن توجّعا ∴ من البؤس لا يفتأن مكتئبات
وسطر يتامى مرهقين تكبهم ∴ على جرف البلوى يد العثرات
و سطر مشائيم، غرار أذلة ∴ يُسامون بالإزراء و النكبات
و فوقهم سطر من الخلق كلّه ∴ جناة لعمر الحقّ فوق جناة
فهل كان هذا الكون سيفا مسلّطا ∴ يمثل بالأرواح و المهجات
سئمت و إن كنت ابن عشرين حجّة ∴ حوادث لا تنفك مستعرات
أردّ طرفي سابرا كنه غورها ∴ فيرجع طرفي خاسئ النّظرات
تبارك ربّ العرش لست بملحد ∴ يحاول طمس الحقّ بالمشتبهات
و لكن وجداني ينمّ بحسرة ∴ إلى القلب أو يوحي له بشكاة[1]

و كان العيد يتأثر بالواقع الخارجي و ملامحه المثيرة و المريعة "فتغدو القتامة في مظاهر الحياة و الشقاوة في ضحاياها و كأنها انعكاس لقتامة باطنيّة في جوانح الشّاعر، تتلبد و تكمن و يعييها الإفصاح حتّى تجد البوح فيما ينطلق لها من الخارج من إشارات و شرارات"[2]. فها

---

[1] قصيدة أسطر الكون، المرجع نفسه، ص 71.

[2] المرجع نفسه، ص 73.

هوذا يطلّ من منزله على جبل "الباب الجديد" فيرى في سفحه منظرا يثير فيه مشاعر الحزن و التّحسّر، يرى "تاعسا ناعسا" يتكوّم في سفح الجبل :

بـدى لـعـيني تـاعـس نـاعـس ∴ عـلـى الثّرى في الصّبح بالي الثّياب

جاث على الرّجلين حاني الحشى ∴ و الظهر هاوي الجسم ذاوي الشّباب

فـهـاج من حسني و من لوعتي ∴ كـمـا تـهيج النّار عـود الثّقاب [1]

و إلى جانب هذه الصّفحة القاتمة من نفس الشّاعر، توجد صفحة أخرى بيضاء ناصعة تتحرّر فيها نفسه من القيود الثّقيلة [2].

و مردّ ذلك إلى تديّنه و صدق إيمانه فهو راض بحكم الله و بقضائه واثق بنصره:

و نرضى بحكم الله في كلّ موقف ∴ فلا نكثر الشّكوى و لا تنطيّر [3]

و هكذا لم يعد لليأس و الكآبة مكان في قلبه :

فيا أيّها اليأس الّذي قد نابني ∴ بحقّ المعالي ما خطرت على بالي

و "كانت نسبة الشّعرالقاتم قليلة أو هي لا تكاد تذكر، و إذا كانت روح الهدم و الثّورة. حتّى عند الرّومانسيين لا تعني السّلبيّة و الهروب المطلق. فإنّها عند محمّد العيد روح بنائيه و ثورة هادفة في شتّى تعبيراتها و صورها" [4].

و هو لم يعرف ما عرفه بعض الشّعراء في القديم و الحديث من مظاهر التّرف و اللّهو في مراحل حياته الأولى ليتوب عنها بعد ذلك، و لأدلّ على ذلك من قصيدته :

---

[1] الديوان، ص 28.

[2] سعد الله، شاعر الجزائر، مرجع سابق، ص 97.

[3] محمد بن سمينة، دراسة تحليلية، مرجع سابق، ص 38.

[4] المرجع السابق،ص 98.

يا دار هل فيك من هاد ليرشدني ∴ فإنني مستريب فيك محتار

همّي تقسّم أسطارا، و لن تجدي ∴ من همّه، مثل همّي فيك أشطارا .

يعروه خفض و رفع في تنقاه ∴ كأنّه كلأ يذروه إعصار[1]

نظم الشّاعر هذه القصيدة سنة 1925 م و هو في العشرين من عمره و هي قصيدة تنمّ عمّا جبل به الشّاعر من حكمة و تبصّر بالرّغم من حداثة سنّه و هذا بدع في الشّعراء ، و هي بهذا "إطلالة مبكّرة من الشّاعر على الوجود . . . و محمد العيد في إطلالته المبكّرة هذه أبعد ما يكون عن الأصداء التّقليديّة الباهتة لسنّ العشرين بما فيها من براءة و غرّة و سطحيّة و ارتجال. . . أطلّ محمّد العيد إطلالة التعفّف و الزّهد، و إشاحة الكبرياء، إطلالة فيها غير قليل من التّشامخ و التّسامي و التّرفع عن الملابسات السّطحيّة، و التشوّق إلى الأسرار، و فلسفة المظاهر بجواهرها "[2].

فهذا القول إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الشّاعر شبّ على الدّين و التّقوى و شاب عليهما حتّى إنّ أبياته تلك تنمّ عن خبرة طويلة ليس من اليسر لفتى في مثل سنّه أن يكتسبها .

و لا يمكننا التّحدّث عن سمات الشّاعر دون أن نشير إلى تعلّقه بالإسلام، فقد كان قلبه يفيض إيمانا و حبّا لله، و تمتلئ جوانحه تمسّكا بالقرآن الكريم و اقتداءا بسيرة الرّسول – صلّى الله عليه و سلّم – و كان يسمو بسلوكه إلى ما تزخر به دعوة الإسلام من مثل عليا

---

[1] الديوان، ص 7 .

[2] صالد خرفي، سلسلة في الأدب الجزائري، محمد العيد آل خليفة، مرجع سابق، ص 68 .

و قيم سامية. و هو إلى جانب ما عرف عنه من حبّه للإسلام، و غيرته على الأصالة القوميّة، واسع الأفق، متطوّر النّظر، أبعد ما يكون عن التّعصّب، متفتّح على التّجارب الإنسانيّة :

لست ما عشت للتّقدّم ضدّا ∴ غير أنّي على الحمى غيرُ جاني

إنّ حفظ المقوّمات حياة ∴ كلّ شعب أضاعها فهو فاني [1]

فهو يدعو إذن للاستفادة من الغير في تقدّمهم، لكن مع احترام قيم التّراث القومي.

و لعلّ خير ما نختم به هذه العجالة قول الشّيخ البشير الإبراهيمي : " . . و من يعرف (محمد العيد) و يعرف إيمانه و تقواه و تديّنه و تخلّقه بالفضائل الإسلاميّة، يعرف أنّ روح الصّدق المتفشية في شعره إنّما هي من آثار صدق الإيمان و صحّة التّخلّق، و يعلم أنّه من هذه النّاحية بدع في الشّعراء . . . "[2].

3- بين الصّوفية و الإصلاح :

سؤال يتبادر إلى الذّهن كلّما ذكرنا الصّوفية و الإصلاحيّة، فالبون بينهما شاسع و الاختلاف بيّن، فكيف استطاع محمد العيد أن يجمع بينهما ؟

للإجابة عن هذا السّؤال، لا بدّ من إبراز مظاهر الاختلاف بين الصّوفية (كما تعرفها العامة و الخاصة) و بين تصوّف محمد العيد، و قبلها نعطي تعريفا وجيزا للصّوفيّة الحقّة - كما كانت في بداياتها -

---

[1] الديوان، ص 269 .

[2] الديوان، تقديم الإبراهيمي له.

عرّف ابن خلدون التصوّف على أنّه "العكوف على العبادة و الانقطاع إلى الله تعالى و الإعراض عن زخرف الدّنيا و زينتها، و الزّهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذّة و مال و جاه، و الانفراد عن الخلق في الخلوة و العبادة".[1]

هذا عن التّصوّف في عهد الإسلام الأوّل حيث كان التّوازن بين المادّة و الرّوح و بين الحياة الدّنيا و الآخرة و "من ثمّة كان الزّهد و التّقشّف و الإعراض عن المادّة و عن متاع الحياة الدّنيا دون انعزال كلّي عنها أو تركها جملة و من هنا جاز اعتبار الكثير من الصّحابة زهاد..."[2] و لكن بعد أن تعقّدت الحياة الفكريّة و السّياسيّة و الاجتماعية و تصارعت المذاهب و الفرق الإسلاميّة ظهرت قضايا و أفكار فلسفيّة ضاربة في التّصوّف مثل "الغزل الإلهي" أو "الخمرة الإلهية" و "وحدة الوجود" و "النور المحمّدي" و الحديث عن الفناء و المشاهدة و التّجلّي و الاتّحاد و الحلول و ما إلى ذلك من القضايا و الأفكار الفسفيّة الدّخيلة و الّتي خرجت بالتّصوّف عن جادّة الصّواب.

و يمكن تلخيص المراحل الّتي مرّ بها التّصوّف الإسلامي إلى :

- المرحلة الأولى :كانت عبارة عن زهد و تقشّف خاصّة في القرنين الأوّلين للهجرة.
- المرحلة الثانية :كانت تقليدا أو اقتفاءا بها .
- المرحلة الثالثة :كانت أوغل في التّصوّف الخالص منها إلى الزّهد .
- المرحلة الرابعة: ظهور "الطّرق الصّوفيّة" و تبلور اتجاهاتها و طقوسها الخاصّة منذ القرن الخامس هجري.

---

[1] مقدمة ابن خلدون، ص 467 .

[2] عبد الله ركيبي: الشعر الديني الجزائري، مرجع سابق، ص 235 .

- المرحلة الأخيرة : استمرّت حتّى العصر الحديث، و هي الّتي سادت فيها المبالغة في "الشطح" و تعقّدت فيها طقوس المتصوّفة، و كثر من يدّعي الكرامات و امتلأت بالمجذوبين.

و استنادا لهذه التّعريفات يمكن تصنيف تصوّف محمد العيد ضمن المرحلة الأولى فهو لم يأخذ من التّصوّف سوى ما يخدم دينه إذ جمع بين حسن العبادة و العمل الصّالح و استمدّ جوهرها من مبادئ الإسلام مقتديا بنهج الرّسول الكريم - صلوات الله عليه و سلامه - و سيرة أصحابه و السّلف الصّالح من بعده.[1]

و هكذا استطاع الشّاعر أن يجمع بين الصّوفيّة و الإصلاح و ان ينهل منهما الإثنين و يغرف دون أن يجد في ذلك أدنى حرج. و قد أشار الإمام ابن باديس إلى هذه المزاوجة الواعية بين الإصلاح و التّصوّف الّتي لاحظها في سلوك والد الشّاعر - باعتباره المدرسة الأولى الّتي نهل منها - عندما حلّ ببسكرة سنة 1925 م "لو كان كلّ المتصوّفة في البلاد كوالدك ورعا و تقى و تمسّكا سليما بأصول الدّين و مفهومه الصّحيح و إخلاصا لما كان ما كان بين رجال الإصلاح و بين أتباع الطرق المزيّفة ،و لكانت الجهود واحدة"[2].

و يؤكّد الشّيخ الطيب هذه الشّهادة بقوله :

رحم الإله أباك إذ رباك بالـ .:. علم الصحيح و محكم القرآن

فالبيت شاهد للوالد و الولد معا على قربهما من الفكر الإصلاحي و إفادة كلّ منهما من المنبع الّذي لا ينضب ألا و هو القرآن الكريم و السّنّة.

---

[1] منحمد بن سمينة، محمد العيد، دراسة تحليلية، مرجع سابق، ص 121 .

[2] المرجع نفسه، ص 18 .

يضاف إلى ذلك أنّ محمّد العيد – و أسرته من قبله – وقف من تلك الانحرافات موقف الرّفض و الاستنكار، و في سيرته و مواقفه الإصلاحيّة الدّليل على تشجيبه لكلّ ما يقوم به هؤلاء الجامدون من عمالة و تدجيل، و ممّا تجدر الإشارة إليه "أنّ التّصوّف كان يطبع بيئة الشّاعر يومئذ بأكثر ممّا كانت تؤثّر فيها الأفكار الإصلاحيّة"[1] و قد ظلّ العيد وفيّا طوال حياته لهذه الصّلة الّتي تربطه بالتّيجانية بصفتها عاملا من عوامل نشر الإسلام، ذلك لما تعتمد عليه من الأصول الدّينيّة من قرآن و سنّة، كما جاء ذلك في قول الشّيخ أحمد التيجاني : "و لنا قاعدة واحدة عليها تبنى جميع الأصول أنّه لا حكم إلاّ لله و رسوله، و لاعبرة في الحكم إلاّ بقول الله و رسوله" فالطّريقة بهذه الرّوح استطاعت أن تقوم بخدمة الإسلام و نشره في أرجاء كثيرة من المعمورة و تعمل على حمايته و كان الشّاعر يكتفي من الطّريقة بهذا الجانب الرّوحي مع بعده التّام عن تلك الطّقوس الّتي ليست من الإسلام في شيء و الّتي شوّهت العقيدة الدّينيّة و عملت على تخدير أبناء الوطن. و هكذا لم يكن يرى أدنى تناقضا ما بين صلته بالطّريقة التيجانية و بين انتسابه إلى الإصلاح فكان بذلك مصلحا صوفيّا، داعيا إلى الإصلاح، ناشرا للمفهوم الصّحيح للإسلام و مقاوما للإنحراف والجمود و الأهواء"[2] بيد أنّه ما لبث أن رجّح كفّة الإصلاح و تبنّاها فكرة و سلوكا و خاصّة بعد أن تعرّف إلى الشّيخ الطيب العقبي ببسكرة – الّتي اتّخذها هذا الأخير – منطلقا لنشر العلم و الدّعوة إلى الإصلاح و التّجديد، فلازمه الشّاعر في مختلف وجوه نشاطه العلمي و الإصلاحي لمدّة ثلاث سنوات، الشّيء الّذي مكّنه من تعميق

---

[1] المرجع نفسه، ص 19.

[2] المرجع نفسه، ص 19

نظرته إلى الحياة يقول : "كان إعجابي شديدا بشخصيّة الطيب العقبي و بواسع علمه، و نبل مقاصده الأمر الّذي جعل تأثّري به متنوّعا، شمل العلم و الإصلاح و الأدب[1]" .

و يلتزم الشّاعر في زهده بالصّدق، فالزّهد بالنّسبة له هو ما "وقر في القلب و صدّقه العمل" و كان يدعو إلى الأخذ بأسباب العلم النّافع و العمل الصّالح و الحرص على بناء الإنسان روحيا و ماديّا .

و قد التقى الشّاعر لطبيعة تكوينه مع الدّعوة الإصلاحيّة في المبدإ و الهدف، على أنّه كانت تغلب عليه النّزعة الصّوفية أحيانا فتدفعه إلى الانقطاع عن قول الشّعر و هجر النّاس موليا وجهه إلى ربّه لعلّه يظفر براحة البال :

أقلني جانب الدّنيا أقلني ∴ فإنّي من متاعبها أئنّ

إلى الأخرى فعرّج بي تفرج ∴ على نار يكاد بها يجن [2]

و يصف في موضع آخر نفسه الممزّقة، تائهة حائرة لا تعرف طريق الخلاص من العالم الشقيّ:

حيران كالتّائه الضليل ليس له ∴ هاد بأجوف واد كلّها زلق

و حتما لن يجد من يأخذ بيده غير الهادي :

و جهتي للّذي هداني و قصدي ∴ و صلاتي لوجهه و الصّيام

و ثمّة سمة تميّز بها الشّاعر و تتمثّل في الجمع بين الحديث عن النّفس و الوطن في شعره – و هو ما لا نجده في شعر التّصوّف الخالص [3] .

---

[1] محمد بن سمينة، محمد العيد دراسة تحليلية، مرجع سابق، ص 20 .

[2] أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر، مرجع سابق، ص 101 .

[3] عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري، مرجع سابق، ص 314 .

فهو بعد مجابهته لنفسه و التّصدي لها يعود ليتحدّث عن الوطن قائلا "

أغـرب خـطب هـالـني مـوطـن ∴ لنا منعته الشّمس، أسراب أغرب

كما حبست عنه الرّياح و عارضت ∴ له، دون سيل القطر من كلّ مسرب

بأجـنـحـة سـود، كـأن خيالها ∴ ظـلام بـلـيل قاتم الوجه، غيهب

فيالـك فـردوسـا تحولت دمنته ∴ و يا وحشنا من أغرب فيك نعّب [1]

كما أنّه لم يكن يجنح إلى ما وراء الطّبيعة، و إنّما يكتفي بالتّأمّل و التّدبّر ليصل بعد ذلك إلى معرفة ما في الكون من أدلّة تشير إلى قدرة الخالق و عظمته. و هذا التّأمّل مصطبغ بالصّبغة الدّينيّة، و قد عالج الشّاعر هذه الموضوعات في شبابه ممّا يدلّ على اتّجاهه الرّوحي الدّيني ففي قصيدة "يا دار" يصف الحياة و ما فيها من تناقضات ومنها ينطلق إلى ذكر بعض القضايا التي لها صلة بالدّين و هو يتعجّب لتكالب النّاس عليها و صراعهم فيها دون أن يلحظوا أنّها زائلة.

بـيض و سـود و أخيار و أشرار ∴ كم تحتوين على الأضداد يا دار

العرش و الفرش و الأحداث بينهما ∴ خير و شر فـإقـلال و إكـثار

و هو يشيد بالزّهاد و المؤمنين :

لأرباب القلوب عهود صدق ∴ و أقوال تصدقها الفعال

و يعدّد صفات هؤلاء الأبرار في نفحة صوفية و نبرة هادئة :

رضـوا بـقـسم الله حـظا ∴ و هل في قسمه إلاّ الكمال

على السّراء شكران و حمد ∴ و في الضّرّاء صبرو احتمال

فـما سكنوا إلى الدّنيا قلوبا ∴ و ما ركنوا لزخرفها و مالوا

---

[1] الديوان، ص 289.

فكن أبدا مع الأبرار واجنح ∴ لهدي إمامهم فهو المثال [1]

و ختاما يمكن تقسيم صوفية الشّاعر إلى مرحلتين :[2]

المرحلة الأولى :التي رافقته في القسط الكبير من حياته و كان يجمع فيها حسن العبادة و التّقى و الورع لكن دون الخنوع إلى الاعتكاف و الخلوة التّامة، فقد كان يقوم بنشاطات مختلفة يشدّه فيها إلى الحياة الدّنيا و قضاياها و الوطن و جهاده و النّاس و شؤونهم حبل متين.

المرحلة الثانية : و هي التي تمثّل المرحلة الأخيرة من عمره أين هجر حياة النّاس و خلص إلى العبادة مقتصرا في أغلب الأحيان عليها . و الشّاعر – في كلتا المرحلتين – لم يكن سلبيّا في تصوّفه ذلك بفضل نشأته الصّالحة و ثقافته الدّينيّة القائمة على الفهم الصّحيح و الإدراك السّليم لمقاصد و مرامي الدّين الإسلامي فكان بذلك بعيدا كلّ البعد عمّا انحدر إليه غيره من الصّوفيّة من جهل و جمود شلّ حركتهم و أبعدهم عن النّضال و الجهاد من أجل الحياة الكريمة.

4- صلته بزعماء الإصلاح :

يعتبر محمد العيد من روّاد جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين، فقد ساهم في تأسيسها سنة1931 م، و كان نائب رئيس لإحدى لجانها الفرعيّة، و هي لجنة الأدب [3]. و قد نشد بمناسبة تأسيسها قصيدة "تحية العلماء" يقول فيها :

على الرّحب حلّوا أجمعين على الرّحب ∴ فأنتم ضيوف في حمى الله و الشّعب

طلعتم علينا كالكواكب في الدّجى ∴ وسرتم إلينا كالسّحائب في الجدب

جحاجحة عرب القرائح و اللّغى ∴ فأهلا و سهلا بالجاجحة العرب

---

[1] عبد الله ركيبي: الشعر الديني الجزائري، مرجع سابق، ص 322.

[2] محمد بن سمينة، محمد العيد، دراسة تحليلية، مرجع سابق، ص 126.

[3] اللجان الأربع هي : لجنة الدعاية، لجنة التعليم، لجنة الإصلاح و لجنة الأدب، تأسست هذه اللجان في 2 أكتوبر 1936م.

و قد حلّ هذا العيد باليمن جامعا ∴ لشملهم فاستأصل البعد بالقرب

فيا لك من عيد تجلّى كأنّه ∴ عروس تجلّت في مطارفها القشب

هنيئا لكم هذا اللّقاء فإنّه ∴ بشير بما تبنون من راسخ الحبّ

فخطّوا له منكم حدودا منيعة ∴ من العلم و الشورى و من صالح الكسب

إعيدوا على الإسلام هدى محمد ∴ بما كان يمليه على الآل و الصحب

لكن نشاط الشّاعر الإصلاحي لم يبدأ مع بداية عمل الجمعيّة، وإنّما كا ن يلازمه في شتّى أعماله و كان يبدو ذلك في أفكاره و سلوكه و خاصّة بعدما تعرّف بالشّيخ الطيب العقبي الّذي اتّخذ من مدينة بسكرة منطلقا له لنشر العلم و الدّعوة إلى الإصلاح و التجديد، و كان ذلك عن طريق إلقاء الدّروس و المحاضرات إضافة إلى المقالات و قد لازمه الشّاعر في نشاطاته تلك لمدّة تناهز الثّلاث سنوات فمكّنه ذلك من تعميق نظرته إلى الحياة و فتح له آفاقا واسعة وعى من خلالها الفكرة الإصلاحيّة [1] . و يعترف الشّاعر بفضل العقبي عليه فيقول :

يا صاحب الطّبع اللّطيف و منتج الشّ ∴ ـعر الظّريف و (طيب) الأفنان

أوعيت أسرار البلاغة كلّها ∴ من قبل عن (قس) و عن (سحبان) ؟

عممت بالآداب (إخوان الوفا) ∴ و كذا كلّ مهذّب الوجدان

بيني و بينك وصلة أدبيّة ∴ علميّة تنمو مدى الأزمان [2]

فبحكم تكوينه الدّيني و الثّقافي إذا اعتنق الشّاعر الدّعوة الإصلاحيّة و هو لا زال في العشرين من عمره و اندمج فيها اندماجا كليا و مضى يسهم في حركتها و يعبّر عن مبادئها

---

[1] محمد بن سمينة، ممد العيد، دراسة تحليلية لحياته، مرجع سابق، ص 20 .

[2] الديوان، ص 546 .

بشتّى الوسائل إذ لم يقتصر عمله على مهنة التّدريس بل تعدّاها إلى مجالات كثيرة، فهو داعية يرتحل إلى أنحاء عديدة من الوطن لنشر الوعي الدّيني و الوطني بين صفوف الأمّة و إمام يؤمّ النّاس و يصلّي بهم، و شاعر ينظم الشّعرفي الدّعوة إلى هذه الحركة و يخلّد أعمالها، و هو قبل هذا و ذلك عضو في الهيئة المؤسسة و المحررة لجريدة "صدى الصحراء"كان يحرر في جريدة (الإصلاح) و قد شارك في تأسيس مطبعة الإصلاح .[1]

هذا و كانت للشّاعر علاقة وطيدة بالشّيخ ابن باديس ممّا كان له الأثر الواضح في توجيهه فكريّا و أدبيّا :

كان عبد الحميد في الرّأي قطبا ∴ مرشدا للعقول و الأفهام

مثل عبد الحميد خطط منها ∴ جا قويما لقادة الأقلام

يحض الشّعر للكفاح و يوصي ∴ بالتسامي عن لوثه بالغرام

و التّجافي عن الغرابة لفظا ∴ و اجتناب الغموض و الإبهام[2]

و كان شعار الشّيخ ابن باديس في دعوته إلى الإصلاح الآية الكريمة : ﴿ادع إلى سبيل ربّك بالحكمة و الموعظة الحسنة﴾ و كان لهذا الشعار صدى في نفسيّة الشّاعر التواقة إلى الهدوء و السكينة فراح يشيد به و بأصحابه الّذين يؤثرون السّلم على الحرب.[3]

نحن الدعاة إلى الحسنى فما أحد ∴ منا بمجترح للشر و مجترم

ألا فقل للّذي بالحرب فاجأنا ∴ لا تلق بالحرب من يلقاك بالسلم[4]

---

[1] سعد الله، شاعر الجزائر، مرجع سابق، ص 104 .

[2] الديوان، ص 498 .

[3] المرجع السابق، ص 105 .

[4] الديوان، ص 102 .

كما كان للشّيخ البشير الإبراهيمي أثره الكبير على محمد العيد و الفضل العظيم في تقويم شاعريته فقد تتلمذ عليه في الأدب و النقد [1] و يشير الشّاعر إلى ذلك في قوله :

و كنت بشعري للبشير مواكبا ∴ على سمعه في موكب العلم أنشد

و قد يسمع البيت البليغ فينتشي ∴ و قد يسمع البيت المسف فينتقد [2]

و هكذا نرى أنّ الشاعر "كان متأثّرا في فكره و فنّه بهؤلاء الأعلام الرواد الّذين كان لهم أثرهم في رصد مسار النهضة الوطنيّة العامّة و في توجيه الحركة الأدبيّة بوجه خاص" [3] و قد ارتبط الشّاعر بفكرة الإصلاح قبل أن يرتبط بالحركة، ذلك لأنّ الفكرة سبقت الحركة واقعا وفعلا، تاريخا و ظهورا [4]، هذا من جهة و من جهة أخرى فقد كان للشّاعر استعدادا نفسيّا – نتيجة للجوّ التقي الصّالح الّذي نشأ في أحضانه – لاعتناق فكرة الإصلاح– حتّى قبل ظهور الجمعيّة – و من ثمّ نذر نفسه لتحقيقها تعليما للناشئة، و توعية للجماهير من أجل معالجة الواقع و النهوض به.

5- وفاته:

ركن محمد العيد أثناء إقامته الجبرية إلى العزلة متفرّغا للعبادة يلتمس العفو من خالقه و يرجو رحمته ومغفرته، و قد ظلّ على تلك الحال إلى أن تمّ النّصر لأمّته، و ظفر الشّعب بحريّته الّتي طالما ناشدها "فخرج الشّاعر من سجنه و قد أضنت جسمه أحداث السنين، و أوهنت قواه أعباء الشّيخوخة. ." [5] فما كان منه إلاّ أن ولّى وجهه لفاطر السّماوات و الأرض متدبّرا

---

[1] أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر، مرجع سابق، ص 22.

[2] محمد بن سمينة، محمد العيد دراسة تحليلية، مرجع سابق، ص 22.

[3] محمد بن سمينة، محمد العيد دراسة تحليلية، مرجع سابق، ص 22.

[4] عبد الله ركيبي، الشعرالديني الجزائري ، مرجع سابق، ص 559.

[5] المرجع السابق، ص 118.

في خلقه و ملكوته، و قد ذكرنا قبلا أنّ تلك النّزعة الرّوحيّة قد رافقت الشّاعر منذ حداثة سنّه و أنّه كان دائم التّفكير و التّأمّل و قد زادته السّنون نزوعا إلى الصّوفيّة،و كان الشّاعر يخصّص في شبابه أوقاتا محدّدة يتفرّغ فيها إلى العبادة من حفظ للذّكر و تلاوته و قراءة للأحاديث النّبويّة أمّا و قد اشتعل الرّأس شيبا و وهن العظم فقد جعل الشاعر كل أوقاته وقفا على تلك الفرائض و خاصّة بعدما قدّر له أن يؤدّي فريضة الحجّ سنة 1966م فمنذ ذلك التّاريخ تفرّغ الشّاعر إلى خلوة كاملة يجهد نفسه في طاعة الله و التقرب منه و التذرّع إليه بصالح الأعمال و خالص العبادة، و صادق الذّكر . . . [1].

"لقد غرّد الشّاعر طويلا للجزائر، للوطن العربي و العالم الإسلامي فأعطى الشّعر و الوطن خمسين سنة من عمره، إنتاجا و عملا و نضالا فكريّا مستميتا و لو يتوقّف إلاّ بعد أن زحفت عليه متاعب صحيّة مختلفة. . "[2] و هكذا طلق محمّد العيد القوافي سنة 1972 م متصوّفا ملازما بيته في بسكرة إلى أن سلّم روحه الطّاهرة إلى بارئها في أواخر جويلية من سنة 1979م.[3]

رحل الطائر المغرّد بعد أن رافق شعره النّهضة الجزائريّة في جميع مراحلها و "له في كلّ ناحية من نواحيها، و في كلّ طور من اطوارها، و في كلّ أثر من آثارها القصائد الغر و التقاطيع الخالدة، فشعره سجلّ صادق لهذه النّهضة و عرض رائع لأطوارها . ."[4] رحل بعد أن خلّف وراءه ديوانا جمعت فيه جلّ قصائده.

---

[1] المرجع نفسه، ص 119 .

[2] الديوان، التقديم.

[3] د . عمر بن قينة، صوت الجزائر، ديوان المطبوعات الجزائرية، 1993، ص 361 .

[4] د . صالح الخرفي، صفحات من الجزائر، دراسات و مقالات من 62 – 1972 م – الجزائر – الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ص 195 .

الـــفـــصل الثاني

مـــواضـيـــع شـعـــرة

إنّ أوّل ما يتبادر إلى الأذهان إذا ما ذكرنا عبارة "مواضيع شعره" هو تلك الأغراض الشّعريّة التّقليديّة المتعارف عليها و المتداولة في ميدان الشّعر منذ القدم من مدح و هجاء و غزل و . . . بيد أنّنا لا نسعى إلى تقصّي تلك الأغراض أو تتبّعها و دراستها دراسة تقليديّة باهتة فهذا بعيد عن مرمانا و لا يخدم الهدف المنشود من رسالتنا هذه، فكلّ ما نطمح إليه و نعمل جاهدين لتحقيقه هو تتبّع شعر الشّاعر لاستنباط النّاحية الإصلاحيّة منه – و ما أكثرها في ديوانه – بل إن ديوانه ليعتبر سجلّ صادق لكلّ حركات و سكنات الحركة الإصلاحيّة عبر مختلف أزمنتها، فالشّاعر محمّد العيد لم يترك أيّ ناحية من نواحي الإصلاح، و أي مناسبة من المناسبات الّتي توطّد علاقة الجزائري بدينه و عقيدته إلاّ و تعرّض لها و تحدّث عنها إمّا تلميحا أو تصريحا، و على العموم فإنّنا في هذا الفصل نعرض لأهمّ المواضيع الّتي أثارتها شاعريّة الشّاعر، و نبدأ بادئ ذي بدء بالمناسبات الدّينيّة الّتي استغلّها محمد العيد في الدّعوة إلى الجهاد و الأخذ بتلابيب العلم من أجل النّهوض بالأمّة و الأخذ بيدها نحو أسباب الخلاص و الفلاح في دنياها و أخراها . ثمّ نعرّج بعد ذلك للحديث عن مقوّمات الأمّة من عروبة و إسلام – مع التّعرّض إلى كتابهما المقدّس و هو القرآن الكريم – و الّتي طالما تغنّى بها الشّاعر و أشاد بها متحسّرا و متأسّفا لابتعاد الشّعب عنها، لنخلص بعد ذلك إلى الحديث عن اللّغة العربيّة و دورها الرّائد في لمّ شمل أبناء الأمّة الواحدة كلّ هذا نعرض إليه على ضوء ما جاء في شعر الشّاعر.

على أنّ ثمّة ملاحظة يجب الإشارة إليها و هي أنّه لا يمكننا الإلمام بكلّ ما ورد في ديوان الشّاعر من أغراض شعريّة فقد يضيق صدر الرّسالة بها و لا يتّسع المقام لها و حسبنا أن نعرض إلى ما له صلة مباشرة بموضوع البحث و هو "الاتّجاه الإصلاحي"، و نترك الباقي لسوانا،

و إنّ اختيارنا لهذه المواضيع لم يكن بالأمر الهيّن إذ من الصّعوبة بما كان اختيار أشعار دون أخرى لأنّ أشعار الشّاعر جلّها إن لم نقل كلّها إصلاحيّة تعمل على تقويم المجتمع و إصلاحه.

1- المناسبات الدّينيّة :

إنّ شعر المناسبات لدى محمد العيد يتمثّل ما قدّمته الحركة الإصلاحيّة إذ يتّخذ من المناسبة حدثا ثمّ ينتقل إلى الحديث عن واقع الشّعب و معاناته جرّاء الاستعمار، فهو يتّخذ من الأعياد و المناسبات الدّينيّة منطلقا للرّبط بين واقع الأمّة و ما كانت عليه الحضارة الإسلاميّة كما يتّخذها مطية للولوج إلى الهدف الحقيقي من وراء التّذكير بها [2]. و لنبدأ بأوّل مناسبة تحدّث فيها الشّاعر و هي شهر رمضان عند حلوله و عند انتهائه .

أ- شهر رمضان :

تتعاقب المناسبات الدّينيّة فتكوّن حافزا على بعث الهمم، فلا تكاد تختفي أصداء مناسبة حتّى تعقبها أخرى "تجد المشاعر فيها متنفّسها و الأقلام الإصلاحيّة انطلاقها حتّى غدت هذه المناسبات مظهرا من مظاهر النّهضة الإصلاحيّة المعاصرة في الجزائر. . ."[3].

إنّ حرص الشّعراء على مثل تلك المناسبات كان بهدف لفت أنظار أبناء الوطن إلى الانتفاع بما تزخر به من مواقف الاذكار و مشاهد الاعتبار فيما يسمو بحياتهم و يعلّي صرح حضارتهم و أوّل تلك المناسبات تتجلّى في حلول شهر رمضان الّذي عني به محمّد العيد و اتّخذه منطلقا لبعث الهمم و إثارة النّخوة.

---

[1] ينظر : الثّقافة و الثّورة ، مجلة، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعيّة ، 1984، ع 11، أحمد دوغان ، رحلة في عالم محمد العيد الإنسان الشّاعر الثّائر.

[2] ينظر : محمد بن قينة، صوت الجزئر في الفكر العربي احديث، ص 356.

[3] د. صالح الخرفي، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 56.

فالشّاعر لم يكن ليكتفي بالحثّ عمّا في هذا الشّهر العظيم من ضبط للنّفس و تغلّب على الشّهوات فحسب بل تعدّاه إلى استثارة روح البذل و السّخاء و التّسامح و التّعاون بين أفراد المجتمع .[1]

و أوّل قصيدة تصادفنا حول هذا الموضوع هي قصيدة "وداع رمضان"[2] ليتبعها بقصيدة "شهر الصيام" [3] و يشيد في كلتيهما بذلك الشّهر العظيم منوّها بآثاره الحميدة على الفرد و المجتمع، ليستغلّ في القصيدة الثّانية تلك المناسبة استغلالا اجتماعيا يهدف من خلاله النهوض بالمجتمع و تطوير الحياة العامة للمواطنين، و هكذا فقد جمع الشّاعر في القصيدة الواحدة بين ناحيتين : الأولى دينية حين يشيد بفضل شهر الصّيام و يبرز فائدة الصّوم و ما يحرزه الصّائم من الثواب و ما يلحق بالمفطر من مظاهر العقاب :

أطلّ على البريّة بالسّلام ∴ ولح باليمن يا شهر الصّيام
و حل على بني الإسلام ضيفا ∴ كريما بين رعي و احترام.
نفحت المسلمين بمثل ورد ∴ من القرآن مفتر الكمام
هززت قلوبهم هزّ الرّوابي ∴ و سقت لها الهدى سوق الغمام
و أمنت الخليقة و هي غرقى ∴ تكابد كلّ دفع و اصطدام

و تتمثل النّاحية الثانية في الجانب الاجتماعي حين يحثّ على المسارعة بالبرّ و الإحسان مصوّرا حال البؤساء في بلاده :

مآس كالسّهام رمت فأصمت ∴ بلادا مثل أهداف السّهام

---

[1] د . أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر،محمد العيد آل خليفة ، مرجع سابق، ص 143 .

[2] الديوان، ص 373 .

[3] الديوان، ص 414 .

و بؤس يترك الأحشاء منا ∴ جوائش في اضطراب و اضطرام

تعالوا للندى قومي تعالوا ∴ تنالوا بالندى أقصى المرام

تعالوا نأس مطرّحا جريحا ∴ لعلّ لجرحه و شكّ التّئام

تلافوا بالنّدى حيّا كميت ∴ كأن محلّه بعض الرّجام[1]

و الشّاعر ما أثار تلك الصّور من البؤس و الحرمان إلاّ ليحمل أخاه المسلم على التّدبّر و التّفكّر في معاني التّعاون و الإحسان. و هو لا يكتفي بتلك الإماءة بل يخلص إلى إيراد مجموعة من السلوكات الحميدة و يدعو إلى اتّباعها محذّرا في الوقت ذاته ممّا يقابلها من صفات ذميمة و ذلك قصد توطيد علاقات الأخوّة و الودّ بين أبناء المجتمع الواحد :

أخا الإسلام قد آخيت دينا ∴ صيامك فيه رابعة الدّعام

أتى رمضان و هو أجلّ شهر ∴ أقمه لكبح نفسك كاللّجام

تحام الفسق فيه فليس يرجى ∴ قبول الصّوم إلاّ بالتّحامي

إذ رامك ذو سوء بسوء ∴ لإضرام العداء فلا ترام

و لا تظلم فقيرا بانتهار ∴ و لا تظلم حقيرا باتهام

و قابل بالتجمل كلّ قذف ∴ و طعن من لسان كالحسام[2]

و يتناول الشّاعر الموضوع نفسه في قصيدة أخرى هي قصيدة "بلادي" و بالرّغم من أنّ موضوع القصيدة ديني، فقد اختار لها الشّاعر عنوانا يعكس بوضوح رؤيته القائمة على المزاوجة بين الدّين و الوطن، فهو قد يخصّص جزءا من القصيدة للموضوع الدّيني الّذي يخوض فيه أمّا باقي الأجزاء، أو لنقل هدفه الأساسي و الأصلي من تلك القصيدة فهو مجموعة

[1] الديوان، ص 154 .

[2] الديوان، ص 155 .

من العظات و الدّروس الأخلاقية أو النّداءات الصّارخة إلى إقامة مجتمع متماسك بالحبّ و الإيثار و يبدأ الشّاعر قصيدته تلك بإلقاء التّحيّة و السّلام على بلاده :

بلادي فداك الرّوح و الله عالم ∴ عليك سلام خالص االقصد سالم

يحيّيك مشتاق على القرب مشفق ∴ من البعد، مشغوف بحبّك هائم

له فيك ألوان من الرّأي عدّة ∴ فأبيض وضّاح و أسود قاتم[1]

فالشّاعر إذن يتأرجح بين التشاؤم و التفاؤل فيما يخصّ قضيّة وطنه على أنّه يرجّح في آخر المطاف كفة التّفاؤل و يرى أنّه مدعاة لتقوية العزائم و ينتقل بعدها ليحث أبناء وطنه لاسترداد حقّهم المغتصب و لن يكون ذلك إلاّ عن طريق النّضال الدّائم و الجهاد المستمرّ :

إلى الحقّ ولّوا أيها القوم وجهكم ∴ إلى الحقّ لا يأخذكم فيه لائم

فما ضاع حقّ للمحامين و اجد ∴ و لا ذاع حقّ للمحامين عادم

هلمّ نبن عن حقّنا في بلادنا ∴ فكم فيه مرتاب و كم فيه واهم

و قل لبني قومي : دعوا الجبن و انهضوا ∴ لفكّ رقاب أثقلتها الأداهم[2]

و يتوجّه الشّاعر إلىشهر الصّيام بمجموعة من الأسئلة، فيها استفسار عن حال الشّعب الجزائري بل و الأمّة العربيّة جمعاء، هل ستشفى من عللها و هل ستغدو الجزائر حرّة طليقة ينعم أبناءها بالعدل ؟

ألا هل لنا يا شهر فيك مراشد ∴ ألا هل لنا يا شهر فيك مراحم ؟

تروح و تغدو في الجزائر كلّها ∴ أوازم للصّبر الجميل هوازم

فمن محدق بالجند ما هو ثائر ∴ إلى مودّع في السّجن ما هو جارم

---

[1] الديوان، ص 135 .

[2] الديوان، ص 136 .

و في تونس الخضراء شمل مبدّد ∴ و في المغرب الأقصى أذى متفاقم

و في المقدس الباكي الحزين فضائع ∴ توالت و أنكاد طغت و مآثم

فيا شهر هل في الأرض يكشف كربنا ∴ و يبعث فيها مجدنا المتقادم ؟

و يا شهر هل تعطي الجزائر حقّها ∴ و يفرّج عنها ضيقها المتلاحم ؟[1]

إنّ الشّاعر يجمع في القصيدة الواحدة بين قضايا وطنه الصّغير، و الوطن العربي الكبير، و هو دأبه في الكثير من القصائد، يتحيّن له الفرص ليفصح عنه في شتّى المناسبات، فلا يترك سانحة إلاّ و استغلّها ليركّز فيها على مبدئه المؤمن بضرورة الوحدة و التّلاحم بين أبناء الأمّة ، و ليعرب فيها عن المعاناة الّتي يلاقيها من جرّاء ما يصيب أمّته من محن و إحن.

و سنعرض لهذا بشيء من التّفصيل في حينه – إلاّ أنّ هذه المعاناة لا تأول به إلى اليأس و الإحباط فهو رجل مؤمن، يثق بالله و بأنّه سوف يحيي تلك الرّبوع و لكن على الإنسان أن يأخذ بأسباب النّهضة و الخلاص من تمسّك بالدّين، و تزوّد بالعلم، و اعتصام بعرى الأخوّة و الاتّحاد و امتطاء لصهوة الجهاد، يقول مجيبا عن أسئلته السابقة :

بلى سوف يحيي الله كلّ ربوعها ∴ فتزكو بواديها و تزهو العواصم

و منّا لها في الخوف حام و حارس ∴ و منّا لها في الحيف كاف و ناقم

و منّا لواء في الميامين خافق ∴ و منّا شهاب للشّياطين راجم

و منّا جبال في الحلوم شوامخ ∴ و منّا بحار في العلوم خضارم [2]

---

[1] الديوان، ص 138 .

[2] الديوان، ص 138 .

ب- موسم الحجّ :

لقد خصّ محمّد العيد الحجّ ببعض شعره، كيف لا و هو أحد الدّعائم الدّينيّة و الاجتماعيّة الكبيرة. و الحجّ في نظر الشّاعر وسيلة لدعم اللّغة العربيّة، و في مثل هذه المناسبة - كما في غيرها من المناسبات الدّينيّة - يجد الشّاعر مجالا و متنفّسا جديدا لمقارنة الماضي بالحاضر[1] و ذلك من أجل استخلاص العبر و العمل على إصلاح المجتمع و الأخذ بيده إلى الطّريق السّويّ الّذي يسهّل له سبل الخلاص و النّجاة و يوفّر له أسباب التّقدّم و الازدهار فـ "الحجيات (كالمولديات) قصائد تنبض حنينا إلى الأمجاد و تنتفض حقدا على الحاضر التّعيس، و تطفح أملا في الغد المشرق، فهي لا تستعرض الفريضة إلاّ استعراض الذّكرى و العبرة الموحية، ثمّ تخلص إلى المغزى القومي من التّجمّع الدّيني"[2].

إنّ أوّل قصيدة تطالعنا حول هذا الموضوع هي قصيدة "وداع الحجاج" و مطلعها :

استقبلوا وجه الحجاز وسيما ∴ و استنشقوا روح الإله نسيما[3]

و يمضي الشّاعر بعد ذلك يصف المسلمين و هم يودّعون موكب الحجّاج الّذين يتأهبون للرّحيل إلى البقاع المقدّسة تحت الرّعاية السّماوية مصوّرا أثر ذلك المشهد في قلوب مودّعيهم ثمّ ينتقل ليلقي درساً على أولئك الحجيج في مناسك الحجّ و أركانه ليحمّلهم بعد ذلك التّحية الصّادقة للرّسول - صلّى الله عليه و سلّم - و أصحابه من الأنصار و المهاجرين و يخلص الشّاعر من ذلك كلّه إلى رسم الطّريق أمام الأمّة نحو العزّ و السّؤدد مؤكّدا أنّه ليس هناك من سبيل سوى الاهتداء بكتابه سبحانه و تعالى فهو نعم المعين و نعم النّصير :

---

[1] ينظر :أبو القاسم سعد الله ، شاعر الجزائر محمد العيد، مرجع سابق، ص 144 .

[2] د. صالح الخرفي، الشعر الجزائري الحديث مرجع سابق، ص 59 .

[3] الديوان، ص 162 .

يـا أمّـة شـقـيـت ببعض رعاتها ∴ و تـحـمّلت منـها الـعـذاب أليما
أبغي التّحرّر و انشدي الإصلاح لا ∴ تبغي الوظيف و تنشدي التوسيما
الأمـن أن تشـقـي بـربّـك نـيّـة ∴ و تـشـايـعي قـرآنـه تـحـكـيما
فهو الّذي يـزع الـشّعوب مساعدا ∴ و هو الّذي يسع الذّنوب حـليما[1]

و بنفس العنوان "وداع الحجاج" ينظم الشّاعر قصيدة ثانية يدعو فيها إلى تشييع ركب الحجّاج :

شيّعوا بالقلوب وفد العتيق ∴ و اذرفوا الدّمع من دم كالعتيق

و يصف مشهد الحجّاج و هم يتأهبون إلى تلبية نداء ربّهم تاركين وراءهم الأهل و البنين مشيرا إلى ما يثيره منظرهم ذلك من تشويق و حنين ليقدّم بعد ذلك التماسة إلى الحجّاج يرجوهم فيها الدّعاء عند العتبات المقدّسة، الدّعاء للأمّة حتّى تتخلّص من آلام الأسر و التّطويق، و في ذلك تلميح للواقع الّذي كان يعاني منه الشّعب الجزائريّ[2] :

أيـهـا الرّاحلون شوّقتم القلو ∴ ب لما لا يـنـال بالـتّـشـويـق
إنّنا أصدقاؤكم فاذكرونا ∴ فمن الواجبات ذكر الصّديق
اذكرونا عند المقام و في البي ∴ ـت و عند الرّسول و الصّديق
بدعاء مؤكّد صـادق العز ∴ م من الله بـالـقـبـول حـقـيق
إسـألوا الله راحـة للـمعنى ∴ و اسـألـوا الله عـصمة للغريق
و اسألوا الله عزّة و رشادا ∴ و سـدادا لشـعـبنا الإفـريقي
ويح إفريقيا تقضت عهود ∴ و هي رهـن للأسـر و التّطويق

---

[1] الديوان، ص 165 .

[2] ينظر محمد بن سمينة، محمد العيد آل خليفة، شعره الإسلامي، ص 263 .

و يتوجّه الشّاعر في ختام قصيدته إلى الشّعب يدعوه للجهاد من أجل تحقيق الغاية المنشودة، من أجل تحقيق العزّة و السّيادة :

ليس أهلا أن يستقلّ و يرقى ∴ غير شعب من الهوى مستفيق

ثابت في نضاله مستميت ∴ و غيورعلى حماه شفيق

لا يطف طائفِ الإياس بقومي ∴ قد يتاح الرّحيق بعد الحريق

و للشّاعر قصيدة ثالثة يرحّب من خلالها بالحجّاج بعدما أتمّوا مناسكهم و عادوا سالمين غانمين إلى أرض الوطن و هي تحت عنوان "التّرحيب بالحجّاج" [1] و قد استهلّها بتوجيه الخطاب إلى الحجيج يرحّب بهم و يهنّئهم ببلوغ مقصدهم الشّريف و عودتهم الميمونة :

حباكم بججّ البيت أكرم من حبا ∴ فأهلا و سهلا بالحجيج و مرحبا

ذهبتم و جئتم ظافرين بمأرب ∴ شريف و جلّ النّاس ينحط مأربا

و قد وجد الشّاعر في التّرحيب بالحجّاج فرصة يقف عندها و يتملاّها طويلا ليتحدّث بعد ذلك عن ظاهرة اجتماعيّة حديثة و هي وسائل النّقل[2] ، و كيف أنّ الحضارة الحديثة استطاعت أن توفّر تلك الوسائل الّتي تطوي الأميال طيّا، و توفّر للمسافرين الكثير من الوقت و تجنّبهم مشقّة السّفر في ساعات قلائل. كلّ ذلك توصّل إليه الغرب بفضل إعمال العقل و التّفكير ممّا سمح له بتسخير الطّبيعة لخدمته و إخضاع الآلة لنفعه، في الوقت الّذي تقاعس فيه المسلمون و تخاذلوا و تخلّفوا عن الرّكب، و لو أنّهم تمسّكوا بتعاليم دينهم الحنيف لما انحدروا إلى ما انحدروا إليه من تأخّر و ضعف لهذا سمح الشّاعر لنفسه بتذكير قومه بما جاء به دينهم و قامت على أساسه الحركات الإصلاحيّة قديمها و حديثها من حثّ على تحرير العقل

[1] الديوان، ص 194 .

[2] ينظر : سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد ، مرجع سابق، ص 144 .

و استخدامه في البحث عن خبايا الكون و أسراره و سبر أغوارها من اجل تسخيرها للصّالح العام :

طويتم له الأبعاد فوق مسخر ∴ من النّار و الفولاذ هيء مركب
فمن سارب في البحر يدفع لجّه ∴ و من ضارب في البرّ يقطع سبسبا
و من سابح فوق الأثير بركبه ∴ عن الرّيش مستغن بسبعين لولبا
أشار إليه الله في الذّكر قائلا ∴ (و يخلف ما لا تعلمون) ليطلبا
و لكن أبينا أن نجيل عقولنا ∴ لنكشف عمّا ظلّ عنّا محجّبا
و لم نسع سعي الغرب للكشف بالحجى ∴ عليه فلم نكسب مع الغرب مكسبا[1]

و يلتفت الشّاعر إلى وطنه فيحزنه حاله و ما آل إليه فيتساءل في حسرة و تلوّع إلى متى و الأمّة في غفلة من أمرها و الأعداء يدوسون أرضها و ينهبون خيراتها، و هو بسؤاله هذا إنّما يرمي إلى استنهاض الهمم و بعث الشّعور بالعزّة في النّفوس :

لنا وطن مثل الفراديس بهجة ∴ فكيف رضينا أن يداس و ينهبا ؟
و كيف رضينا أن نعيش أذلّة ∴ ضعافا يرانا الغير أحقر من هبا ؟
-حيارى كقطعان جفتها رعاتها ∴ فأغرّت بها خصمين ذئبا و ثعلبا[2]

أيكون هذا مصير االأمّة و هي الّتي عرفت ما عرفت من عباقرة و أبطال من أمثال خالد و علي و عمرو و مصعب و مفكّرين عمالقة أمثال الغزالي و ابن خلدون و غيرهما ممّن عرفت الحضارة العربيّة في عصورها الزّاهرة[3].

---

[1] الديوان، ص 195.

[2] الديوان، ص 195.

[3] ينظر : سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد ، مرجع سابق، ص 45.

و يعود الشّاعر مرّة ثانية ليخاطب الحجّاج مبرزا لهم الحكمة من حجّهم، ليختم القصيدة بالحثّ على النّضال و الكدح من أجل حياة أفضل و على العمل الصّالح و الجهاد ابتغاء مرضاة وجه الله، ممّا يذكّرنا بظاهرة التّصوّف الّتي عرف بها الشّاعر، التصوّف المعتدل القائم على الجمع بين مطالب الدّنيا و مطالب الآخرة [1]، يقول :

فيا أيها الإنسان دنياك صعبة ∴ فكن أنت فيها في كفاحك أصعبا

و يا أيّها الإنسان إنّك كادح ∴ إلى الله كدحا ما خلقت لتلعبا

فإن طبت نفسا تلقه عنك راضيا ∴ و إن سؤت سعيا تلقه عنك مغضبا [2]

إنّ ما نستخلصه من نتاج الشّاعر في هذا الموضوع أنّه كان يؤكّد دوما على الصّلة المتينة بين الدّين الإسلامي و بين مختلف مظاهر الحياة العامّة، و أنّه كان شديد الحرص على الإفادة من مآثر هذا الموسم – و غيره من المواسم – الدّينية ليمكن للرّوح الدّينيّة في نفس الفرد ممّا يساعد على سموّ الأوضاع الاجتماعيّة و يدعّم المجتمع في صراعه ضدّ أعدائه.

ج– المولد النّبوي الشّريف :

إنّ المديح النّبوي من الأغراض الشّعريّة الّتي أفاض فيها الشّعراء "فمن زهاد متعبّدين يحثّون على التّقوى و ترك الموبقات، و التّمسّك بالفضيلة و عدم الإنخداع بالدّنيا و زخرفها إلى شعراء يتغنّون بفضائل النّبيّ عليه السّلام و يتقرّبون إلى الله بمدحه، و يستشفعون به و يستحثّون أممهم على استرجاع مجدهم القديم و عزّهم الزّائل. . . "[3].

---

[1] ينظر محمد بن سمينة، محمد العيد : شعره الإسلامي، ص 340.

[2] الديوان، ص 197.

[3] عمر الدّسوقي، في الأدب الحديث، القاهرة، دار الفكر، ج2، ط8، 1973، ص 298.

و إنّنا إذا تتبّعنا المسار الّذي سار عليه هذا الفنّ فسوف نجد بذوره الأولى تعود إلى حسّان بن ثابت شاعر الدّعوة الإسلاميّة، ثمّ تعاقب على هذا الطّريق الكثير من الشّعراء في مختلف عصور الأدب العربي إلى أن أصبح غرضا قائما بذاته في العصر العبّاسي [1]. و لكن ما لبثت تلك المدائح النّبويّة أن مالت إلى الصّوفيّة المفرطة القائمة على معاني التّوسّل و الشّفاعة بالرّسول و الاكتفاء بالحديث عن مولده و نسبه و معجزاته و بعض صفاته و ظلّت المدائح تنظّم على ذلك المنوال حتّى العصر الحديث حيث أخذ بعض الشّعراء يجدّدون فيها حريصين في ذلك على ربط موضوعهم بواقع النّاس قصد استخلاص العبرة منه حتّى يساعدهم ذلك على السّموّ بحياتهم و يمكنهم من الأخذ بأسباب السّيادة و العزّة. هذا عن المديح النبوي عموما فماذا عنها في الشّعر الجزائري ؟

إنّ المدائح النّبويّة في الشّعر الجزائري الحديث قد طرأ عليها تغيير هي أيضا و تجلّى ذلك بوضوح بعد ظهور الحركة الإصلاحيّة بحيث عاد المديح إلى ما كان عليه في بداياته الأولى، و أصبحت المدائح النّبويّة تشبه إلى حدّ كبير التّراث الشّعري العربي القديم في موضوعه و في صورته [2]، ذلك لأنّ الحركة الإصلاحيّة عملت على توجيه الحركة الأدبيّة نحو المنابع الصّافيّة من دينها بعدما كان يشوبها من انحراف و كدر على يد بعض الطّرقيّين الّذين استغلّوا مظاهر الاحتفال بذكرى المولد النّبوي الشّريف استغلالا سيّئا ساعد على نشر البدع و الضّلالات في أوساط الأمّة، و في المقابل عمدت الحركة الإصلاحيّة إلى إحياء ذكرى المولد بهدف توجيه الأمّة الوجهة السّليمة فكانت تغتنم فرصة الاحتفال لنشر المفهوم السّليم للإسلام و ذلك بالعودة

---

[1] ينظر: محمد بن سمينة ، محمد العيد شعره الإسلامي، مرجع سابق، ص 347.

[2] المرجع نفسه، ص 351.

إلى سيرة الرّسول – صلّى الله عليه و سلّم – و العمل بما جاء به من هدي، و الاقتداء بما تحلّى به من سلوك قويم و خلق كريم من أجل تحقيق حياة كريمة.

و هكذا فقد أصبحت الموالد النّبويّة تجسّم المنعرج السّنوي لاحتضان التّاريخ بحيث كان الشّعراء يتّخذونها منطلقا لتصحيح الأوضاع المنحرفة و فرصة لتسليط الأضواء على مواطن الفساد، و كانوا يستعينون في ذلك بمبدأ المقارنة، مقارنة الماضي بالحاضر، مقارنة ما كان عليه الإسلام بالأمس و ما أصبح عليه اليوم بعد تقهقر الأمّة و عودتها إلى الجاهليّة.[1]

يقول الإبراهيمي في هذا المضمار : "إحياء ذكرى المولد النّبويّ إحياء لمعاني النّبوّة و التّذكير بكلّ ما جاء به محمّد من هدي، و ما كان عليه من كمالات نفسية، فعلى المتكلّمين في هذه الذّكرى أن يذكروا المسلمين بما كان عليه نبيّهم من خلق عظيم، و بما كان لديهم من استعلاء بتلك الأخلاق . . ."[2].

إنّ إحياء ذكرى المولد النّبوي لدى الشّعراء الإصلاحيّين كان يهدف إصلاح الواقع و ليس الوقوف عند حدود الماضي و الاكتفاء بالتّغنّي به، فالإصلاحيون كانوا يتّخذون من أمجاد الماضي أساسا لبناء حاضر عزيز قويّ[3]. وقد استطاع هؤلاء تنقية تلك المواسم من الشوائب و الضّلالات التّي تسبّب فيها الإنحراف الدّيني و خاصّة على يد الطّرقيين -كما سبق و أن أشرنا- هذا فضلا عن إعطائها بعدا قوميّا وطنيّا سياسيّا[4]. و بذلك اختلفت المدائح النبويّة في فترة الإصلاح عنها فيما سواها، فالشّاعر لم يعد يرجو التبرّك و التقرّب لله عن طريق

---

[1] ينظر: صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 53.

[2] مجموعة من المؤلّفين : من آثار محمد البشير الإبراهيمي، الجزائر، الشركة الوطنيّة للنّشر و التّوزيع، ط3، ج3، 1982، ص 24.

[3] ينظر: عبد الله ركيبي، الشّعر الدّيني الجزائري، مرجع سابق، ص 51.

[4] ينظر: صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص54

الرّسول-صلّى الله عليه و سلّم- فحسب و إنّما أصبح يهدف إلى استنهاض الهمم و معالجة الواقع ممّا يشوبه من خرافات و أضاليل و لن يكون ذلك إلاّ عن طريق الرّجوع إلى الدّين الصّحيح و السّيرة النّبويّة مع كلّ ما تمثّله من أخلاق سامية و بطولات تاريخية، و من أبرز شعراء الإصلاح وفاءا لهذا المنهج الشّاعر محمّد العيد، يتّضح ذلك من خلال وقفاته الكثيرة في هذه المناسبة و يأتي على رأسها قصيدة "تحيّة المولد النّبوي"[1] الّتي يبدأها بالأمر، يأمر أخاه المواطن بأن يبادر إلى الاحتفال بأعظم ذكرى لأعظم خلق الله :

قم فاحتفل و اعقد بشهر المولد ∴ ذكرى لتاج الأنبياء محمد

قم فاقتبل بالبشر ليته الّتي ∴ سادت على الدّنيا بأعظم سيّد

و ما نلاحظه من خلال هذه القصيدة أنّ الشّاعر لم يستطع التّخلّص من النّزعة الصّوفيّة - حتّى و إن كانت روح الإصلاح تغلب عليه - و ذلك حين يتحدّث عن النّور المحمّدي و الحقيقة المحمّديّة، و حين يومئ أنّ الكون إنّما خلق من أجل محمد - صلى الله عليه و سلّم -[2]

هو الّذي ذرأ الإله عباده ∴ و جماده من نوره المتوقّد

يا حاملا علم النبوة في الورى ∴ و أبو الورى في الطين لم يتجسّد

و يظهر تصوّفه كذلك في اهتمامه الكبير بالصفات المادية للرسول - صلى الله عليه و سلم - على أنّه ثمّة اختلاف بينه و بين المتصوّفة يظهر جليّا في حديثه عن جهود الرسول (ص) في نشر دعوة ربّه و جهاده من أجلها أوّلا، و يتّضح ثانيا حينما يشير إلى ما ارتبطت به الدّعوة المحمّديّة من حثّ على العلم و ترغيب في السّلم و اعتماد على النّصح و الإرشاد :

و الله بعد الأربعين أمدّه ∴ منه بشرع بالحدود مؤيّد

---

[1] القصيدة غير واردة في الديوان، ينظر : محمّد بن سمينة، محمد العيد شعره الإسلامي، ص 352.

[2] المرجع نفسه، ص 54.

و اختـــاره للـعـلم خـير معلّم ∴ و اختاره للسّلم خير ممهّد

فدعا العباد إلى السّلام مسارعا ∴ في نصحهم بعزيمة لم تخمد

هي مبادئ و خصال تحلّى بها الرّسول -صلّى الله عليه و سلّم - و هي نفسها المبادئ الّتي تعمل الحركة الإصلاحيّة جاهدة من أجل غرسها و تثبيتها في أوساط المجتمع الجزائري، و هكذا نلاحظ أنّ الشّاعر ظلّ يتأرجح في قصيدته تلك بين الفكرة الإصلاحيّة الّتي أصبح يناضل من أجلها، و بين الفكر الصّوفي الّذي ترعرع في ظلّه. و يختم الشّاعر قصيدته - على غير عادة المتقدّمين - بالتّشكّي و التّألم لما يراه من ضياع الإسلام و المسلمين من بعد نبيّهم :

أشكو إليك بـمـا تـجـدّد مـن أذى ∴ بعد التحاقك بالرّفيق الأصعد

عصفت على الإسلام بعدك صرصر ∴ فـتـبـدّد الإسـلام كـلّ مبدّد

و جـرت بـأرض الـمسلمين حوادث ∴ شتّى كأمـواج الـخضم المزبد

و ألقى الشّاعر قصيدته "ذكرى المولد النّبويّ"[1] بنادي التّرقّي إحياءا لذكرى المولد النّبويّ الشّريف، و قد حافظ فيها على المنهج الواقعي- على غرار معظم شعراء الإصلاح - و يلمّح الشّاعر من أوّل القصيدة إلى البواعث الحقيقيّة الّتي جعلته ينظمها و تتمثّل في الرّغبة في إحياء السّنّة الشّريفة و الاقتداء بهدي صاحبها و العمل بما جاء به من قيم و مبادئ :

ألا أنعم أيها النّادي ∴ بذكر مولد الهادي

لقد جئناك ورادا ∴ عـلـى آثـار وراد

و قمنا في مسرّات ∴ و أفـراح و أعـياد

نحيي خير مولود ∴ بدا في خير ميلاد

---

[1] الديوان، ص 75.

نحيي سيّدا في الخلـ ∴ ـق متبوعا بأسيـاد

نحيي مرشدا لم يبـ ∴ ـغ منهم أجر إرشـاد

نحيي داعي الحسنى ∴ نحيي راعي الضّاد

إنّ إلحاح الشّاعر على تلك الصّفات لم يأت عفو الخاطر و إنّما كان يتقصّدها لما تتّصل بمبادئ و أهداف الفكرة الإصلاحيّة القائمة على الإرشاد و الدّعوة إلى الحسنى و نشر الفضائل، و إحياء اللّغة العربيّة.

و يعمد محمّد العيد الرّجوع للماضي يستنطقه، و يستلهم حقائقه، و يبدأه بسيرة الرّسول الكريم (ص) مبيّنا جهوده في نشر الدّعوة، فيقول :

ألا يـا حبّـذا ذكـرى ∴ أقـمـنـاهـا لـمـيعاد

بـها نستـعرض التّاريـ ∴ ـخ من خاف و من باد

سلوا التّاريخ عـن بـرّ ∴ رحـيـم للورى فادي

سلوا التّاريخ عن أرض ∴ حـماها من يد العادي

سلوا عن دولة الإســ ∴ ـلام كم باهت بأجناد [1]

و يواصل الشّاعر يدعو الشّعب إلى التّمسّك بدينه و استلهام حقائقه في مسيرته النّضاليّة ليختم قصيدته بالدّعاء و التّدرّع إلى الله من أجل نصرة الدّين :

أنط يا شـعب من ديـ ∴ ـنك أطنابا بأوتاد

و هـي مثلما هيّأ حز ∴ بـالله مـــن زاد

و سر في إثرهم سيرا ∴ قـويـا غير منآد

---

[1] الديوان، ص 77.

ألا فليحيى حزب الله ∴ في نصر وإمداد

ألا فليحيى دين الله ∴ آمـاد لآمـاد [1]

و يعود الشّاعر ليخلّد ذكرى المولد النّبوي الشّريف في قصيدته "أنشودة الوليد" [2] فيستعرض حادثة المولد و ذكرى صاحبها و أعماله في التّاريخ ليخلص بعد ذلك إلى الحديث عن محاولة المحتلّ فرنسة الجزائر و إلغاء قوميّتها العربيّة و الدّينيّة [3]، يستعرض كلّ ذلك على لسان أحد الفتيان :

أنا صارم في وجه من يد ∴ وي ابتلاعك يمشق

إنّ الّذي يبغي اندما ∴ جك في سواك لأحمق

لا ينمحي شعب بشا ∴ رات الرّسول مطوّق [4]

و كعادته يحرص الشّاعر على استخلاص العبر من هذه الذّكرى ليذكّي روح الجهاد في الأمّة، و يجمع شملها و يجنّبها خطر الشّقاق و هو يحثّ أمّته على التّمسّك برأس الفضائل ألا و هو الدّين الحنيف.

أمّا آخر مولوديّات الشّاعر فهي قصيدة "سلوا التّاريخ" [5] و يبدأها بالتّحدّث عن بعض ملامحه النّفسيّة :

هجدت فضاع حظّي في هجودي ∴ و لم أفض اللّبانة من وجودي

---

[1] اليوان، ص 78.

[2] الديوان، ص 166.

[3] ينظر: سعد الله ، شاعر الجزائر محمد العيد، ص 142.

[4] الديوان، ص 168.

[5] نظمها الشاعر سنة 1950 بعد فترة العزلة الّتي عاشها.

رقدت فضاع في الأحلام عمري ∴ كذاك تضيع أعمار الرّقود

فيا نفسي من الكدرات عفّي ∴ و عودي للصّفاء المحض عودي

و لا تدعي هموم الدّهر تطغى ∴ عليك فلقد أتى شهر السّعود[1]

إنّ الأبيات هذه تنمّ عن نزعة صوفيّة و تدلّ دلالة واضحة على تلك الفترة الّتي ركن فيها الشّاعر إلى العزلة و التّصوّف، إلاّ أنّه بالرّغم من ذلك قد استطاع أن يرى بصيص أمل و هو يرى علامات الثّورة تلوح في الأفق ممّا جعله يستبشر بمستقبل الوطن و يمضي يشدو لأفراح الميلاد، ميلاد محمد -صلّى الله عليه و سلّم - متتبّعا مراحل حياته و سيرته و جهاده في سبيل نشر رسالة الإسلام عسى أن يحمّل ذلك أمّته على أن تنهج نهجه تصدّيا لأعدائها و طلبا لحريّتها.[2]

إنّ مجمل ما نستطيع قوله عن مولوديات محمّد العيد أنّها كانت سانحة يستغلّها الشّاعر لتصوير الواقع و معالجة قضاياه و هو ما لم نعهده عند غيره من المتقدّمين، ذلك لغلبة النّظرة الغيبيّة عليهم ممّا جعلهم يتّجهون في أشعارهم اتّجاها روحيّا واضحا أفقدها جزءا هامّا في التّأثير المطلوب على سير الحياة العامّة للأمّة وأبعدها عن مجريات الأحداث فيها.[3]

إنّ أهمّ المعاني الّتي تطرّق إليها الشّاعر في مولودياته هي :

- الدّعوة إلى التّمسّك بالدين و الحثّ على الإغتراف من منابعه الصّافية و الاقتداء بما في سيرته - صلّى الله عليه و سلّم - و هديه من توجيهات .

---

[1] الديوان، ص 198 .

[2] ينظر: محمد بن سمينة، محمد العيد، شعره الإسلامي، مرجع سابق، ص 377 .

[3] ينظر " عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري، مرجع سابق،ص 88 .

- بثّ الرّوح الوطنيّة و تأصيلها في النّفوس ، و إعداد العدّة لما يمكن الوطن من بناء ذاته و الثّورة على أعدائه.

و كلّ ما نستطيع قوله في الختام أنّ الشّاعر قد استطاع أن يساهم بفعّالية في تحقيق جملة من الأهداف الّتي كان الإصلاح يتوخّاها من هذه الإحتفالات المولوديّة بتوجيهه إياها نحو ما يخدم الصّالح العام و ينفع الأمّة في دينها و دنياها، و يفوت الفرصة في الوقت ذاته على بعض جيوب الطّرقيّة المنحرفة الّتي كانت تستغلّها لمآربها، فتحرم الأمّة من الانتفاع بها .

2- دفاعه عن مقوّمات الأمّة :

أ- الوحدة و العروبة :

وقف الكثير من الأدباء الجزائريّين يدعون الشّعب و يوجّهونه لينهل من علم الشّرق و يقتدي بزعمائه و يحفظ تراثه "و هم إذ يرسمون هذا الاتّجاه لا يعنون بالشّرق مصطلحه الجغرافي أو السّياسي، و إنّما كانوا يقصدون الشّرق في مفهومه العربيّ أو القوميّ و ذلك في مقابل اتّجاه آخر حاول الاستعمار أن يغري به طبقة من الجزائريين المثقّفين . . ."[1] .

إنّ الإحساس بالعروبة و الشّعور بالانتماء إلى الأمّة العربيّة كان أحد السّمات البارزة في قصائد الشّعراء الجزائريين، فالكيان الجزائري في نظرهم لم يكن منفصلا بأي حال من الأحوال عن الكيان العربي.[2]

و لتجدنّ محمد العيد أكثر الشّعراء حرصا على الوحدة و العروبة و أشدّهم عناية بالشّرق و أحداثه، و هو في الوقت ذاته أبرز من حثّ الشّباب الجزائريّ على الاتّجاه نحو المشرق العربي ليقتفي خطاه ثقافة و حضارة[3] ففي قصيدة "يا شباب" نجده يخاطب هؤلاء قائلا :

---

[1] د. أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 107 .

[2] مجلة الفكر، العدد7، أفريل 1985، ص 32 .

يا شباب اتجه إلى الشرق و احفظ ∴ كلّ كنز له انتساب

إنّما الشّرق نسبة العرب الأحرار ∴ لم تنقطع لها أسباب

إنّما الشّرق للعروبة كهف ∴ آمن الظّلّ بالأذى لا يصاب

هو صفو و فيه لك شوب ∴ فرد الصفو لا ترد ما يشاب[1]

إنّ الشّاعر يفتخر بماضي الوطن العربيّ و بعزّته و قوّته، و بفاخر الأمم بحضارة أمّته و أصالتها و هو بالمقابل يدعوها في حاضرها إلى اليقظة و الأخذ بأسباب التّقدّم و الحضارة.

و قد اعتبر محمد العيد و غيره من الشّعراء الجزائريين – تاريخ بلادهم امتدادا للتّاريخ العربي الإسلامي، فالدّعوة إلى كيان جزائري مستقلّ في نظرهم تعني في جوهرها عودة إلى ذلك التّاريخ العربي الإسلامي الّذي يحاول المستعمر بشتّى الطّرق طمسه و تشويهه ليفرغ الكيان الجزائري من محتواه الحضاري و يلحقه بفرنسا الأمّ[2]. و هكذا "كان تمجيد هؤلاء الشّعراء للتّاريخ العربي تعبيرا عن ارتباطهم بالجذور و السلف و الشّخصيّة الجزائريّة العربية الإسلاميّة"[3] فلطالما تغنّوا بأبطال عرب أجداد أبطال الجزائر فعبد القادر و المقراني هما خلفاء عقبة بن نافع و طارق بن زياد :

---

[3] د. عبد الله ركيبي، قضايا عربية في الشعر العربي المعاصر، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983، ص 20.

[1] الديوان، ص 259.

[2] مجلة الفكر،الجزائر، العدد7، 30 أفريل 1985، ص 32، محمد الصالح الجابري – الوعي القومي الديني عند الشّعب الجزائري الجزائري.

[3] د. نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرير، بيروت، دار العلم للملايين، ط1، 1981، ص 334.

أعقاب عقبة في الجهاد و طارق ∴ أقران مقراني و عبد القادر [1]

إنّ الشاعر صرّح في أكثر من قصيدة عن انتمائه للأمّة العربية الإسلاميّة [2]أليس هو القائل:

أنا ابن جدّي و قومي السّادة العرب ∴ و حرفتي فأحييت الشّعر و الأدب

و إنّ إلحاح الشّاعر على هذا الماضي التّليد لينمّ عن حسّ عربيّ عميق، فهو في قصيدة "إلى العلم" يؤكّد عروبة الجزائر الّتي طالما حاول- الأعداء النّ يل منها لكن دون جدوى :

و مـا نـحـن إلاّ من سلالة يعرب ∴ فمن رام عنها فصلنا باء بالرّغم

سلام كأزهار الرّبى طيّب الشّذى ∴ عـلى كـلّ قـحّ في عروبته شهم [3]

و هكذا لا نستغرب حين نرى الشّاعر ينتقد في شدّة الأحفاد الّذين نسوا هذا الماضي المجيد، يعرب عن انتقاده الشّديد في قصيدته : "في أذن الشّرق" .

و انقطعنا يا علم عنك و عن ك ∴ ل تراث أبقت لنا الأجـداد

حـرت في عـزونا إلى العرب لولا ∴ فكرة خصبة و لسن حداد

و نـفـوس لنـا تـهـيب إلى المج ∴ د بنا ما لهـا سـواه مـراد [4]

إنّ محمّد العيد "قد عاش القضايا العربيّة في مجموعها و كان يهدف من دفاعه عن التّراث القومي في الجزائر و الدّعوة إلى الإصلاح الجديد، و الوقوف في وجه فكرة الإندماج و التّبشير بالثّقافة و اللّغة العربيّة، و اهتمامه بكلّ مظاهر النّهضة، كان يهدف من هذا كلّه إلى أن تصبح

---

[1] الديوان، ص 222 .

[2] الثقافة و الثورة ، مجلة الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1984 م، عدد 11، ص 39 .

[3] الديوان، ص 202 .

[4] الديوان، ص 117، أحمد دوغان، رحلة في عالم محمد العيد الإنسان الشّاعر الثّائر .

الجزائر حقيقة واقعة جزءا من الأمّة العربيّة و أن يؤكّد للرّأي العام أنّها شرقيّة عربيّة لا غربيّة فرنسيّة كما كان يروّج الاستعمار و أذياله" [1] .

و من القضايا العربيّة الّتي استقطبت اهتمام الشّاعر قضايا التحرّر في الوطن العربي إذ حاول مواكبة حركات التّحرّر و رصد مسيراتها، و قد استطاع "رغم الأسوار العالية و القضبان الفولاذيّة الّتي كانت تطوّقه، استطاع أن يلتفت إلى هذا الجسم الممتد من الخليج إلى المحيط فيبارك حركته التحررية و يأسو جراحه الدّامية و يهنّئ بنجاحه المظفر و يدعوه إلى مزيد من اليقظة و الإقدام"[2]:

و ابن الجزائر بابن الشرق مرتبط ∴ و إن أحاطت به الأشواك أسوارا

و هكذا فإنّ محمد العيد خدم الأمّة العربيّة و مجّد بطولاتها و شاركها أفراحها و أقراحها و كان شعره سجلّا صادقا لقضاياها .

و يتجلّى الإحساس العربي لدى الشّاعر بصورة واضحة في كلّ ماهو ذي طابع سياسي كحديثه عن استقلال السّودان مثلا :

فوز سرت بحديثه الركبان ∴ فالشّرق مغتبط به جذلان

و النّيل يجري صاخبا ومصفقا ∴ طربا فترقص حوله الشّطآن

و بنو العروبة يهتفون لمركب ∴ في النّيل أبحر ركبه العريان [3]

---

[1] د . أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر، محمد العيد، مرجع سابق، ص 190 .

[2] د . نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرير، مرجع سابق، ص 342 .

[3] الديوان، ص 354 .

و على عادته يتحيّن الشّاعر الفرص للدّعوة إلى التّمسّك بالوحدة الوطنيّة و القوميّة العربيّة الّتي تتآزر فيها مختلف العوامل من لغة و دين و تاريخ دون أن ينسى تهنئة السّودان بانضمامها إلى الجامعة العربيّة [1]:

يا أمّة السّودان أمّتكم رست ∴ طبتم و طاب لكم بها السّلطان

ضمت لجامعة لنا عربيّة ∴ أعضاؤها عرب بها خلصان

لا تنقضوها بالخلاف فإنّه ∴ لا يستقيم به لكم بنيان

فعن الشّقاق تنزّهوا و تمسّكوا ∴ بعرى الوفاق، فكلّكم إخوان[2]

و بنفس الرّوح القوميّة، و الشّعور بالعروبة يهنئ الشّاعر ليبيا بعد أن ظفرت باستقلالها :

أمل تحقّق بعد طول نضال ∴ و مثال فوز كان خير مثال

أرأيت أعظم غبطة من أمّة ∴ مهضومة حظيت بالاستقلال

يا ليبيا تيهي بنجاحك رفعة ∴ و تمايلي بلوائك المختال [3]

و ها هو الشّاعر يرحّب بقدوم الرّئيس جمال عبد النّاصر إلى الجزائر زائرا في قصيدة تمثّل أروع الصّور الوطنيّة و الدّعوة إلى الوحدة العربيّة، فهو لا يفتأ يبشر بتلك الوحدة و يبلغ الأمل به إلى الحدّ الّذي يرى فيه تلك الوحدة حقيقة واقعة [4]:

و المغرب العربي أصبح كاسمه ∴ للعالم العربي خير مظاهر

---

[1] ينظر : عمر بن قينة، صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، مرجع سابق، ص 352.

[2] الديوان، ص 354.

[3] الديوان، ص 348.

[4] الثقافة، مجلة الجزائر، العدد 86 جمادى 2، رجب 1405 هـ، مارس، أفريل 1985 م، ص 153، د. زكريا محمد : شعر محمد العيد بين فلسفة الإصلاح و روح الثّورة.

و العالم العربي أمس وحدة ∴ قوميّة في عنصر متظافر

فمن الخليج الثّائر انتظمت عرى ∴ عبر الشّمال إلى المحيط الهادر [1]

و كما شارك الشّاعر الشّرق أفراحه، فقد شاركه أحزانه أيضا، فها هو ذا يشارك بغداد مصابها الجلل بعدما رزئت بفقد ملكها غازي معتبرا تلك النّكبة نكبة على العروبة جمعاء [2]

يقول:

اليوم حقّ على العروبة ∴ أن تنوح و تندبا

أبكى مصابك مشرق الدّ ∴ نيا و أبكى المغربا[3]

و حين فقد الشّرق شاعريه الكبيرين حافظ و شوقي بكاهما الشّاعر و وقف يندب حظّ الشّعر في قصيدته "ذكرى الشّاعرين" :

دولة الشّعر من الشّرق انقضت ∴ و انقضى فيها مراء الأمراء

و لواء الضاد في الشرق انحنى ∴ فانحنى الشّرق على ذاك اللّواء

أيّ قلب لم يكدّر بالأسى ∴ أي طرف لم يفجّر بالبكاء [4]

ثمّ يتدارك الشّاعر نفسه و يتماسك ويطلب من الشّرق أن يكفكف الدّمع و يواصل الجهاد[5]:

يا بني الشّرق ذروا الدّمع لمن ∴ لاذ بالدّمع و لوذوا بالعزاء

---

[1] الديوان، ص 223.

[2] ينظر : سعد الله، شاعر الجزائر، محمد العيد، مرجع سابق، ص 201.

[3] الديوان، ص 468.

[4] الديوان،ص 493.

[5] ينظر : سعد الله، شاعر الجزائر، محمد العيد، مرجع سابق، ص 203.

فوراء الغاب أشبال حمت ∴ حرم الغاب شديـدات الضّرّاء

أنـتم الأطواد فليجمع لكم ∴ أمره الغرب و يسرف في العداء[1]

و كان الشّاعر قد أبن الفقيدين (جافظ و شوقي) في قصيدتين منفصلتين و ما يجدر ذكره هو أنّ الشّاعر لم يتعرّض لهذين الشّاعرين لمجرّد الذّكرى أو التّأبين فحسب، و إنّما كان يرمي إلى هدف أسمى و أنبل و هو إذكاء عواطف القوميّة و استلهام أمجاد العروبة و روحانية الإسلام.

و عندما فقدت تونس شاعرها الشّاذلي خزندار سارع محمّد العيد لنظم قصيدة يرثيه فيها متّخذا منها فرصة للدّعوة إلى التّآزر و الوحدة بين أبناء الأمّة العربيّة :

يا بني الخضراء هذا جهدنا ∴ في مصاب كلّنا منه حزانى

كلّنا فيه سواء فلتتيكن ∴ كلّنـا فيـه معـينا و معانا

بورك المغرب من دار لنا ∴ بوّأتـنـا مـن مـغانيها كانا

نحن فيها أسرة واحـدة ∴ إخوة دينا و جنسا و لسـانا[2]

و نفس الموقف وقفه الشّاعر في رثائه لعبد العزيز آل سعود مشيرا أن مكّة رمز من رموز الوحدة الإسلاميّة :

و ما نـحن إلاّ إخوة رغم بيننا ∴ أشقّاء في الإسلام ما بيننا فرق

و قد يرتجى للشّرق جمع شتاته ∴ كما يرتجى للعبد من رقّة عتق[3]

---

[1] الديوان،ص 496.

[2] الديوان، ص 481.

[3] الديوان، ص 484.

و يوم تعرّضت مصر للعدوان الإنجليزي قام الشّاعر ليشاركها في آلامها و مشاعرها يشجّعها على الجهاد في سبيل استرداد الحقّ الضّائع :

أغـار على الكنانة شـرّ عاد ∴ فقل يا مصر حيّ على الجهاد

أعدّي كلّ بأسك و اسـتعدّي ∴ لـردّ الزّاحـفيـن بـلا اتئـاد

جنوا باسم الحماية منك حينا ∴ مـجـاني زودتهم خير زاد [1]

إنّ تعلّق الشّاعر بالعروبة جعله يتمنّى زوال الحدود و المسافات بين أجزاء الوطن العربي الكبير :

وطن العروبة كـلّ وطـن لنـا ∴ في مصر أو بغداد أو في الشّام

فـلـتحيى دولـة شعبنا عربيّة ∴ عـربـاء إسـلاميّة الأحكام

و ليزدهر وطن العروبة و ليدم ∴ مجد العـروبة فـيه و الإسلام [2]

و إنّ حبّ الشاعر للشرق و تعلّقه به جعله يبدي النّصح لهذا الأخير فيحذّره من الغفلة و الانخداع بوعود الغرب الكاذبة و يدعوه إلى اليقظة و الانتباه :

يا شرق خذ حذرك من جيرة ∴ هاموا بحبّ الجور مذ هيمنوا

يبدي لك الغـرب رؤى حلوة ∴ و تـحـتـهـا يبطن ما يبطن [3]

و يرى الشّاعر أنّ البلاء إنّما فشا في البلاد العربيّة بسبب سكوتها عن الحقّ ممّا سمح للفساد أن يعمّ و للظّلم أن يستفحل، و من ثمّ كان لا بدّ للوطن العربي من ثورة عارمة تطهّر أجواءه من الأمراض و الرّواسب و تقاوم الاستعمار و الفساد معا :

---

[1] الديوان، ص 344.

[2] الديوان، ص 244.

[3] الديوان، ص 297.

و من الشّرق أمّة غلب الصّمـ ∴ ـت عـلـيـها فـعمّ الفساد

ساد فيها الهوى و لو لم تفرّط ∴ في التّواصي لساد فيها السّداد[1]

و يجعل الشّاعر من الوحدة هدفا منشودا و مصيرا محتوما [2]، نلاحظ هذا في قصيدته "العروبة أمّنا الكبرى"[3]:

ما نحن إلاّ أخـوة من أسرة ∴ كرمت أرومتها و طاب المحتد

الملّـة السّـمـحاء آصرة لنا ∴ فوق الأواصر، و العروبة مولد

هـيهات تقدر أن تفرّقنا يد ∴ والله يـجـمع شملنا و محمّد

إنّ العروبة أمّنا الكبرى الّتي ∴ في الأمّـهـات نظيرها لا يوجد[4]

هذا بضع من الأشعار الّتي نظمها محمد العيد حول الوطن العربي و هي قليل من كثير أو غيض من فيض إذ من الصّعوبة بما كان الإلمام من خلال فصل واحد أو بالأحرى جزء منه الإلمام بجميع القصائد الّتي نظمها محمد العيد حول الوطن العربي و الّتي إن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على روح القوميّة العربيّة الّتي رافقته في جميع مراحل حياته، "فقد ظلّ بصره و سمعه مشدودين دائما إلى ما يحدث في الوطن العربي من مستجدّات و أحداث فكان يهلّل لكلّ انتفاضة تدفع الجور، و لكلّ ثورة تمحو الظّلم و العار و الاستبداد"[5].

---

[1] الديوان، ص 118.

[2] ينظر: عبد الله ركيبي، قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، مرجع سابق، ص 22.

[3] الديوان، ص 226.

[4] الديوان، ص 229.

[5] عمر بن قينة، صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، مرجع سابق، ص 350.

و لئن كان الشّاعر مهتمّا بقضايا الوطن العربي فإن ثمة قضيّة كان لها حصّة الأسد في أشعاره، فقد شغلت باله و قلبه فجعل يعبّر عنها و يسهم في توعيّة الجماهير بها ألا وهي القضيّة الفلسطينيّة و قد اعتبرها الشّاعر واقعة من وقائع العصر الحديث و تحوّلا سلبيّا في تاريخ العرب و المسلمين الذّين فرّطوا في حماية حمى فلسطين .

و هكذا كانت للقضيّة الفلسطينيّة مكانة في شعره بدءا بثورة 1936 إلى حرب1948 و ما خلّفته كلّ منهما من جراح و تشريدو اغتصاب.

إن ثورة 1936م كادت أن تقضي على النّفوذ البريطاني و الوجود الصهيوني ممّا جعل بريطانيا تتكّل بالأحرار من أبناء فلسطين بعدما شعرت بالخطر، و قد أدرك الشّاعر أنّ يد بريطانيا وراء كلّ مؤامرة تعرّضت لها فلسطين فكتب قصيدته"بني التايمز"يهاجم فيها الإنجليز و يتحسّرعلى ما حلى بأولى القبلتين:

بني التايمز قد جرتم كثيرا ∴ فهل لكم عن الجور ازدجار
أفي أسواقكم نصبا و غصبا ∴ تسوم القبلة الأولى التّجار
إخال القبلة انسجرت دماء ∴ كما للبحر باللجج انسجارا [1]

و قد استغلّ الشّاعر هذه المناسبة ليشحذ العزائم و يثير الشّعب الجزائري ليشارك في المعركة بشتّى الوسائل و عندما دعت "لجنة بيل" إلى التّقسيم كحلّ وسط - برغم مقاومة الشّعب الفلسطيني و استنكار العرب - حزّ هذا في نفسه و تألّم من المشروع المبيت، و شعر بالخطر على القدس التي يقدّسها و يحمل لها في نفسه تقديرا خاصا فوقف يدافع عن حقّ العرب الشّرعي في فلسطين مدينا لجنة التّقسيم الجائرة :

---

[1] الديوان، ص 374.

يا قسمة القدس أنت ضيزي ∴ لم يعدل القاسمون فيك

مضوا على الحيف لم يبالوا ∴ بما جرى من دمّ سفيك

القدس للعرب من زمان ∴ لن يقبلوا فيه من شريك

قد سامه الأجنبي خسفا ∴ و هدّ من ركنه السّميك [1]

و لا تبرح فلسطين خواطر الشّاعر و أحلامه، فهو بذكرها في كلّ مناسبة، فها هو يستقبل العام التالي للمأساة بالشّكوى ممّا وقع في سابقه، و هو يناجي هذا العام [2] و يستنطقه عن مستقبل فلسطين في نغمة شجيّة :

سيمت فلسطين خسفا ∴ عجّ الحمى عنه عجا

هذا عن الأهل أقصي ∴ و ذاك في السّجن زجا

و في الشّمال هنات ∴ يمجها الذّوق مجّا [3]

و يربط الشّاعر أثناء حديثه بين حالة فلسطين بين ما يجري من مآسي في المغرب العربي و يستنكر لردّ فعل العرب أو الشّرق الّذي حاد عن الطّريق اسّويّ و أخذ يلهو و يلعب و يترقّب خيرا من الغاصب.

و يتوجّه بحديثه في ختام القصيدة إلى ذلك العام و هو متيقن أنّه لا رجاء منه لأنّه كالطّفل لا يفصح عمّا يجول في خاطره :

يا عام أشبهت طفلا ∴ بالأبجدية هجا

---

[1] الديوان، ص 314، و ينظر : د. صالح خرفي ، الجزائر و الأصالة الثورية، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ص 49.

[2] عام 1938 م

[3] الديوان387.

و يلتفت الشّاعر إلى الجزائر يحثّها أن تقف بجانب فلسطين و أن تثور لشعب عربي جريح، و عرض منكود :

هلا أغثت القدس منك بلفتة غيرى على شعب هناك مروع

القبلة الأولى تضجّ و تشتكي ∴ من قسمة المستأثر المستنفع

ضمّي احتجاجك لاحتجاج حماتها ∴ و استنكري تقسيمه و استفظعي[1]

و يرفع صوته في وجه الصّهاينة و من لفّ لفهم من المستعمرين ليؤكّد عروبة فلسطين منذ الأزل و يبرز مكانة القدس الشريف من الديانات السماوية [2] قائلا :

قل لابن صهيون اغترت فلا تجر ∴ إن ابن يعرب ناهض للثّأر

القدس لابن القدس لا لمشرد ∴ متصهين و مهاجر غدّار

يا لجنة التّقسيم حدت عن الهدى ∴ و سخرت منه فبؤت بالإنكار

القبلة الأولى الّتي استصغرتها ∴ هي للعروبة قبلة الأنظار

موسى و عيسى و الأمين محمد ∴ سيطالبنوك بالنجيع الجاري

سيسجّل التّاريخ كلّ صغيرة ∴ و كبيرة بوثائق الأسفار[3]

إنّ هذه المقطوعة تنضح حقد و تفيض مرارة على الصّهيونيّة الجائرة، و لن نستغرب موقف الشّاعر هذا إذا علمنا ما للقدس من مكانة في قلوب العرب فهي قبلتهم الأولى و هي رمز وحدتهم و قوّتهم و فخارهم، و هي مجمّع الأنبياء الأبرار[4] .

---

[1] الديوان، ص 147 .

[2] الثقافة، مجلة، ع 86، ص 163، د. زكريا محمد، شعر محمد العيد بين فلسفة الإصلاح و روح الثّورة .

[3] الديوان، ص 330، و ينظر : صالح خرفي ، الجزائر و الأصالة الثورية، مرجع سابق ص 50 .

[4] ينظر : سعد الله، شاعر الجزائر، محمد العيد، مرجع سابق، ص 195 .

و إنّنا لنستلهم قوّة العزيمة و الإصرار على التمسك بالأرض و القومية العربية في قصيدة "فلسطين العزيزة" الّتي يشيد الشّاعر من خلالها بخصائل العرب و شجاعتهم و بروح النجدة المتأصّلة فيهم، و أنّهم لن يتوانوا عن الوقوف إلى جانبها ضدّ الصّهاينة [1]:

فلسطين العزيزة لا تراعي ∴ فعين الله راصدة تراعي

و حولك من بني عدنان جند ∴ شديد البأس يزأر كالسباع

و إذا استصرختَه للحرب لبّي ∴ و خفّ إليك من كلّ البقاع

يجود بكلّ مرتخص و غال ∴ ليدفع عنك غارات الضّباع

بليتي بهم صهاينة جياعا ∴ فسحقا للصّهاينة الجياع

ستكشف عنهم الهيجاء سرّا ∴ و ترميهم بكلّ فتى شجاع [2]

و يتحدّث في معرض كلامه عن العبرانيين و ما جبلوا به من جبن و خداع مقارنا إيّاهم بالعرب الشّجعان ليلتفت بعد ذلك إلى فلسطين في اندفاع و حماس

فلسطين العزيزة لا تخافي ∴ فإنّ العرب هبّوا للدّفاع

و يعرض الشّاعر للقضيّة الفلسطينيّة بعد نكبة 1948 ليتحدّث عن اللاجئين الفلسطينيين و أن اليد الصّهيونيّة هي السّبب في تشرّدهم و ضياعهم [3] و أنّه لا بدّ أن تغادر فلسطين إنّ طوعا أو كرها :

سنرى فلسطين العزيزة مثلما ∴ كانت مثابة حرمة و ذمام

و نرى بني صهيون منها قد جلوا ∴ بالطّوع إن شاءوا أو الإرغام

---

[1] ينظر : عبد الله ركيبي، قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، مرجع سابق، ص 59.

[2] الديوان، ص 334.

[3] المرجع السابق، ص 62.

و اللاجئين بها ثووا و استمروا ∴ عيش الحضارة بعد عيش خيام

و هكذا فإنّ شعر محمّد العيد نقل لنا بصورة صادقة الحياة السّياسية الّتي كانت تعيشها فلسطين قبل و بعد نكبة 1948 م.

ب- الإسلام و المسلمون :

كثر ذكر الإسلام في الشّعر الجزائري عامّة و في شعر محمد العيد على وجه الخصوص، فقد استحوذ العالم الإسلامي على مساحة كبيرة من ديوانه، و نحن نعلم أنّ الشّاعر نشأ و ترعرع و أينع ثمره في مدرسة القرآن الكريم و تأثر بتعاليمه قولا و عملا حتّى أطلق عليه لقب "شاعر العروبة و الإسلام" [1].

و إذا سئل الشّاعر عن دينه و أرضه فسيكون جوابه كالآتي [2]:

فقلت لهم أرض العروبة موطني ∴ و ديني هو الإسلام و القدوة النبيّ

وتربأ به آصرة الدين و الوطن بأن يبالي إزاء أي خلاف بينك و بينه :

إذا كنت في ديني و في وطني أخا ∴ فلست أبالي أن تخالف مذهبي

و هكذا نرى الشّاعر ينطلق من دائرة التّراث الجزائري مرورا بدائرة أوسع هي دائرة الوطن العربي إلى دائرة أكثر اتساعا و شمولا هي دائرة العالم الإسلامي، و هو ينادي بنهضة علميّة تنطلق من تراثنا العربي و الإسلامي، فتتّخذ من معالم أصالتنا العريقة نبراسا تهتدي به الأبناء و تتطلّع إلى رحب الآفاق العصريّة فتتفاعل مع أحدث المخترعات و المعطيات [3].

---

[1] أطلقه عليه الشيخ، البشير الإبراهيمي.

[2] ينظر : د. نور سلمان ، الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرير مرجع سابق، ص 342.

[3] الثقافة، المجلّة، الجزائر، العدد 86، رجب 1405 هـ، 1985 م، ص 151.

و ليس من الغريب في شيء إن رأينا الشّاعر يولّي وجهه دوما شطر الإسلام و تعاليمه فقد عرفناه من دعاة الإصلاح و "كانت الحركة الإصلاحية تربط قضايا الفكر و الثّقافة و الأدب بالدّين الإسلامي دوما"[1].

و هكذا فإنّ الشّاعر لم يقف عند حدود العروبة بل تعدّاها إلى دائرة أوسع و أرحب و هي الإسلام، و إنّ هذه العاطفة الدّينيّة الّتي طوّحت إلى أبعد من المشرق العربي كانت باعثا له على التّجاوب العاطفي الفوري مع الأقطار الإسلاميّة في آلامها و آمالها. على أنّه لا يمكننا الفصل في شعر الشّاعر بين كلا القطبين العروبة و الإسلام. فقد كان يصرّ دائما على التّلازم و التّلاحم بينهما، و قد يحدث أن يمزج في القصيدة الواحدة بين الشّعور العربي و الإسلامي فهو لا يفهم عروبة بدون إسلام و لا يرى وزنا مؤثّرا لمسلم بدون تآزر عربي.[2]

و هو حين يلتفت إلى الشرق ليدعو أبناءه للاعتصام بحبل الوحدة و الأخوّة العربيّة يطالبه بالاحتكام إلى الدّين الحنيف لإطفاء نار الخلافات و القضاء على الطّائفيّة و المذهبيّة الضّيّقة[3]:

يا بني الشّرق عصمة بالتّآخي ∴ فالتّآخي مذبة للنّفور

حكموا الدّين في الطّوائف و ابنوا ∴ دوركم بالرّجال لا بالصّخور[4]

و بنفس الأسلوب التقريري المباشر يحثّ الشّاعر المسلمين على إحياء دين الله و يهيب بهم أن يعملوا بأحكام الدّين و يتمسكوا بحبل الله أن هم أرادوا الإرتقاء بين الأمم:

بني الإسلام هذا يوم ذكرى ∴ معطّرة على مرّ العهود

---

[1] محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 62.

[2] ينظر: عمر بن قينة، صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، ص 354.

[3] ينظر: سعد الله، شاعر الجزائر، محمد العيد، مرجع سابق، ص 196.

[4] الديوان، ص 106.

سلوا التاريخ عن أزكى رسول ∴ رؤوف في الكتاب بكم ودود

و عن دين أقام العدل ركنا ∴ و أعلى بنده فوق البنود

فهل للمسلمين اليوم عود ∴ إلى ما ضاع من شرف الجدود

و هل لرجالهم عزمات صدق ∴ إلى الأقداح تقدح كالزنود ؟

بني الإسلام أحيوا الدّين أحيوا ∴ شعائره و أوفوا بالعقود

فدين محمّد دين الترقّي ∴ و مجد محمّد مجد الخلود[1]

و لأنّ دين محمد – صلّى الله عليه و سلّم – دين مجد و ترقي نجد الشّاعر يدعو قومه إلى ن يتّخذوا من شريعتهم دستورا يلجأون إليه في مختلف الأمور و القضايا :

و اجعلوا الدّين رائدا و إماما ∴ ليس كالدّين رائد و إمام

كلّ ما يشرّع ابن آدم يفنى ∴ و لما يشرع الإله الدوام

سوف تهوي مبادئ الكفر صرعى ∴ فانيات و يخلد الإسلام[2]

و كأنّ بالشّاعر قد تفطّن إلى ما يحيكه المحتلّ من مكائد ضدّ الإسلام و المسلمين عن طريق نفث السّموم في عقليّة الشّباب الجزائري و محاولة إبعادهم عن دينهم مستهدفا بذلك إضعاف إحساسهم بشخصيّتهم و تعطيل قواهم و هو الشّيء الّذي يريد الشّاعر تفاديه و لن يجد إلى ذلك سبيلا إلاّ التمسّك بما هو خالد و درء ما هو فاني. و يخصّ الشّاعر ناشئة الأمّة بنصائحه إيمانا منه أنّها قواها الحيّة و دعامتها الأساسيّة في بناء المستقبل[3] و هو يصرّ

---

[1] الديوان،ص200

[2] الديوان، ص 180 .

[3] ينظر : محمد بن سمينة، محمد العيد، شعره الإسلامي، ص 164 .

إصرارا شديدا في حثّهم على التّمسّك بدينهم مبيّنا لهم علوّ شأنه و سموّ مكانته حتّى يقوّي عزائمهم و يضاعف تمسّكهم بأصالتهم :

أنت من عنصر الخلد لباب ∴ كن إلى المجد طامحا يا شباب

تتمنّى بالدّين أن تتحلّى ∴ من تحلّى بدينه لا يعاب

إنّما الدّين لليوث عرين ∴ لا تغرنك بالعواء الذئاب

إنّما الدّين من المبادئ رأس ∴ المجد منها و غيره أذناب [1]

إنّ رسالة الشّاعر عند محمد العيد تتوافر على أهداف قيمة و أبعاد كريمة فهو يستشعر أهميّة الكلمة في توجيه الأمّة، فواجبه كمسلم أن يتحسّس مواضع الضّعف في أمّته و يرشدهم إلى تجنّب أخطارها [2].

بني الإسلام خلوّ الضّعف إنّا ∴ إلى الإسلام نعزى دون فرق

عدمنا الرّشد في الدّنيا كأنا ∴ فلول معارك و غواة طرق

و لو أنّا على الحقّ أتّفقنا ∴ لكنّا قادة الدّنيا بحقّ

ألسنا بينهم خير البرايا ∴ سماحة ملّة و زكاء عرق ؟ [3]

و إيمانا من الشاعر بأنّ جماعة الإصلاح هم السّبيل الوحيد إلى خلاص هذه الأمّة، و أنّهم قوام نهضتها يخصّهم بالحديث و يوجّه خطابه إليهم حاثا إيّاهم على إقامة صرح النّهضة على أسس من مبادئ الدّين :

يا وفد لا تنم اللّيا ∴ لي في رباطك لا تنم

---

[1] الديوان، ص 259.

[2] ينظر : مجلّة الثقافة، ع 86، 155.

[3] الديوان، ص 84.

أجد المعارف فهي في الدّ ∴ نيا موازين القيم

و أشد على الإسلام أر ∴ كان الفخامة و العظم

دين السّماحة في الفرا ∴ ئض و العدالة في القسم

دين اشتراع الصّالحا ∴ ت و دين إيفاء الذّمم

دين المرافق و المرا ∴ شد و المكارم و العصم

فامنعه من كلّ الأذى ∴ منع الضّراغم للأجم

و إرفعه باسمك هاديا ∴ رفع المنارة للعلم [1]

فالشّاعر يعتبر إذن الشّريعة الإسلاميّة الأساس في بناء النّهضة الوطنيّة لما تزخر به من فضائل و محاسن لهذا نجده ينبّه أصحابه و يدعوهم للتّصدي لكلّ ما كان يحاك ضدّ الإسلام من مكاره قصد النّيل منه.

و نفس الوعي نلحظه لديه حين نتصفّح قصيدة "يا وادي السان"، تلك القصيدة الّتي تنم عن تفطّنه بما تحيكه السّياسة الفرنسيّة من مكائد ضدّ الشّعب الجزائري [2]، فكلّ إجراء لا يخدم الشّخصيّة و العقيدة الإسلاميّة إنّما هو إجراء مرفوض :

قد ائتمرنا فبيّنا رغائبنا ∴ جميعها فأجب عنها بتبيان

و كلّ برنامج في خير ملّتنا ∴ و جنسنا فهو مقبول بشكران

شريعة الله أولى في الشّرائع أن ∴ تمتاز عنها بتفضيل و رجحان

و كيف ننسخ أو ننسى شريعته ∴ و نحن أمّة إسلام و إيمان [3]

---

[1] الديوان، ص 100.

[2] من بين تلك المكائد تلك الإصلاحات المزعومة و الّتي لن تتحقّق إلا بمقابل التّنازل على الشّخصيّة الإسلاميّة.

[3] الديوان، ص 316.

و في عام 1938 م نظم الشّاعر مقطوعته "يا وفد سائل فرنسا" في توديع وفد المؤتمر الإسلامي الذّاهب إلى فرنسا حاملا إليها مطالب شعبه. و هو يحث الوفد ليكون أحسن ممثل لشعبه، و يحضّه على رفض كلّ برنامج يكون من شأنه المساس بعقيدته [1]:

يا ابـن الجـزائر كن مستوفر الحذر ∴ فإن قانونك الشّخصي في خطر
اللّجنة [2] اقترحت بالأمس و اقترعت ∴ فـارفض بها كلّ رأي سيّء الأثر
يا وفد سائل فـرنسـا عـن مطالبنا ∴ إلى متى هي تحت البحث و النّظر
لا تـرضـى للـدّين لامحوا و لا غررا ∴ تنزّه الـدّين عن محو و عـن غـرر [3]

إنّ إيمان الشّاعر بما تفيض به الشّريعة الإسلاميّة من مبادئ و قيم و حرصه على الإفادة منها، و شعوره الدّائم بما يرمي إليه المحتلّ من مسخ للعقيدة قصد النّيل منها، كلّ هذا جعله يعنى في جانب كبير من شعره بالتّمكين للعقيدة الإسلاميّة مبيّنا تعاليمها السّمحة و مقاصدها الشّريفة، و نظرا لاهتمامه الدّائم و المتواصل بهذا الموضوع فقد نجد أبياتا كثيرة حوله مبثوثة في ثنايا مجموعة كبيرة من قصائده و هي من الكثرة بحيث لا يمكن الإلمام بها جميعها فقد لا يتّسع "المقام لذلك و على كلّ فإنّ تلك النّفحات الإسلاميّة موجودة في جلّ أشعاره بما أنّ الشّاعر ظلّ طوال مراحل حياته يدعو إلى العقيدة، يبرز محاسنها و يحثّ على الاعتصام بها.

و كان الشّاعر يذود عن حمى الإسلام و يدفع عنه كيد الشّانئين على اختلاف ألوانهم من صليبيّين حاقدين، و من منحرفين مضلّلين، و لعلّ من أقدم الإشارات في شعره ما ورد في قصيدة "صدى الصّحراء" و فيها يتحدّث عمّا تعرّض له الإسلام من أذى، يقول :

---

[1] ينظر : محمد بن سمينة، محمد العيد شعره الإسلامي، مرجع سابق، ص 162.

[2] يعني بها اللّجنة الّتي ركّنتها حكومة الجبهة الشّعبية بفرنسا و تمّ إرسالها إلى الجزائر للتحقيق في المطالب الجزائرية.

[3] الديوان، ص 319.

أفيقوا فهذ الدّين بين ربوعكم ∴ تنازله الأحداث شرّ نـزال

تحـاول نكباء الضّلالة نسفه ∴ و ترميه أشلاء الرّدى بنبال

فقوموا مقامات الدّفاع حياله ∴ ليأمن هذا الدّين كلّ ضلال [1]

و يتصدّى الشّاعر في قصيدة "دعاة إلى الحسنى" لبعض المناوئين للإسلام من أمثال كولنبوا و بيشير الّذين استهدفا النّيل من الإسلام و المسلمين:

بالأمس كولنبو أوراها كمثل لظى ∴ و اليوم بشير أجراها كمثل دم

شـنّوا على أمّة الإسلام غارتهم ∴ فما جنت أمّة الإسلام في الأمم [2]

إنّ ما نلحظه في شعر محمّد العيد أنّه لم يبادل أولئك المتعصّبين تعنّتهم و تعصّبهم و لم ينزل إلى المستوى الّذي انحدروا إليه بل على العكس فقد أبدى روحا من التّسامح تدلّ على تشبّعه روح الدّين الإسـلامي الّـذي يمقـت التّعصّـب و يحـثّ علـى التّسـامح و هـو مذهـب الحركـة الإصلاحيّة عامّة [3].

و هكذا نرى أنّ الشّاعر كان يقف دوما بالمرصاد في وجه أعداء الدّين، الصّليبيّين منهم و المارقين على حدّ السّواء، خاصّة بعد أن تمادى أولئك المدجّلون في غيّهم إلى حدّ جعلهم يتطاولون على دعاة الإصلاح و يحاربونهم و لا أدل على ذلك ممّا تعرّض إليه الشيخ عبد الحميد بن باديس من محاولة اغتيال أسالت الكثير من الحبر ،فقد إستاء المجتمع الجزائري كلّه من تلك الجريمة النّكراء، وهبّ الكتّاب و الشّعراء يشجبون جناية المشعوذين و يهنّؤون الشّيخ بسلامة

---

[1] الديوان، ص13

[2] الديوان، ص 102 .

[3] ينظر : محمد بن سمينة، محمد العيد شعره الإسلامي، مرجع سابق، ص 174 .

النّجاة[1] . و كان على رأس هؤلاء الشّاعر محمد العيد الذّي يعد أوّل من تصدّى لأولئك المجرمين في مواجهة صريحة ندّد من خلالها بما أقدمت على ارتكابه الأيدي الآثمة في حقّ الإصلاح و المصلحين.

إنّ موقف هؤلاء المشعوذين من زعيم الإصلاح جعل الشّاعر يغيّر من لهجته حين يخاطبهم و يعمد على غير عادته أسلوب التهكّم، يتهكّم بمن انحدر إلى الانحراف في الفكر و الفساد في السّلوك، و من عزف عن العمل الصّالح و زهد في طلب العلم النّافع، ولفّق الأباطيل ضدّ الإصلاح و أهله :

و من اللّسن في المجامع و الأقـ ∴ ـلام في الصّحف شر طعم و طعن

و فشا الدّجل فالولاية دعوى ∴ كلّ ذي سبحة تطول و ذقن

و غلا القوم في الوليّ فظنّوا ∴ أنّه كالإله يغني و يقني

و أبوا كوثر العلوم عطاشا ∴ طمعا في ورود علم لدني[2]

و يحزّ في نفس الشّاعر ما يراه من تناحر و تباغض بين الطّائفتين فيدعوهما للاحتكام إلى شريعة الله و سنّة رسوله لأنّ الاحتكام إلى سواهما بدعة و مفسدة :

و أفجّر أعداء البلاد خصومه ∴ أقارب تستعدي عليها الأباعدا

عذيري من ذي عادة وثنيّة ∴ يحيل على الإسلام فيها الشواهدا

هلّم إلينا أيها الخصم نحتكم ∴ إليه و نستعرض عليه العوائدا

فما كان منها سنة كان صالحا ∴ و ما كان منها بدعة كان فاسدا[3]

---

[1] المرجع نفسه،ص176

[2] الديوان، ص 111 .

[3] الديوان ،ص96

و يؤكد الشّاعر أن لا هدنة و لا سلام إلا تحت راية السنّة النبويّة الشّريفة مذكّرا أنّ أنصار الحقّ و دعاة الإصلاح يعتبرون حماة لها:

و لا صبح إلا سنّة نبويّة :. فمحص بها الآراء و أجل المقاصدا

و حولك أسياف لها و أسنة :. تقارع عنها المحدثات الزوائدا

رجالات إخلاص لها و مبرّة :. بها و ذووا عزم يدك الشدائدا

يريدون وجه الله فيما تسنّنوا :. به لا يريدون الرُّشى و الفوائدا[1]

و يحتد الصراع بين المصلحين و الطّرقيين و يشتد ، و لا سيما بعد تأسيس جمعية العلماء ،و قد تفطّن الشاعر إلى ذلك فجعل يهيب بالعلماء المصلحين إلى استخدام الحجّة و المنطق في معالجة الأمور:

في الأمر التواء غير ذي خطر :. فعالجوا الأمر بالآراء يستقم

سوقوا البراهين ما خفّت بكم تهم :. إن البراهين لا تبقى على التهم

نحن الدعاةإلى الحسنى فما أحد :. منا بمجترح للشر مجترم

ثمّ ما يلبث يلتفت إلى خصومهم يدعوهم إلى الصلح و الإحتكام إلى كتاب الله:

يا من تلمس من عاداته حكما :. أخطأت ليس سوى القرآن من حكم

الصلح خير و أحرى أن يلاذ به :. ما لم تدس حرمات الله بالقدم[2]

و يتوجّه الشّاعر إليه سبحانه و تعالى يشكوا له حال هؤلاء القوم و ما هم عليه من إصرار و عناد، و يطلب من الجميع أن يولوا وجوههم إلى الله راجين منه الهداية لمن كان ضالامبتدعا في دين الله، أو التعجيل له بما يشاء من وعيده ليكفي الأمّة و الدّين شرّه:

---

[1] الديوان ،ص 97.

[2] الديوان، ص 103

طال الشّقاق بنا يا قوم و افترقت ∴ منازع الهمّ فاستعصت عن الهمم

هيّا بنا نبتهل يا قوم قاطبة ∴ و نرفع الصوت بالشكوى و نحتكم

يا ربّ من كان في الإسلام مبتدعا ∴ منّا فوفّقه للإقلاع و الندم

أولًا فعاجله و اكف الشّعب فتنته ∴ بما تشاء من الآيات و النقم[1]

و في موضع آخر يشيد الشّاعر بصمود العلماء المصلحين في جهادهم و استمرارهم فيه، و في مقابل يصوّر تخلّي الطّرقيين عن المبادئ المرسومة و خروجهم عن منهجها فكان أن خسروا مكانتهم بين أبناء الأمّة :

طاب في ظلّك السّمر ∴ فازدهر يا أخا القمر

قد بلا الله من بلا ∴ فيك بالسّعي و اختبر

فتخلّى الذّي أبى ∴ و تحلّى الذّي صبر

أخسر النّاس صفقة ∴ نفر منك قد نفر

قد نوينا له الهدى ∴ ما نوينا له الغرر[2]

و يتمسّك الشّاعر بمبدإ الصلح و المسالمة القائم على مقابلة السيّئة بالحسنة و يطلب من جماعة الإصلاح أن يستمرّوا في نهجهم ذالك و أن يثبتوا عليه :

أيّها المسلمون لا ∴ تخفروا عهد من خفر

سالموا كلّ من طغى ∴ في الخصومات أو فجر

حسبنا في جهادنا ∴ أنّ من جندنا القدر[3]

---

[1] الديوان،ص103

[2] الديوان ،ص132

[3] الديوان، ص 134 .

و في قصيدة "هيهات يخزى المسلمون" يتحدّث الشّاعر عن الدّين و مزاياه، و يستهلّها بمعاني الحمد و الثّناء ، بحمد الله الّذي أغاث عباده بالحقّ، و يمدح له لزجره القويّ و حماية الضّعيف :

حمدا لمن في الحقّ غاث و غارا ∴ و لوجهه عنت الوجوه صغارا

و هو الغالب القهّار فمن ذا الّذي يستطيع أن يكيد له و كيده الأقوى و الأعظم و هو الّذي أنزل الأديان و بعث الأنبياء و جعلهم رحمة لعباده و اختصّ محمّدا بآخر الرّسالات فكان نبيّه المصطفى خاتم النّبيّين [1] .

بعد تلك المقدّمة الّتي أوردها الشّاعر و تحدّث فيها عن الله و الأنبياء و محمّد -صلّى الله عليه و سلم- و القرآن، ينتقل لينصح المسلمين بالصّبر و الصّمود لما يلاقوه من ظلم حتّى ينتصر الحقّ و يزهق الباطل، و يسوق لهم المثل و يقدّم الأسوة الّتي تتمثّل في حزب الله [2] :

هيهات يخزى المسلمون و دينهم ∴ علم الخلود يظلّل الأقطارا

قولوا لمن راش النّبال لصيده ∴ ألق النّبال فإنّ صيدك طار

و يعود الشّاعر ليومئ إلى الخلاف القائم بين أبناء الأمّة الواحدة :

وتنازع الإخوان هذا بالأذى ∴ يسطو و ذاك يريد منه الثّأرا [3]

و في سنة 1938 م نظم الشّاعر مسرحيّة بلال بن رباح ينتقد فيها بعض معتقدات العرب في الجاهليّة "ممّا يمكن اعتباره وجه من وجوه التّعريض بضلال أولئك المشعوذين و لونا من ألوان

---

[1] محمد مصايف، فصول في النّقد الأدبي الجزائري، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، 1981م، ط2، ص 15 .

[2] يريد بهم جماعة الإصلاح.

[3] الديوان، ص 133 .

التّنديد بدجلهم و خرافاتهم" [1] و قد غلب الشّاعر فيها ظاهرة الرّمز بحيث كان يميل إلى التّلميح أكثر من التّصريح .

و مجمل ما نستطيع قوله أن قصائدالشّاعر حول موضوع الإصلاح و الطرقيّة كانت تتّسم بالتعريض دون المجابهة و المسالمة دون العنف و لعلّ هذايرجع إلى طبعه الهادئ و مزاجه المعتدل و ميراثه الصّوفي و نشأته الدّينيّة و نزعته الإصلاحيّة [2] .

و إذا كان الشّاعر يغار على الإسلام و يخشى من كيد الكائدين له، و يدعو إلى التّمسّك بتعاليمه و العمل بمبادئه، فإنّ من دواعي فرحه و سروره أن يرى الإسلام ينتشر في شتّى أقطار العالم حتّي في باريس قلب المسيحيّة [3] .

يعرض الشّاعر لهذا كلّه في قصيدة "تحيّة المسلم الجديد بنوا على سليمان" الّتي خصّصها للحديث عن ملابسات إسلام الفنسي بنوا ، و قد جعل الشّاعر إسلام ذلك الفرنسي حجة تضحد زعم بعض المواطنين الّذين أغرّهم بريق الحضارة الغربيّة فتهاونوا في أمور دينهم و تنكّروا لكثير من تعاليمه، إنّ هذا اليوم – يوم أسلم بنوا – لشبيه بيوم زفاف بكلّ معاني الفرح و الابتهاج الّتي يحملها :

زفت إليك عرائس الإلهام ∴ فطرحت عنك بوالي الأوهام [4]

إنّه يوم فرح ذلك اليوم الّذي استطاع أن يتخلّص فيه بنوا من معتقداته و أوهامه الأولى، و كان ذلك بعد جهد جهيد و بحث عميق في مختلف الأديان السّماويّة :

---

[1] محمد بن سمينة، محمد العيد، شعره الإسلامي، مرجع سابق، ص 195 .

[2] ينظر : محمد بن سمينة، محمد العيد ، شعره الإسلامي، مرجع سابق ص 196 .

[3] ينظر: محمد مصايف، فصول النّقد الأدبي الجزائري، مرجع سابق، ص 23 .

[4] الديوان، ص 214 .

و بحثت في الأديان بحثا منصفا ∴ فجنحت بعد البحث للإسلام

هـــذا هو الكنز الدّفين كشفته ∴ ببـصيرة نفذت و فكر سامي [1]

و يشير الشّاعر في معرض حديثه إلى من سبق بنوا إلى الإسلام، بدءا بسلمان الفارسي و صهيب الرّومي و بلال الحبشي و وصولا إلى إتيان وجونسو و في هذا تأكيد على مدى انتشار الإسلام في شتّى بقاع المعمورة و عبر مختلف الأزمنة :

فالحقّ "اتيان و "جونسو" ∴ رفعة و كرامة و اخلد على الأيام

هذا هدى من قام مضطلعا به ∴ أمّ الرّجال و شمّ كالأعلام

"سلمان" فاق الفرس أجمعهم به ∴ و "صهيب" فاز به على الأروام

و "بلال" ساد به الأحباش ما ∴ دوّى الآذان بمطرب الأنغام [2]

لقد استطاع الشّاعر أن ينقلنا إلى عصور الإسلام الذّهبيّة ليعوذ بنا إلى المسلم الجديد و إلى التّرحيب به من طرف المسلمين أجمعين :

"بنوا" بنو الإسلام من أقطارهم ∴ حيّوك بالترحيب و الإعظام [3]

و هو يرى في إسلام علي بن سليمان حجّة على المغرورين بلمعان الحضارة الغربيّة :

إسلام "بنوا" حجّة قامت على ∴ أسرى العقول مضلّلي الأفهام

المسلمين السّاخرين بدينهم ∴ تبعا لمن كفروا من الأعجام [4]

---

[1] الديوان، ص 214.

[2] الديوان، ص 215.

[3] الديوان، ص 215.

[4] الديوان، ص 215.

هكذا نرى أنّ الشّاعر كان يهتمّ أشدّ الاهتمام بالعقيدة الإسلاميّة و قد نظم فيها فأفاض، و كان يتحيّن لذلك الفرص و يستغلّ المناسبات المختلفة و والمتعدّدة و كان في نهجه هذا ينهل من الثّقافة العربيّة الإسلاميّة و يدعو في الوقت ذاته العودة إلى نبعها الصّافي، و إنّ تأثّره بها لم يكن آنيا و إنّما تحوّل إلى ممارسة حقيقيّة فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من الثّقافة الإسلاميّة و من هنا جاز لنا اعتباره داعية يدعو الأمّة و يوجهها إلى التمسّك بمبادئ الدّين الحنيف.

ج- القرآن الكريم :

إنّنا إذا تحدّثنا عن العقيدة أو الشّريعة الإسلاميّة، فإنّنا لا محالة ذاكرون كتابها العظيم ومدى تأثّر الشّاعر به و استلهامه في شعره معنى و مبنى.

إنّ صلة محمد العيد بالمصحف الشّريف قديمة و قويّة، و في أخباره و أشعاره ما يؤكّد أنّه قضى العمر كلّه و بين يديه هذا السّفر الخالد يتدبّر مقاصده، و يتذوّق بيانه و يهتدي بهديه[1] يصرّح بذلك قائلا :

أنفقت وقتي في هدي ∴ فيه النّفائس تتّفق
أتذوّق القرآن قو ∴ ت انروح ما أتذوّق
أتلو الكتاب مصدّقا ∴ إنّ الكتاب مصدّق
لا سفر أعمر منه في ∴ شتّى العلوم و أعمق
لم لا أزاول درسه ∴ و أنا اللّبيب الأحدق[2]

و ازدادت عناية الشّاعر بالقرآن تطوّرا بعد اندماجه في الحركة الإصلاحيّة الّتي تبني دعوتها على الكتاب و السّنّة، و عليهما يقوم منهجها في الدّعوة إلى نهضة الأمّة. فها هو ذا يتوجّه

[1] ينظر: محمد بن سمينة، محمد العيد شعره الإسلامي، مرجع سابق، ص 166 .

[2] الديوان، ص 167 .

إلى الطّلاّب يمهّد أمامهم الطّريق للقيام بواجبهم نحو الوطن و كان على رأس ما دعاهم للاعتصام به القرآن الكريم ملفتا نظرهم إلى خطورة المكائد الّتي تحاك ضدّ قيم الأمّة و مقوّمات شخصيّتها على يد بعض الطّرقيّين المنحرفين، هؤلاء الّذين باعوا أنفسهم للعدوّ و عملوا على نفث سمومهم في صفوف الأمّة بقصد تنفيرها من الإقبال على فهم كتاب دينها و التّدبّر في معانيه :

يا معشر الطّلاّب هل من آخذ ∴ بالذّكر أو متمسّك بعصامه ؟

فتشرّفوا بالأخذ من آدابه ∴ و تعرفوا بجلاله و حرامه

و لكلّ شيء في الحياة أذيّة ∴ و أذيّة القرآن من أقوامه

عملوا على التّحذير من تفهيمه ∴ فكأنّهم عملوا على إعدامه

هجروا مبادئه العلى و تنكّبوا ∴ أحكامه و الخبر في أحكامه [1]

إنّ الشّاعر في أبياته هذه يضع يده على واقع تاريخي عاشته الجزائر طوال فترة الاحتلال إذ سمح المحتلّ لبعض الكتاتيب و الزّوايا أن تعلّم القرآن وفق منهج تعليمي لا يتجاوز تحفيظ القرآن إلى شرحه وتفسيره، فأصبح طلاّبها يتخرّجون منها و هم يحفظون القرآن دون أن يفهموا من مقاصده شيئا كبيرا [2].

و انطلاقا من هذا الواقع كان الشّاعر يركّز في دعوته إلى القرآن على وجوب تدبّره و فهم كنهه و معانيه، و هو في الوقت ذاته يدعو الأمّة إلى تنشئة الجيل على هديه حتّى يشبّ على قيمه و فضائله بوصفه الكتاب الوحيد الّذي يجمع بين الدّين و الدّنيا :

هلمّ بني قومي إلى الذكر نمله ∴ ففي الذّكر أخلاق سمت و مكارم

و لست أرى القرآن إلاّ مناجما ∴ أتدورن ما تحوي عليه المناجم ؟

---

[1] الديوان، ص 90 .

[2] ينظر: محمد بن سمينة، محمد العيد شعره الإسلامي، مرجع سابق، ص 169 .

على الدّين و الدّنيا وعليهما معا ∴ شهودا و غيبا فهو بالكلّ قائم

فـربّـوا عـلـيه النّاشئين تلح لهم ∴ بـه طـرق مـشروعه و معالم [1]

و يستمرّ الشّاعر يدعو إلى الإقبال على القرآن الكريم حتّى بعد أن عرفت بلاده نور الحرّية ففي قصيدة "الثّورة العظمى كسبنا نصرها" يعبّر الشّاعر عن استمراريّة في الدّعوة إلى العمل بدستور الإسلام، و هو إن حثّ الشّباب على تدارس القرآن فذلك خشية منه أن تطاله محاولات الاستلاب و الانحراف في ظلّ ما تستوجبه المرحلة من انفتاح على مختلف التّيّارات الوافدة على البلاد [2]:

يا مـعشر الطّلاّب هذا عهدكم ∴ فاسعوا لكسب المجد سعي عظام

فتدارسوا القرآن فهو هدي لكم ∴ و شفاء أنفسكم مـن الأسـقـام [3]

و ممّا تجدر الإشارة إليه أنّ ما كتبه الشّاعر حول القرآن الكريم يمتدّ على مدى فترة طويلة تبلغ حوالي أربعين سنة تبدأ في شبابه – في العشرينيّات – و تستمرّ معه إلى السّنوات الأخيرة من حياته– نهاية السّتّينات " و قد جاء ذلك في ثنايا قصائد عديدة نظمها بمناسبات مختلفة و لم تكن من بينها إلاّ اثنتان كان الحديث فيهما عن القرآن الكريم الدّافع الأساسي إلى نظمهما و هما (هذيان آشيل) و(ختمت كتاب الله)". [4]

في الأولى (هذيان آشيل) يتحدّث الشّاعر عن صراع رجال الإصلاح الدّائم ضدّ الجمود من جهة ، و ضدّ أعداء الإسلام من مستشرقين و متفرنسين من جهة ثانية و من بين هؤلاء

---

[1] الديوان، ص 137 .

[2] المرجع السابق، ص 170 .

[3] الديوان، ص 240 .

[4] المرجع السابق، ص 166 .

آشيل الّذي كان يتحامل على الإسلام و المسلمين مدّعيا أنّ القرآن كتاب مثير للحروب و عنوان على الهمجيّة و الكراهية [1]، فوقف الشّاعر يردّ كيده، و يضحد زعمه :

هيهات يعتري القرآن تبديل ∴ و إن تبدّل توراة و إنجيل

ثمّ ما يفتأ يردّ على زعم آشيل بقوله :

ما بال آشيل في الدّيبش يسخر من ∴ آيات محكمات لا كان آشيل

ما بال آشيل يهذي في مقالته ∴ كحاكم راعه في النّوم تخييل

ما بال آشيل يزري المسلمين و هم ∴ غرّ العرائك أنجاب بهاليل

إنّ الشّاعر يلحّ دوما على التّشابه بين زعماء الإصلاح في المشرق و زملائهم في الجزائر، فهو لا يرى في ردّ ابن باديس على المستشرق آشيل إلاّ انعكاسا لمواقف محمد عبده من المستشرقين هانوتو و برتيلو [2] يقول :

هذا ابن باديس يحمي الحقّ متئدا ∴ كذاك يتّئد الشمّ الأماثيل

إنّي أرى عبده المرحوم مندفعا ∴ ينحى على زعم هانوتو و برتيلو

عبد الحميد رعاك الله من بطل ∴ ماضي الشّكيمة لا يلويك تهويل

دمغت أقوال آشيل كما دمغت ∴ أبطال أبرهة الطّير الأبابيل [3]

و القصيدة كلّها دفاع عن الإسلام و كتابه المقدّس و منافحه عن الفكر الإصلاحي ضدّ خصومه [4].

---

[1] الديوان، ص 85.

[2] ينظر : صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 83.

[3] الديوان، ص 86.

[4] ينظر: عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري، ص 600.

أمّا قصيدة "ختمت كتاب الله" فكلّها إشادة بالشّيخ ابن باديس الّذي جعل حياته كلّها وقفا على خدمة الفكر الإصلاحي و كان منطلقه في ذلك القرآن و غايته دينا و دنيا غايات كتاب الله، فعاش حياته مفسّرا في المساجد و قد بدأ تفسير القرآن في أوائل 1332 هـ و اختتمه في 13 ربيع الثاني 1357 هـ.

فكان ذلك اليوم المشهود، يوم احتفلت الأمّة بالختم احتفالا عظيما عظمة القرآن في صدر الأمّة، و عظمة الإمام في نفسها [1]. يبدأ الشّاعر قصيدته مفتخرا و معتزّا بالشّيخ الإمام :

بـمثلك تعـتزّ الـبلاد و تفخر ∴ و تزهر بالعلم المنير و تزخر

طبعت على العلم النّفوس نواشئا ∴ بمخبر صدق لا يدانيه مخبر

يشير الشّاعر من خلال البيتين السّابقين إلى حقيقة تاريخيّة تتمثّل في تعليم النّاشئة بالجامع الأخضر و كانت الحركة الإصلاحيّة و على رأسها الشّيخ ابن باديس تسهر على أن تغرف من ينابيع الكتاب الصّافية، و تسير على هديه في تعليمها للشّباب .

و يلحّ الشّاعر أيما إلحاحا على التّشابه بين المشرق و المغرب في الاتّجاه الإصلاحي فالحركة الإصلاحيّة في المشرق كمثيلتها في المغرب تعمل على تفسير القرآن و معالجة الأوضاع المتردّية على هدي منه حتّى أنّ التّشابه بينهما يكاد يكون تناسخا أو بعثا جديدا لشخصيّة الأفغاني أو عبده في شخص ابن باديس [2] :

ختمت كتاب الله ختمة دارس ∴ بصير له حلّ العويص ميسّر

فكم لك في القرآن فهم موفّق ∴ و كم لك في القرآن قول محرّر

حكيت جمال الدّين في نظراته ∴ كأن جمال الدين فيك مصوّر

---

[1] الديوان، ص 161.

[2] ينظر: صالح الخرفي، الشّعر الجزائري الحديث، ص 85.

و أشبهت في فقه الشّريعة عبـده ∴ فهل كنته، أم عبده فيك ينشر

أعد يا ابن باديس الحديث و أبده ∴ بأنـعمك اللّاتي بها، أنت تؤثّر[1]

و يتعدّى الشّاعر تشبيه الشّخصيّات و المقارنة بينهما إلى المساجد و المعاهد الّتي شهدت و ثبات الاصلاح الدّيني و البعث الإسلامي، فالجامع الأخضر بقسنطينة وريث الجامع الأزهر في القاهرة :

فـيـا جامـعا مثل المنارة، لامعا ∴ تنور فيه الـحـقّ من تينور

وبـيـتا يـعـزّ الله، مـن بـفـنـائه ∴ يذلّ و يخزي الله مـن يتكبّر

همّي بك غيث لابن باديس هاطل ∴ فأنت به ريان كاسمك أخضر

أرى الأزهر المعمور فـيك مجدّدا ∴ كما كان يحميه المعزّ و جوهر[2]

كأنّك يوم الخـتـم في الأرض جـنّة ∴ مـفـتّـحـة، أنـهارها تتفجّر[3]

و يستغلّ العيد المناسبة على عادته استغلالا قوميّا سياسيّا حين يلتمس في المحفل أبعاده التّاريخيّة و جذوره القوميّة :

فيا محفلا، ما مـثـلـه اليوم محفل ∴ حوى معشرا، ما مثله اليوم معشر

أفيـدك بالـقـول الّذي ليس يفترى ∴ و أمحضك النّصح الّذي ليس ينكر

صل العرب العرباء، و احم لسانهم ∴ فإنّـك مـن أصـلابـهم تتحدّر[4]

---

[1] الديوان، ص 156 .

[2] المعز الفاطمي و جوهر الصقلي.

[3] الدّيوان، ص 158 .

[4] الديوان، ص 159 .

د- اللغة العربية :

إنّ اللغة "من أهم المقوّمات الّتي تكوّن شخصيّة أمّة من لأمم باعتبارها روح الأمّة و عبقريّتها، و مستودع تاريخها و حضارتها و وعاء مزاجها و مشاعرها"[1] .

فلا غرو إن وجدنا الشّعب الجزائري عامّة و الأدباء خاصّة يعتزّون بالعربيّة بوصفها لغة عقيدة المسلمين و لسان العرب و هي إضافة إلى هذا و ذاك المعبّر عن قيم الأمّة و المسجّل الأمين لتراثها، و ممّا زاد الأمّة العربيّة تعلّقا بلغتها و اعتزازا بها نزول القرآن الكريم بها، ممّا جعلها تجوب آفاق المعمورة بصفتها لغة الدّعوة و الحوار، تحمل للنّاس كافّة شريعة الإسلام السّمحة فأقبل عليها كلّ من دخل في هذا الدّين يتعلّمها بغية فهم تعاليم الدّين الجديد، فكان أن خرجت من محلّيتها الضّيّقة إلى عالميّة واسعة. و لكنّها ما لبثت أن تعرّضت إلى نكبات و محن كادت أن تقضي عليها لولا دستور الإسلام - القرآن الكريم - الّذي ظلّ يحميها و يدفع عنها الأذى، أليس هو القائل صدق من قائل "إنّا نحن نزّلنا الذّكرى و إنّا له لحافظون" .

و من أشدّ النّكبات ضراوة و أكثرها قساوة على اللّغة العربيّة الاحتلال الفرنسي الّذي كان يستهدف النّيل منها في إطار حملته الشّرسة للنّيل من شخصيّة الأمّة و لكن الشّعب الجزائري كان له بالمرصاد، فقد قاوم المستعمر دفاعا عن لغته مقاومة لا تقل عنفا و ضراوة عن مقاومته من أجل حريّة أرضه لهذا تّخذ الأدب الجزائري منها حدثا حيّا و مشكلة من مشكلات المجتمع [2]، و قد عمل على نشرها و إحياء تراثها و التّأصيل لها في النّفوس و العقول، و كان محمّد العيد في طليعة من دافع على لسان الأمّة.

---

[1] محمد بن سمينة، محمد العيد شعره الإسلامي، مرجع سابق، ص 299 .

[2] ينظر : محمد عباس، البشير الإبراهيمي أديبا، ص 123 .

و يركّز الشّاعر في دفاعه المستميت عن اللّغة على أصالتها و عراقتها، فهي إحدى المقوّمات الّتي تربط بين أبناء العروبة، و هي في الوقت ذاته أداة تعبّر عن ماضي الأمّة العربيّة و وحدة العرب [1]، و هي قبل هذا و ذاك حقّ من حقوق الشّعب الجزائري، حقّ مهضوم سلبتهم إيّاه يد الاحتلال حين قسمت اللّغة العربية في الجزائر ثلاثة أقسام مشوّهة . القسم الأوّل يمثّل اللّغة القديمة و هذه لغة جامدة أوميّتة لا يستعملها أحد، و الثّاني يمثّل اللّغة العاميّة و هي ليست أدبيّة أو علميّة. و الثّالث يمثّل اللغة الفصحى الحديثة و هي لغة أجنبيّة عن الجزائر لأنّ موطنها هو البلاد العربية،، و الجزائر ليست عربيّة[2].

بعد هذا التّقسيم الجائر، هبّ الشّعب الجزائري كلّه يطالب باعتبار اللّغة العربيّة لغة رسميّة[3]. فها هوالشّيخ محمّد البشير الإبراهيمي يردّ زعم الزّاعمين و كيد الكائدين معبّرا عن أصالة اللّغة العربيّة في الجزائر قائلا :

"اللّغة العربيّة في القطر الجزائري ليست غريبة و لا دخيلة، بل هي في دارها و بين حماتها، و هي ممتدّة الجذور مع الماضي، مشتدّة الأواخي في الحاضر، طويلة الأفنان في المستقبل، ممتدّة مع الماضي لأنّها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين ترحل مع رحيلهم و تقيم بإقامتهم، فلمّا أقام الإسلام بهذا الشّمال الإفريقي إقامة الأبد، و ضرب بجرانه فيه أقامت معه العربيّة لا تريم و لا تبرح، ما دام الإسلام مقيما لا يتزحزح، و من ذلك الحين بدأت تتغلغل في النّفوس و تتساغ في الألسنة و اللّهوات، و تنساب بين الشّفاه و الأفواه ."[4]

---

[1] ينظر : عبد الله ركيبي، قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، مرجع سابق، ص 22 .

[2] ينظر : سعد الله ، محمد العيد شاعر الجزائر، مرجع سابق، ص 116 .

[3] ينظر : محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1981، ص 352 .

[4] البصائر، سل2، ع 41، 1367 هـ، 1948 م، ص 1، محمد البشير الإبراهيمي، اللّغة العربية في الجزائر عقيلة حرة ليس لها ضرّة.

فهذا القول للإبراهيمي يدحض أباطيل المستعمر الّذي يزعم أنّ اللّغة العربيّة أجنبيّة، و هو نفس ما ذهب إليه محمد العيد حين طالب بردّ الاعتبار للّغة العربيّة لأنّها اللّغة الرّسميّة لا بديل لها، أليس هو القائل :

تحنّ إلى نيل الحقوق نفوسنا ∴ و تأبى علينا نيلها قوّة الغشم

و نقصى على الفصحى و نلهى بغيرها ∴ و ليس سوى الفصحى لسان لنا رسمي

و ما نحن إلاّ من سلالة يعرب ∴ فمن رام عنها فصلنا باء بالرّغم[1]

و هو القائل :

صل العرب العرباء و احم لسانهم ∴ فإنّك من أصلابهم تتحدّر[2]

إنّ الشّاعر لا يتوانى عن التّذكير بهذا المطلب المشروع كلّما سنحت له الفرصة، فها هو في قصيدة (يا معشر الطّلاب) يشيد بالعلم مبيّنا مكانته و يحثّ الطّلاّب على الجدّ و الاجتهاد في كسبه ليخلص بعد ذلك إلى حضّهم على العناية بلغتهم، بما أنّ حياتهم مرهونة بحياتها :

لا تهملوا هذا اللّسان ففقدكم ∴ في فقده و دوامكم بدوامه

فكأنّما هو عقد درّ فائق ∴ رصفا و علم النّحو سلك نظامه[3]

و في قصيدة (تحيّة و وصيّة) الّتي ألقاها بمناسبة الاحتفال بمدرسة الشّبيبة الإسلاميّة سنة 1935 م يحثّ قومه أجمعين على تأسيس المدارس و الإقدام على العلم، ثمّ يحضّهم على صيانة العربيّة و حمايتها لما لها من صلة بالقرآن الكريم :

بني وطني اعلوا المدارس تعلكم ∴ بتعليم جهال و إرشاد ضلال

---

[1] الديوان، ص 205.

[2] الديوان، ص 159.

[3] الديوان، ص 91.

و صونوا بها الفصحى الّتي بكتابكم ∴ أشادت ببرهان و ساغت كسلسال[1]

و يرسم الطّريق لأمّته في قصيدته و "يخلد الإسلام" و يساعدها على إخراجها من محنتها، و ذلك عن طريق الإشادة بالعلم و المعرفة، على أن يكون العلم بدينها و بلغتها في مقدّمة ما تعنى به. و حتّى يستقطب أنظار قومها إليها عمد الكشف عن مزاياها من روعة جمال و بديع بيان إلى جانب أنّها تستمدّ خلودها من خلود كتاب الله[2] :

علّموا أمّة الجزائر فالعلـ ∴ ـم دليل لخيرها و زمام

علّموها دينا من الله سمحا ∴ ليس فيه إصر و لا إرغام

و لسان حروفه نبرات ∴ مطربات كأنّها أنغام

أبديّا لا يعتريه فناء ∴ عربيّا ما شابه إعجام[3]

و يرى محمّد العيد أنّ الشّاعر هو أوّل الملزمين بالدّفاع عن مقوّمات شخصيّة أمّته، الشّيء الّذي جعله يخصّه بالنّداء و يحثّه للذّود عن مقدّسات الأمّة المداسة وأوّلها اللّغة العربيّة الّتي تغزى في عقر دارها، و ما كان جور المحتلّ عليها إلاّ لمعرفته الجيّدة بالرّابطة القويّة الّتي تربط بينها و بين القرآن الكريم فهي لسانه و هي المساعدة على نشر مبادئه و التّمكين له :

غر لشعب معذّب ∴ مستضام مفتن

و لسان غزته في ∴ أرضه جمّ ألسن

يبتغي الخصم دفنه ∴ تحتها شرّ مدفن

و هو عال مردّد ∴ في نداء المؤذّن

---

[1] الديوان، ص 127 .

[2] ينظر : محمد بن سمينة، محمد العيد، شعره الإسلامي، مرجع سابق، ص 300 .

[3] الديوان، ص 179 .

الـــقـــوانين حوله ∴ كالسّلاح المسنّن

و القرارات ضدّه ∴ مـــعلن إثر معلن[1]

ذنبه أنّ ســفـــره ∴ خالد منذ أزمن[2]

و قد يساور الشّاعر أحيانا بعض من الشّكّ حين يلتفت حوله فلا يجد من مظاهر العروبة غير بعض الأفكار المشعّة و الألسنة الفصيحة و كأنّها غريبة في أرضها فلولا هذه الألسنة و هذه الأفكار الّتي ما تزال في الجزائر لشكّ في نسبة الجزائر إلى العروبة :

حرت في عزونا إلى العرب لولا ∴ فكر خصيبة و لسن حداد[3]

و لعلّنا نجد بعض التّعليل لما يساور الشّاعر من شكّ في قصيدته "التّرحيب بالحجّاج" حين يتعرّض لظاهرة انصراف بعض المسلمين عن لغتهم و مردّ ذلك أنّهم وقعوا تحت مؤثّرات الاستلاب الثّقافي و اللّغوي الّذي كان يستهدف النّيل من الفصحى بالدّعوة إلى التّساهل في قواعدها و استبدال الحرف اللاّتيني بالحرف العربي حينا، و الإقبال على اللّهجة العاميّة المحليّة بدل الفصحى حينا آخر ممّا كان له الأثر في تراجع اللّغة العربيّة بين أبنائها لولا بعض اللّسن الحداد .

لهذا يعمد الشّاعر إلى تفنيد تلك الدّعاوي، مؤكّدا على التّمسّك بأصول الفصحى فالعربيّة لم تسم بين اللّغات إلاّ لما تتميّز به من فصاحة و بيان :

فإنّ لسان الضّاد لم يعز أصله ∴ ليعرب بين اللّسن إلاّ ليعربا[4]

---

[1] أخطر تلك الإجراءات قانون 8 مارس 1938، الّذي يعتبر اللّغة العربيّة أجنبيّة في الجزائر .

[2] الديوان، ص 323 .

[3] الديوان، ص 119

[4] الديوان، ص 196 .

و يوم يرتفع صوت الضّاد بصدور أوّل كتاب عربيّ [1] يهتزّ له الشّاعر طربا و يتغنّى به شعرا و يرى في صدوره متنفسا جديدا و أملا باسما يسمح للفصحى أن تفصح عن مكنونات قرن من الكبت و الخنق [2]، فيقوم يشيد بصاحبه قائلا :

قد عرفناك بالجزائر برّا ∴ يوم أحييت ذكرها الأبديا
يوم أحييت شعرها بعد أن لم ∴ يكن الشّعر في الجزائر شيا
كان بالأمس مودّع القبر ميتا ∴ كيف أخرجته من القبر حيا
عجب القوم من صنيعك لمّا ∴ جئتهم بالكتاب غضا طريا
جئتهم بالكتاب يحوي قريضا ∴ محكم السّبك متقنا عربيّا [3]

و بنفس الفخر الّذي تلقى به الشّاعر كتاب "شعراء الجزائر" و بنفس الاعتزاز يتلقّى خبر عرض أوّل فيلم عربي [4] بعاصمة الجزائر، فالاضطهاد الّذي عرفته لغة الضّاد في عقر دراها جعل انطلاقها في دار السينما عيدا من أعيادها و يوما مشهودا من أيامها . إنّ الكنانة و هي توفد هذا الفيلم إنّما كانت تمدّ الجزائر بسهم ترشف به عدوّ الضّاد :

و وعى النّاس ألسنا منك شتّى ∴ في مغاز علوية، ذات بال
و تجلّت فصحى اللّغات كشمس ∴ فحبّا كلّ كوكب متلالي
زانك الضّاد من لسان بديع ∴ أيّها الفيلم البديع الجمال
فهو وحي إلى شهودك يوحى ∴ من سماء الحجى و عرش الجلال

---

[1] الكتاب هو : شعراء الجزائر محمد الهادي السنوسي، طبع سنة 1927م.

[2] ينظر: صالح الخرفي، شعر المقاومة الجزائرية، مرجع سابق، ص 270.

[3] الديوان، ص 373.

[4] فيلم أنشودة الفؤاد، عرض بالعاصمة سنة 1934م.

و بـــدا الشّرق فيك للغرب مرعى ∴ للحضارات، مخصبا بالرّجال

حيّي قوما أبوا سوى الكشف عمّا ∴ أودع الشّرق من عظات عوالي

ناولـــونـــا مـن الكـنـــانـة سـهما ∴ و مـعـيـنـا من نيلها السّيال[1]

و إذا كان محمّد العيد قد حرص على أن يكون لمقوّمات الشخصيّة العربيّة الإسلاميّة مكان الصّدارة في شعره طوال مرحلة الكفاح الوطني، فإنّه لم يتوان عن مواصلة دربه في الذّود عن العربيّة و الحثّ على الإقبال عليها مؤكّدا على العلاقة القائمة بينها و بين القرآن الكريم و هدي الرّسول الشّريف – صلّى الله عليه و سلّم– [2] يقول :

ما مـلّـة الإسـلام إلاّ عصمة ∴ زكّى الإله بهـا الـنـذفوس و طهرا

هي ديننا الرّسمي فيه ضمانا ∴ في حكمنا و أمـانـنـا أن نكـفرا

و كتابنا الذّكر المـنزّل رحمة ∴ و لساننا الفصحى الغنيّة مصـدرا

لـغـة الـرّسول محمّد و كتابه ∴ و كفى فكلّ الصّيد في جوف الفرى[3]

و ما يلفت النّظر في شعر الشّاعر خلال تلك الفترة أنّه لم يعد يلحّ على درء الخطر عن اللّغة بما أنّ سبب ذلك الخطر قد ولّى و انقضى بعد أن أصبح أمر العربيّة في أيدي أبنائها[4] .

و قد أثار الشّاعر قضيّة التّعريب الّتي كانت يومئذ حديث السّاعة بالجزائر – معتبرا المعلّم طرفا أساسيّا في نجاحه، و هكذا يتوجّه إليه حاثا إيّاه على النّهوض برسالته التّربويّة و الوطنيّة :

---

[1] الديوان، ص 25 .

[2] المعرفة، العدد 3، فيفري 1964م، ص

[3] الديوان.

[4] ينظر : د . بن سمينة، محمد العيد : شعره الإسلامي، مرجع سابق، ص 303 .

أراك في حملة التّعريب قائدها ∴ فكيف تفشل من تثبيط خذال

أدّ الرّسالة ما واتك حاضرها ∴ و كن بمستقبل التّعريب ذا فال [1]

و ما نودّ أن نشير إليه في الختام هو أنّ الشّاعر حين كان يدعو إلى اللّغة و يلحّ على المطالبة بالحفاظ عليها لم يكن يريد الانغلاق و رفض الانفتاح على اللّغات الأجنبيّة بل العكس هو الصّحيح و قد ألمح بنفسه إلى هذا قائلا : "و لا ينبغي أن يفهم من هذا الكلام التّحذير من اللّغات الأخرى التي لها مزاياها التي لا تنكر"[2] غير أنّه يطالب بأن تحتلّ اللّغة العربيّة محلّ الصّدارة و الرّيادة حين يحثّ الشّباب على الاهتمام بها و إعطائها مكانها الحقّ لما تمتاز به من سمات متعدّدة فهي لغة القرآن الكريم و لسان هدي الرّسول العظيم (ص) و هي وعاء حضارة الإسلام و مستودع أمجاد العرب المسلمين، و هي إلى جانب هذا و ذاك تتمتّع بقدر كبير من الثّراء و المرونة و القابليّة على التّطوّر [3].

فيا نشأنا الشّرقيّ هيّا إلى العلى ∴ كوكب له فصحى اللّغات كرائد

لسان كتاب الله و المصطفى معا ∴ و مفخرة العرب الجدود و الأماجد

و كنز علوم الشّرق في عصر نهضة ∴ لنا سادت المعمور من غير جاحد

و لا ينكر الفصحى و حسن مرانها ∴ و وفر غناها غير خصم معاند

و حيّ على درس اللّغات و حفظها ∴ ففي حفظها قنص العلوم الشّوارد [4]

---

[1] الديوان، ص 504.

[2] المرجع السابق، ص 304.

[3] المرجع نفسه، ص 305.

[4] الديوان، ص 541.

الـــفصل الثالث

محمد العيد و الإصلاح الاجتماعي

ليس من اليسر حصر جميع القضايا الاجتماعية التي تناولها محمّد العيد في أشعاره، فهي من الكثرة التي لا تحصى، و لكن المؤكّد أنّه عمل بكلّ ما أوتي من رهافة إحساس،و صدق عاطفة، و شاعريّة فذّة على رسم لوحات نابضة معبّرة و هو حين يرسل قصائده في نغمة شجيّة حزينة لا يرسلها لمجرّد البكاء و التأسي و حسب، و إنّما يسعى من خلالها إلى نقد الواقع و إصلاحه، يرسلها ليدعو أبناء ملّته إلى اليقظة من سباتهم الطّويل و نبذ الجهل، و التحرّر من الجمود لذا فقد عمد إلى تقصّي أمراض مجتمعه واحدا واحدا، تلك الأسقام الّتي كانت تصدر عن نفس المنبع هو الجهل و التّخلّف، من أجل هذا ركّز محمّد العيد – و معه الفكر الإصلاحي – على هذه النّقطة بالذّات، فالأمّيّة و عدم العناية بالتّعليم إضافة إلى الابتعاد عمّا في القرآن و السّنة من هدي أدّى إلى ما يتخبّط فيه المجتمع من انحلال و اضطراب.

و قد يظنّ بعض النّاس، أنّ الإصلاح إنّما يعنى بالوجه التّعبّدي المنحصر في العبادة فقط [1]، و هو زعم أبعد ما يكون عن جادّة الصّواب و الواقع خير شاهد على ذلك . و لربّما نجد في هذا القول للشيخ البشير الإبراهيمي الردّ الشّافي و الكافي فهو لوحده كفيل بالردّ على كلّ من يشكّك في مقاصد الحركة الإصلاحيّة لهذا فقد أغنانا عن أيّ تعقيب، يقول :

" و يا ويح الجاهلين– أيريدون من كلمة الإصلاح أن نقول للمسلم قل : لا إله إلاّ الله مذعنا طائعا، و صلّ لربّك أوّاها خاشعا، و صم له مبتهلا ضارعا، و حجّ بيت الله أوّابا راجعا، ثمّ كن ما شئت نهبة للنّاهب، و غنيمة للغاصب، و مطيّة ذلولا للرّاكب، و إن كان هذا ما يريدون فلا و لا قرّة عين . . و إنّما نقول للمسلم إذا فصلنا : كن رجلا عزيزا قويّا، عالما هاديا، محسنا كسوبا معطيا من نفسك آخذا لها، عارفا للحياة سباقا في ميادينها، صادقا صابرا هيّنا إذا

---

[1] ينظر:د . محمد عباس، البشير الإبراهيمي أديبا،مرجع سابق، ص 86.

أريد منك الخير، صلبا إذا أردت على الشرّ، و نقول له إذا أجملنا : كن مسلما كما يريد منك القرآن و كفى. . . "[1].

إنّ مثل هذا القول يعبّر تعبيرا صادقا عن منهج الحركة الإصلاحيّة و منه منهج محمد العيد -باعتباره أحد دعاة الإصلاح - و الّذي اعتمده في معالجته لقضايا المجتمع المختلفة.

إنّ المتتبّع لشعر الشّاعر سيجد أنّ مداره هو المجتمع الجزائري بمشكلاته الاجتماعية المختلفة ف "بين محمّد العيد و البؤساء من أبناء شعبه رحم من التجاوب العميق و مسحة من الكآبة القائمة لا تنفكّ تحوم على كلّ قصيدة و تلوح من فوق كلّ منبر، و تنتشر غلالتها في كلّ محفل قومي أو مهرجان خيري، تجاوب أشبه ما يكون، بالسّلك الرّقيق المكهرب، له في قلب الشّاعر تموّجات نابضة، و هزّات تملك عليه جوارحه و تأسر شباة يراعه، فلا يخفق القلب إلاّ بالمعاني الإنسانيّة النّبيلة و لا تتحرّك اليد إلاّ بالإشارة المواسية و لا يتنزّى اليراع إلاّ باللّفظة المستمدّة للجراح"[2].

لقد ظلّ الشّاعر وفيّا لشعبه يعبّر عنه أصدق تعبير ويتفاعل مع قضاياه و يتغلغل في شؤون حياته فيقف عند بعض المظاهر الّتي لا تنمّ عن وعي اجتماعي كما يريدها العصر، يقف عندها لينتقدها و ليأخذ بيد قومه إلى الطّريق السّويّ و المنهج السّليم للتخلّص منها و الّذي يعتمد أوّلا

---

[1] الشيخ البشير الإبراهيمي : "الإصلاح الديني لا يتم إلا بالنصح الاجتماعي"، البصائر، الجزائر، س1، ع 37، 1355 هـ، 1936م، ص2.

[2] د. صالح خرفي ، صفحات من الجزائر، دراسات و مقالات من 1962 إلى 1972، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و الوزيع، ص 259.

و أخيرا على الدّين الإسلامي لأنّ الإصلاح الاجتماعي عند الشّاعر و غيره من الإصلاحيّين "مرتبط ارتباطا وثيقا بخيط الفكرة الدّينيّة "[1].

و لمّا كان من العسير علينا أن نتقصّى كلّ المواضيع الاجتماعيّة الّتي وردت في أشعار محمّد العيد – كما أشرنا إلى ذلك من قبل – فقد اكتفينا بالتّعرّض للبعض منها و الّتي نخالها أهمّها و أكثرها ورودا في ديوانه، و هو إن أكثر من ذكرها و ألحّ عليها فعلّة ذلك أنّها كانت شائعة و متفشّية في أوساط الأمّة، و تتمثّل هذه القضايا في :

1– الآفات الاجتماعية من خمر و انتحار و فقر و غيرها من المظاهر الّتي تؤدّي بالشّعب إلى الحضيض.

2– الشّباب باعتباره الرّكيزة الأولى للمجتمع.

3– المرأة الّتي تمثّل نصف المجتمع.

4– العلم باعتباره الدواء النّاجع لخلاص الأمّة من كلّ أدوائها.

5– و أخيرا النّوادي و المدارس و الجمعيّات باعتبارها السّبيل الوحيد لنشر العلم.

1– الآفات الاجتماعيّة:

عاش الشّعب الجزائري مأساة اجتماعيّة حقيقيّة تحت نير الحكم الفرنسي، ذلك المحتلّ الغاشم الّذي استهدف النّيل من كيان المجتمع الجزائري بشتّى الطّرق بحيث لم يكتف بالإستيلاء على قواه المادّيّة الّتي ضمّها إليه و أصبحت تحت سيطرته، بل عمل أيضا على تجريد الشّعب من كلّ قوّة معنويّة يمكن أن تساعده في ردّ كيد أعدائه. و قد مرّ معنا قبلا أنّ الإسلام كان أوّل ما ركّز عليه الاستعمار ضغطه – بعد أن تمّ له احتلال الجزائر – إيمانا منه بأنّه لا يمكن أن يحقّق الاستقرار السّياسي الّذي يصبو إليه ما لم يتم له القضاء على أوّل ركيزة للأمّة و إحدى أهمّ

[1] د. محمد عباس، البشير الإبراهيمي أديبا، مرجع سابق، ص 87.

مقوّماتها ألا و هي الدّين الحنيف، فإن لم يجد إلى ذلك سبيلا، فليعمل على تشويهه عن طريق تشجيع الانحلال و التميع [1] و هكذا فقد عمل الاستعمار على نشر المفاسد و الأدواء الاجتماعيّة المختلفة و إشاعة الفاحشة في أوساط المجتمع، فعاش الشّعب الجزائري نتيجة لذلك ما عاش من انحلال خلقي و تخلخل روحي و فكري.

و قد أدرك بعض العقلاء و الرّاشدين من علماء و مصلحين، أدركوا ما يرمي إليه الاستعمار من وراء سياسته تلك، فكانوا له بالمرصاد.

و قد آمن هؤلاء أنّ تهذيب الشّعب و إصلاح عيوبه هو الخطوة الأولى نحو التّحرّر من أيّ قيد، فأخذوا يكشفون عن مواطن الضّعف و المرض في المجتمع "و ينبّهون إليها في لين الواعظ المشفق على قومه، الحريص على هدايتهم حينا، و عنف المغيظ المحنق الّذي غلب عليه اليأس من الإصلاح و الضيّق بالفساد حينا آخر..."[2].

فلا غرو إذن إذا وجدنا محمّد العيد في طليعة من تصدّى لمثل هذه الآفات و سخّر طاقته الإبداعيّة و الفكريّة لتصويرها و تشخيصها و بيان مخاطرها على حاضر الأمّة و مستقبلها مع وصف الدّواء الملائم لها، فهو يبدي الكثير من الأسى و التّأسّف على ما آلت إليه الأخلاق في مجتمعه بعد أن هجرت و استبدلت بالمعاصي الّتي أصبح يجهر بها النّاس حين يمسون و حين يصبحون :

أسفي على الأخلاق صوح زهرها ∴ فينا و غوّر ما لها من منبع [3]

---

[1] ينظر : محمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر ، الجزائر، المؤسسة القطنية للكتاب – 1985 ص 48.

[2] محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي، مرجع سابق، ج1، ص 250.

[3] الديوان، ص 147.

لقد أصبح النّاس يسعون إلى المفاسد بل ويتسابقون إليها حتّى أنّهم أحيوا عهد الجاهليّة و عادوا ليعيشوا ما عاشه الجاهليّون من مظاهر الانحراف و الفساد :

فرط النّاس في الحدود فأمست ∴ تتبارى في دوسها الأقدام
نشر الكفر في حمى الدّين ذكرا ∴ ه و أحيت عهودها الأصنام
و غدا البغي ظافرا حوله الجند ∴ عد عزيزا تظله الأعلام
و فشا الزّور و القمار على الأر ∴ ض و عمّ الأذى و طم الخصام [1]

فبمثل هذه المقطوعة يعمل الشّاعر على تعداد سلبيّات الأمّة و فضحها لعلّه يجد الآذان الصّاغية و القلوب الواعية.

و قد تعرّض – ضمن ما تعرّض إليه – إلى آفة الخمر مبيّنا أخطارها و مضارّها على الفرد و الجماعة معا :

الخمر شربة رجس أمّ أرجاس ∴ الخمر صاعقة تهوي على الرّاس
ما الخمر إلاّ ظلام للنّفوس فلا ∴ يغررك منها شعاع لاح في الكاس
على الفؤاد بها النّيران موقدة ∴ و في الدّماغ لها دقّات أجراس
و كيف تطفئ نبراسا حباك به ∴ ربّ البرايا و تبقى دون نبراس
فحطّم الكأس و اهجر كلّ رفيقتها ∴ تعش سعيدا و تأمّن ألسن النّاس [2]

و يركّز الشّاعر حين عرضه لتلك المواقف الاجتماعيّة على المعاني الّتي تثير النّخوة و لشرف العربين فها هو يصف الطّفولة المشرّدة و الشّباب المتسكّع ترصدهم أبواب الحانات و دور البغاء [3]:

---

[1] الديوان، ص 177.

[2] الديوان، ص 281.

قف معي اليوم في الجزائر و اسبر ∴ غـور أحـوالـها بـعـين و أذن

تجـد الـطّـفـل في الأزقّـة يلهو ∴ و الـفـتى يشرب الخمر و يزني

تجـد الـطّـفـلة الـيـتيمة تشقى ∴ تحت خدر تنوء أو تحت خدن[1]

و إذا كان هذا حال الطّفلة الّتي لم تجد سبيلا غير سبيل السّوء من أجل ضمان لقمة العيش، فإنّ هناك نساء قد اعتدن عيشة البغي يغرّرن بالشّباب و الشّيب معا :

و الملاهي مذاعة، تعلن الأف ∴ واه عنها، و تكتب الأقـلام

و الـبـغـايا طليقة، يفتن الشّـ ∴ ـيخ بإغوائها، و يغرى الغلا م

إنّ تلك الصّور المخزية الّتي أصبحت شيئا معهودا في المدن حزّت في نفس الشّاعر و جعلته يلجأ إلى الصّحاري و القفار فرارا من تلك المآسي:

هذه الدّور جلّها تهـتك الأعرا ∴ ض فيـها، و تقطع الأرحام

هـذه الـطّـرق الـمناكر سوق ∴ و عليها من العصاة ازدحام

تبْـصر العين كلّ ما يؤلم القلب ∴ فـكـم في قـلـوبـنـا آلام

آه، مـن عشرة القصور، ففيها ∴ موبـقات من الأمور جـسام

ليتني كنت سائحا، موطني البيـ ∴ ـد و لبسي المسوح و الأهدام[2]

و هكذا يمضي الشّاعر يعدد تلك الآفات و يدعو إلى درئها و نبذها فكما عرض للخمر و لمظاهر الفساد و الانحلال من بغي و زنى و فسق الّتي عمّت أرجاء البلاد، عاج أيضا الكثير

---

[3] ينظر : د. صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 148 .

[1] الديوان، ص 110 .

[2] الديوان، ص 177 .

من مظاهر الانحراف الاجتماعي الأخرى مثل البخل و التعصّب و التّواكل و الإهمال و الخنوع و الخمول و غيرها من عوامل الضّعف في المجتمع.[1]

على أنّ ثمّة آفة تحدّث عنها الشّاعر بكثرة و أكّد على مضارها ألا وهي الفقر و ما ينجز عنه من سلبيّات، بل لعلّ أكثر مظاهر الإنحراف الّتي عرّفها الشّعب الجزائري كان سببها الأوّل و الأخير تفاقم الفقر و استفحاله، إضافة إلى انتشار الجهل. نعم، لقد عمّ الفقر و تفشّت البطالة و أصبح جلّ أبناء الوطن في عوز في حين كان المحتلّ الدّخيل ينعم بخيرات البلاد:

كم ضارب منهم في الأرض منتشر ∴ ما حاول الرّزق إلاّ اعتاص و امتنعا
و عاطل صنع الكفين مقتدر ∴ مهما أتى معملا عن بابه دفعا
و مستغيث و جلّ النّاس في شغل ∴ عنه، و طاو و جلّ النّاس قد شبعا [2]

إنّ التّناقض الّذي عرفته الجزائر تحت نير الاستعمار - بين رأسمالية طاغية و مواطن مسخّر مضطهد و ما نتج عنه من مفارقات عجيبة جعلت قلب الشّاعر ينفطر حزنا و إشفاقا على قومه التّعساء [3].

فشا الجوع و اشتدّ عسر المعاش ∴ و عادت سنو يوسف الغابرة
متى يستظلّ بظلّ النّعيم ∴ مساكين يصلون بالسّاهرة
تفاقم كرب الفقير الكسير ∴ أما عندكم من يد جابرة؟
يشقّ عليه الرّغيف الطّفيف ∴ و تعوزه الخرقة السّائرة

---

[1] ينظر : محمد بن سمينة، محمد العيد،ىشعره الإسلامي، مرجع سابق، ص 241.

[2] الديوان، ص 256.

[3] ينظر : د. صالح خرفي، شعر المقاومة الجزائرية، مرجع سابق، ص 249.

هذا هو حال ابن الجزائر، حال لا يحسد عليه، فقر مقدع و جوع قاتل بينما يتمتّع غيره برغد من العيش :

فيـا أيها الرّافعوون القصور ∴ إلى الـجـوّفي الأمّـة القاصرة
و يا أيـهـا الـوادعـون النّيام ∴ على الخدّ في السّرر الفاخرة
و يا عامر الجيب خلوّ الفؤاد ∴ قـرير الـبـصيرة و الـبـاصرة
و يامن يعب كووس الشّراب ∴ و يـنـعـم بالأوجـه النّاضرة
و يـا مـن ترف عليه الورود ∴ و تـنـفـحـه النّسمة العاطرة
ألا تـذكـرون حـفـاة عراة ∴ أصـابـهـم الفـقـر بالـفـاقرة [1]

و لئن كان هذا حال المواطن الجزائري، فإنّ المرأة هي الأخرى لم تسلم من المأساة فقدا طالها الجوع هي أيضا و أحاطت بها الفاقة حتّى أخرجتها من دارها سافرة فأصبحت عرضة للامتهان و التّبذل، تبذل العرض من أجل أن يقتات أبناؤها [2] :

و الفـقر فـاش فالنّساء سوافر ∴ يكدحن في طلب المعاش حيارى
يبذلن حتّى العرض في تحصيله ∴ لـيـقـتـن أبـنـاء لـهـنّ صـغـارا
يا للـرجـال لـحـرمة مـهـتوكة ∴ أفشاعرون أمّ الرّجال سكـارى [3]

و الشّاعر حين يرسم هذه اللّوحة القاتمة إنما يريد أن يثير النّخوة العربيّة باعتبار أنّ المجتمع العربي يولي المرأة المكانة الأسمى في الحفاظ و الحماية لهذا نجد الشّاعر يركّز على هذه النّاحية

---

[1] الديوان، ص 250 .

[2] ينظر : د . صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 147 .

[3] الديوان، ص 122 .

علّه بذلك يجد الآذان الصّاغية، و يستطيع خرق القلوب المغلفة بحجاب الجهل و الاستسلام و اللامبالاة.

إنّ الجزائر أصبحت سجلاّ متتابع الصّفحات، متلاحق السّطور بالآلام و المآسي تملأها المظاهر القاتمة و الحياة البائسة ممّا أدّى ببعض الشّباب الطّائش للجوء إلى حلّ أكثر دناءة و خسّا من تلك الحياة المضنية، و هكذا تفشّت ظاهرة الانتحار و قد ساعد على ذيوعها ذلك الانحراف الخلقي، و بهذا لم يجد الشّاعر بدّا من كشف مساوئها و التّنديد بخطرها حتّى أنّه خصّص لها قصيدة بأكملها "دمعة منهمرة على فتاة منتحرة" تحدّث فيها عن هذه الظّاهرة الدّخيلة على المجتمع الجزائري – و هو مجتمع إسلامي – :

لا أستبيح لك التّردّي إنّه ∴ رغم اضطرارك زلّة نكراء
في كلّ كارثة لكلّ موحّد ∴ أمل لها في كشفها و رجاء
من كان مرتكز اليقين فعسره ∴ يسر عليه و بؤسه نعماء
ما كان حلّ المشكلات بحادث ∴ للنّفس فيه على الشّقاء شقاء
إنّ انتحار اليائسين جناية ∴ عظمى يبوء بخزيها الجبناء
دنياك معركة يفوز بكسبها ∴ رأي أسد و همّة قعساء
من فاته فيها الرّجاء كمفلس ∴ لا يرتجى أبدا له إثراء [1]

إنّ الشّاعر يؤكّد دوما على شيء أساسيّ و هو الرّجوع إلى الدّستور الخالد و الاستكانة إلى ما جاء فيه، فهو الدّواء الشّافي من كلّ داء مهما استعصى و صعب استئصاله، هذا دأبه و منهجه في كلّ مواقفه الاجتماعيّة، فهو لم يكتف بتعداد تلك السّلبيات و استنكارها بل على العكس فقد عمد إلى إيجاد العلاج النّاجع لتلك الأسقام أو لنقل توجيه الشّباب نحوه

[1] الديوان، ص 475.

لأنّ العلاج موجود أصلا و لكنّه مهجور و يتمثّل في مبادئ الإسلام الّتي طالما دعا الشّاعر أبناء أمّته الاعتصام بها و التّمسّك بأهدابها، و هو يهيب بهم أن يعضوا بالنّواجد على ما يزخر به دينهم من فضائل و يفيض به من قيم اجتماعيّة و إنسانيّة كفيلة إن هم اعتصموا بها أن تقيهم من العثرة و تخرجهم من غياهيب الظّلم :

تعالوا بني الإسلام للحقّ إنّه ∴ به قامت الأكوان مسنونة النّظم
أقيموا حدود الحقّ في السخط و الرّضى ∴ أقيموا حدود الحقّ في الحرب و السّلم
و روّضوا على خلق الثّبات نفوسكم ∴ فقد كان خلق المرسلين أولى العزم
و خطّوا على الإخلاص أس أموركم ∴ و سيروا على نهج السّداد إلى القدم
و كونوا مع القرآن يهد قلوبكم ∴ و خلّوا هواكم جانبا فالهوى يعمي [1]

و لئن كان الشّاعر يصف القرآن على أنّه الدّواء النّاجع لمختلف الأسقام فإنّه يرى في النّادي مصحّة يقضى فيها على تلك الأمراض الاجتماعيّة و الانحرافات الخلقيّة :

يا فتية النّادي، و معشره الآلي ∴ سابقوا إليه به القلوب، و شافوا
داووا به مرضى الهوى كمصحّة ∴ فيها لكلّ وجيعة ترياق
و احموا بها الأخلاق من إخلاقها ∴ يعظم لكم في الصّالحات خلاف
و عليكم القرآن فهو من الهوى ∴ حام و ليس كنوره إشراق [2]

و يعود الشّاعر ليضع يده على السبب الرئيسي في تلك الانحرافات فيؤكّد أنّ كلّ ما يعانيه الشّعب الجزائري من مآسي إنّما مردّه إلى الجهل الّذي فشا و عمّ أرجاء البلاد :

---

[1] الديوان، ص 204.

[2] الديوان، ص 94.

يا قوم شعبكم أحاط به الأذى ∴ و سطا عليه الجهل و الإملاق

و الوهم عشش في الرّؤوس فأطرقت ∴ و الوهم شرّ بلائه الإطراق

لهذا فهو يطالب بفكّ النّفوس من قيد الجهالة و الهوى :

فكّوا النّفوس من الجهالة و الهوى ∴ و الوهم فهي على النّفوس وثاق

و وصيّة لكم بأن تتكاتفوا ∴ و تسارعوا في الخير فهو سباق[1]

ذلك هو محمّد العيد، شاعر عاصر محنة شعبه بنفس أبيّة، و تجاوب معها، "تجاوبا أبعد ما يكون عن التّأثّر العاطفي الفوري لمنظر مؤلم عابر أو زفرة جريحة وامضة، و لكنّه الشعور الكامن تنضح به نفسيّة الشّاعر، و يفيض به قلبه، يتغذّى من الدّاخل قبل أن تغذّيه المؤثّرات الخارجيّة. . . "[2].

كان الشّاعر يعيش مأساة قومه و يعايشها فيرسم لوحات حية يستنطقها و يبعث من خلالها تلك الصّور الفضيعة الّتي كان يلتقطها في منعطف شارع أو متطلّعا من نافذته، و قد عمل جاهدا لمحاربة تلك الصّور المتردّية، و إدراكا منه لحاجة الوطن إلى جميع أبنائه و خاصّة الشّباب منهم أفرد قصائد عديدة في مخاطبة الشّبيبة مبيّنا لهم أنّ صرح أمجادهم لن يبنى إلاّ بسواعدهم و أنّ نهضة بلادهم تعتمد على مدى تسلّحهم بسلاح العلم و هو ما سنعرض له فيما يلي.

---

[1] الديوان، ص 94.

[2] د. صالح الخرفي، صفحات من الجزائر، داسات و مقالات من 62 –72، مرجع سابق، ص 259.

2- الشّاعر و الشّباب :

إنّ محمّد العيد قد ولّى الشّباب عناية حاصة لم يبلغ إلى شأوه فيها إلاّ القليل من الشّعراء[1]، حتّى إنّه لقّب بشاعر الشباب ذلك لأنّه كان دائم الاهتمام به، يحضّه على الأخذ بأسباب النّهضة و يأخذ بيده ليخرجه من المتاهات الّتي كان ضائعا فيها . و لعلّ اهتمام الشّاعر بالشّباب كان وليد وظيفته كمعلّم، تلك الوظيفة الّتي فرضت عليه أن "يبرز قيما معيّنة لتلاميذه، و أن ييسّر لهم سبيل الأخذ بها تمثلا و عملا"[2].

و لقد ازدرى البعض بوظيفة الشّاعر و رأى فيها مضيعة للوقت و مجلبة لكلّ أنواع المتاعب بينما رأى هو أنّها الطّريق الأمثل للقضاء على الدّاء العضال الّذي طالما راعه و أقلقه و هو يجد في تكوين النّاشئة سلواه و عزاه الوحيد لأنّه يتمثّل فيها مستقبل الجزائر المشرق[3]:

أرى جلّ أصحابي ازدروا بوظيفتي ∴ و قالوا : هموم كلّها و وجائع
و قد زعموا عمري مع النّشء ضائعا ∴ و تا الله ما عمري مع النّشء ضائع
سيروون عنّي الشّعر و العلم برهة ∴ و تطلّع للإسلام منهم طلائع
فمنهم خطيب حاضر الفكر مصقع ∴ و منهم أديب طائر الصّيت ذائع
و منهم ولوع بالقوافي لفكره ∴ بدائه في ترصيفها و بدائع
و منهم زعيم للجزائر قائد ∴ له في مجالات الجهاد وقائع[4]

---

[1] من هؤلاء الشاعر أحمد سحنون الذي يعكس ديوانه اهتماما ملحوظا بشباب الأمّة.

[2] د. عمر بن قينة : صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، مرجع سابق، ص 362.

[3] ينظر : د. صالح خرفي، شعر المقاومة الجزائرية، مرجع سابق، ص 236.

[4] ينظر : د. صالح خرفي، سلسلة في الأدب الجزائري، محمد العيد، مرجع سابق، ص 236.

فالشّاعر يؤمن إيمانا قويّا أنّ وظيفته تلك وسيلة من وسائل الإصلاح إذ بفضلها يمكنه غرس المبادئ السّامية في نفوس أبناء هذا الوطن و من ثمّ كان اهتمامه بالشّباب و حرصه الشّديد على أن ينير له الطّريق مبيّنا له المفهوم الصّحيح للإصلاح، و هو يهيب به للرّجوع إلى دينه الحنيف – فهو مفتاح الفرج – و أن يعيد له أيّامه الخالدة :

أعيد و للدّين عهد طلوعه ∴ على الأرض فجرا جاليا كلّ مظلم

و لا تنسوا الدّنيا فإنّ متاعها ∴ مشاع لكم في الكسب غير محرم

لقد مرّ عصر السّعي للرّوح وحدة ∴ ببعث بن عبد الله بعد ابن مريم [1]

ثمّ يلفت نظر الشّباب إلى كلّ ما يدعّم شخصيّته و يمدّها بأسباب القوّة و المنعة من مآثر و محامد [2]، فيقول:

شباب الجزائر طب بالإخا ∴ ء فقد حزت في رعيه الأسبقيّة

أناديك للخير خير النداء ∴ و أوصيك بالحقّ حقّ الوصيّة

ذر الخوف تعرف ثنايا السّلوك ∴ فمن هاب خاب و ضلّ الثنية

و نفسك بعها مع البائعين ∴ كرام النّفوس لباري البريّة

و داووا الميول بهدي الرّسول ∴ فقد مسّها طائف الطّائفيّة [3]

إنّ نزعة الشّاعر الدّينيّة تطبع جلّ أشعاره إن لم نقل كلّها، فها هو يدعو الشّباب للعودة إلى هدي الرّسول – صلى الله عليه و سلّم – بعد أن دعاه إلى الإخاء و ناداه للخير، و المعنى نفسه نجده في قصيدته "يا معشر الطّلاب" الّتي يتوجّه بها إلى الشّباب يمهّد أمامهم الطّريق للقيام

---

[1] الديوان، ص 92.

[2] ينظر : محمد بن سمينة، محمد العيد شعره الإسلامي، مرجع سابق، ص 244.

[3] الديوان: 417.

بواجبهم نحو الوطن، و كان على رأس ما دعاهم إلى الاعتصام به هو القرآن الكريم ملفتا نظرهم إلى خطورة ما يحيكه المحتلّ ضدّ قيم أمّتهم و مقوّمات شخصيّتها بمعيّة بعض الطّرقيّين المنحرفين، أولئك الّذين باعوا أنفسهم للعدوّ و عملوا على نفث سمومهم في صفوف الأمّة بقصد تنفيرها من الإقبال على فهم كتابها و التّدبّر في معانيه :

يا معشر الطّلاّب هل من آخذ ∴ بالذّكر أو متمسّك بعصامه ؟

فتشرّفوا بالأخذ من آدابه ∴ و تعرّفوا بجلاله و حرامه [1]

إنّ الشّاعر يدعو الطّلاّب إلى التّشرّف بالإفادة من الكتاب المقدّس و التّعرّف على حلاله و حرامه لينتقل بعدها إلى الأمّة جمعاء فيطالبها بتنشئة الجيل على هدي القرآن إن هي أرادت الفلاح حتّى يشبّ هذا الأخير على قيم الدّين و فضائله :

هلمّ بني بقومي إلى الذّكر نمله ∴ ففي الذّكر أخلاق سمت و مكارم

و لست أرى القرآن إلاّ مناجما ∴ أتدرون ما تحوي عليه المناجم ؟

على الدّين و الدّنيا و عليهما معا ∴ شهودا و غيبا فهو بالكلّ قائم

فرّوا عليه النّاشئين تلح لهم ∴ به طرق مشروعة و معالم [2]

و يعيب الشّاعر على الشّباب ما يراه من ضلال و تردّ في الأخلاق، و يبين له أنّ الشّباب الّذي ترتجيه البلاد و تضع فيه كلّ آمالها هو ذلك الشّباب الّذي يتحلّى بالخلال الحميدة و السّجايا الكريمة و ليس ذلك الّذي نفض يديه من الحياة و زهد في طلبها و باع نفسه للشّيطان و اتّبع هواه فأضلّه عن سواء السّبيل :

إنّما يسعد البلاد شباب ∴ ذو حفاظ لعرضه و صيان

---

[1] الديوان، ص 90 .

[2] الديوان، ص 137 .

لا شباب باع الحياء و أمسى ∴ بين "حان" يحسو الخمور و خان

أو شباب يظلّ هيمان يلغو ∴ بالأغاني معاكسا للغواني

أو شباب على التّراث تعدّى ∴ فتردّى في هوّة الكفران [1]

و تمادى الشّباب في غيّه إلى حدّ جعله يستخفّ بكلّ القيم و ينبذ التّقاليد السّماوية و يعدّها من أسباب التّخلّف و قد آلم ذلك الشّاعر كثيرا و ساءه فقام ينهره و يزجره محاولا أن يردّه إلى رشده آمرا إيّاه بالتّوبة و العودة إلى الأسباب الحقيقيّة للسّعادة و الّتي تتمثّل في المبادئ الإسلاميّة :

جار الشّباب على القيم ∴ و رمى الشّرائع بالتّهم

و أبى النّصيحة تابعا ∴ لهواه يخبط في الظّلم

ويح الشّباب من الهوى ∴ إنّ الهوى فيه احتكم

هجر الهدى و سبيله ∴ و على الغوايات ازدحم

ثب يا شباب إلى الهدى ∴ إنّ الضّلال عليك عمّ

الدّين عاصمك الّذي ∴ ينفي هواك بما عصم

إنّ السّعادة في حمى الـ ∴ إيمان راسخة القدم

إنّ السّعادة نعمة الـ ∴ إسلام و هو أبو النّعم [2]

و كما يعيب الشّاعر على الشّباب تخلّيه عن الخصال الحميدة و استبدالها بالفاحشة، يعيب عليه تخاذله و تفريطه في ذلك الميراث العظيم الّذي توارثه عن أجداده من عزّ و مجد عريق: [3]

---

[1] الديوان، ص 269.

[2] الديوان، ص 518.

يا حماة البلاد يا فتية الضاد ∴ ترى هل لكم من الرّأي مغنى

سئار جيرانكم مع العصر شوطا ∴ و وقفتم ما بين و هم و هن

لا تقولوا هان الجدود فهنّا ∴ ساء نشء لهم بهم بسوء ظنّ

في تلمسان، في بجاية في تيه ∴ رت في القلعة ازدهى كلّ فنّ[1]

و إذا كان الشّاعر يتألّم لحال الشّباب و يتأسّف له، فإنّه بالمقابل كان يغتبط و يمتلئ نشوة كلّما رأى الجهود المضنية الّتي يقوم بها العلماء من أجل تهيئة النّشء التّهيئة الصّحيحة حتّى يكون عدّة الوطن مستقبلا، من ذلك ما نظمه الشّاعر و هو يشيد بالشّيخ البشير الإبراهيمي الّذي ألقى دروسا بمدينة باتنة فتفاءل الشّاعر بها خيرا و اعتبرها خطوة إيجابيّة و نقطة تحسب لصالح العلم و العلماء،و الإصلاح و المصلحين[2] :

بباتنة رعد البشائر لعلعا ∴ فأطرب أوراسا بها و الشّلعلعا

و أخصبت الآمال فيها و أينعت ∴ كما أخصب الرّوض الجديب و أينعا

بمدرسة دينية عربية ∴ أعدّت لإرواء المدارك منبعا

نمت و نمى النّشء الصّغير على الهدى ∴ بها و وعى فيها من العلم ما وعى

و شبّت فأمست للشّباب كقلعة ∴ محصّنة فيها الشّباب تمنّعا[3]

و ديوان الشّاعر ملئ بمثل هاته الأشعار الّتي تشيد بالعلماء وجهودهم الدّؤوبة للنّهوض بالأمّة نهضة علميّة حقيقيّة، و سنعرض للبعض منها لاحقا .

---

[3] ينظر محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري – مرجع سابق – ص 350 .

[1] الديوان،ص 109 .

[2] ينطر : أنيسة بركات درار، أدب النضال في الجزائر، مرجع سابق، ص 87 .

[3] الديوان، ص 85 .

و قد اتّخذ الشّاعر من الأناشيد طريقة للتّرويح عمّا يجيش في خاطره، و قد نظم مجموعة منها على ألسنة الشّباب و جعلها ناطقة باسمهم معبّرة عن أحاسيسهم و ما يشيع في سلوكهم أو ما يجب أن يشيع من فضائل ومثل ، و لعلّ الشّاعر اعتمد الأناشيد باعتبارها أقدر من القصيدة على تفجير المشاعر إذ أنّ "الشّاعر الّذي يستطيع كبح جماح عواطفه القوميّة في قصيدة مطوّلة و إنتاج متأنّ، لن يطاوعه هذا الكبح و هو يتفجّر في نشيد أشبه بالشّعارات و الهتافات. . . ."[1] فلا غرو أن يعتمد محمّد العيد الأنشودة ليغرس في الشّباب الجزائري مبادئ ثوريّة نضاليّة في وقت كان مجرّد التّفكير بكلمة "نضال" يودي بصاحبه إلى التّهلكة، ناهيك عن النّطق بها، و لكن برغم ذلك الخطر المحدق فقد ردّدها الشّاعر و صرّح بها خالية من كلّ لبس[2] :

نحن الشّباب العتيد ∴ في النّضال
شدنا و أنف العدى ∴ في التّراب
قمنا لأخذ الحقوق ∴ من جديد
صوت بعيد المدى ∴ هل يجاب
ناداكم للنّدى ∴ بالرّقاب
إلى الفدى إلى الفدى ∴ يا شباب[3]

---

[1] ينظر : د. صالح خرفي، الشّعر الجزائري الحديث، محمد العيد، مرجع سابق، ص 162 .

[2] ينظر : د. عمر بن قينة، صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، مرجع سابق، ص 362 .

[3] الديوان، ص 568 .

و مثل تلك المعاني كثيرة مبثوثة في مختلف الأناشيد الّتي كتبها الشّاعر مثل نشيد "كشافة الرجاء" و "الإقبال" و "الصّباح" و كلّها دعوة حارّة إلى الشّباب لاستعادة مكانته الّتي لن ينالها إلاّ عن طريق التّضحيّة :

خضناك للمجد و العلاء ∴ يا أرض تيهي على السّماء

فنحن كشافة "الرّجاء" ∴ و نحن جوّابة البلاد

إنّا على ربّنا اعتمدنا ∴ إنّ بتاريخنا اعتددنا [1]

و يقول في نشيد "كشّافة الإقبال" بنفس أبيّة ملئ بمشاعر النّحدّي و الحماس :

نفديك بالرّوح و البدن ∴ يا موطن الأشبال

فنحن في السّرّ و العلن ∴ حماتك الأبطال

و نحن إن أعرض الزّمن ∴ كشافة الإقبال [2]

و نحن إن أكّدنا على الجانب الثّوري لتلك الأناشيد، فهذا لا يعني أنّ الشّاعر قد جعلها وقفا على قضيّة واحد تو هي فضيّة التّضحيّة من أجل استرداد حقّ مسلوب و مجد ضائع بل إنّ أناشيد الشّاعر – و على غرار أشعاره الأخرى – تعتبر دستورا جمع فيه بين القيم الخلقيّة كالصّدق و الشّعور بالعزّة و الكرامة و عدم الاستكانة للظّالم و الأمانة و الانضباط و . . .

و بين القيم الإسلاميّة الّتي تنبذ كلّ تبعيّة للبدع و الخرافات الذتي يذيعها المحتلّ و يشجّعها أذياله الأفّاكون المضلّلون، و هو في هذا و ذاك يجعل نصب عينيه مواقف الأبطال من المسلمين و رجال الفكر الأحرار يتقدّمهم سيّد الأنام الّذي هو أحقّ النّاس بأن يقتدى به [3] : أ

---

[1] الديوان، ص 567 .

[2] الديوان، ص 570 .

[3] ينظر : د . عمر بن قينة، صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث، مرجع سابق، ص 363 .

كلّنا، كلّنا جنود ∴ تحت راية النبي

كلنا، كلّنا أسود ∴ في عرين المغرب

نبتغي عزّ الوطن ∴ و الفدى لـه ثمن

لا نبالي بالمحن ∴ إن نفز بالمأرب

كلّنا صادق نزيه ∴ مستقيم المذهب

كلّنا حاذق نبيه ∴ لا يرى فينا غبيّ

إنّ ما نلحظه من خلال أناشيد الشّاعر هو حرصه الشّديد و تأكيده الدّائم على الجانب الأخلاقي كالصّدق و النّزاهة و الحذق و هي صفات إن اجتمعت في الفرد كانت له ذرعا واقية و سورا منيعا يقيه شرّ الأعادي . ثمّ إنّ الشّاعر لم يجعل تلك الأناشيد وقفا على تلاميذ مدرسته بل لقد اتّخذ من جريدتي البصائر و الشّهاب همزة وصل بينه و بين شباب الأمّة أجمعين ذلك حتّى تعمّ الفائدة و يبلغ الغاية المرجوّة و الهدف المنشود من خلال أشعاره و المتمثّلة في غرس القيم الخلقية و الإسلاميّة في نفوس الشّباب ليتمكّن من استعادة مكانته و بعث مقوّمات أمّته من تاريخ و حضارة و لغة و دين. و الشّاعر يجمع في دعوته تلك بين مختلف فئات الأمّة لا يفرّق بين فتى و فتاة بل على العكس فلطالما شجّع على الاهتمام بالمرأة و العمل على تعليمها .

3-المرأة :

عانت المرأة طوال قرون من الإهمال و الجمود، فهي لم تعرف الحياة إلاّ قعيدة في البيت، حبيسة التّقاليد البالية و ضحيّة الجهل الّذي فرضه المستعمر إضافة إلى تلك الغيرة الكبيرة الّتي عرف بها الشّعب الجزائريّ في المحافظة على بعض الظّواهر الاجتماعيّة و في طليعتها عزل المرأة و منعها من الخروج [1]، و هكذا فقد كانت المرأة مهضومة الحقوق مسلوبتها فللرجل "العلم و لها الجهل،له العقل و لها البله، له الضياء و لها الطّاعة و الصبر، له كلّ شيئ في الوجود و هي بعض ذلك الشيء الذي استولى عليه" [2].

و لقد تفطّن بعض العلماء و على رأسهم جمعيّة العلماء المسلمين لهذا الموضوع الحسّاس و ما يمثّله من خطورة في تحديد مسار الأمّة جمعاء ممّا دفعهم إلى التركيز في دعوتهم على ضرورة تعليم المرأة و تربيتها في إطار التّعاليم و الأخلاق الإسلاميّة [3] ، و قد حمل لواء هذه الدّعوة ابن باديس و الّذي اهتمّ بهذا الموضوع اهتماما كبيرا و قد كتب مقالا بعنوان "تعليم النّساء الكتابة" ممّا جاء فيه : " . . . فاستنادا إلى هذه الأدلّة، و سيرا على ما استفاض في تاريخ الأمّة من العالمات الكاتبات الكثيرات، علينا أن ننشر العلم بالقلم في أبنائنا و بناتنا، في رجالنا و نسائنا على أساس ديننا و قوميّتنا إلى أقصى ما يمكننا أن نصل إليه من العلم الّذي هو تراث البشريّة جمعاء، و ثمار جهادها في أحقاب التّاريخ المتطاولة، و بذلك نستحقّ أن نتبوّأ منزلتنا اللاّئقة بنا و الّتي كانت لنا بين الأمم" [4].

---

[1] Mr Bormans. statut personnel et famille du Maghreb de 1940 à nos jours, édition mouton, 1977, p 119.

[2] القول لقاسم أمين نقلا عن أنيس المقدسي ، الإتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث بيروت دار العلم لاملايين،ط6،1977،ص258

[3] ينظر :رابح تركي،التعليم و الشّخصيّة الوطنيّة (1931-1956) دراسة تربويّة للشّخصيّةالجزائرية-الجزائر- الشّركة الوطنية للنشر و التوزيع ، 1975، ص

[4] الشهاب، ج3، م 15، ربيع الأول 1358 هـ، أفريل 1939 .(تعليم النّساء الكتابة للشّيخ ابن باديس) .

على أنّ الإيمان بالدّور الخطير الّذي يمكن للمرأة أن تؤدّيه في المجتمع لم يكن حكرا على أعضاء جمعيّة العلماء، فقد تطرّق بعض العلماء إلى الموضوع نفسه و دعوا إلى ضرورة الرّجوع بالمرأة إلى المكانة الّتي منحها إيّاها الإسلام قبل ظهور الجمعيّة بوقت ليس بالقصير، و خير من يمثّل هؤلاء محمّد بن مصطفى بن الخوجة الذّي ألّف كتاب "الإكتراث في حقوق الإناث" سنة 1897[1].

كما ظهرت في العشرينيات دعوة حارّة للنّهوض بالمرأة، يقول رمضان حمود : "أوّل حجرة تضعها الأمّة في بناء حريّتها، هو تهذيب المرأة و تثقيفها لأنّها التّربة الّتي ينبت الشّعب كلّه منها" إلاّ أنّ الثّلاثينات تمثّل المنعرج الحقيقي الّذي يمثّل الاهتمام الجدّي بقضيّة المرأة سواء أكان ذلك من خلال مؤتمر طلبة شمال إفريقيا الّذي عقد بالجزائر سنة 1932، و كا ن من بين ما ناقشه قضيّة المرأة، أو عن طريق الحركة الإصلاحيّة و في طليعتها الشّيخ ابن باديس الّذي تبنّى الفكرة حيث خصّ بابا قارا لموضوع المراة في صدر الإسلام في مجلّة الشّهاب تحت عنوان "رجال السّلف و نساؤه"[2].

و إذا كان العلماء و الأدباء بعدهم قد تفطّنوا إلى قضيّة المرأة و دورها في المجتمع فإنّ محمّد العيد كان من أوائل الشّعراء الّذين تعرّضوا لهذه القضيّة إيمانا منه أنّ إصلاح المجتمع لا يخصّ فئة دون أخرى، و قد كان يولي المرأة عناية خاصّة بصفتها تمثّل نصف المجتمع و يدعو إلى حسن تربيتها وتعليمها و النّهوض بشخصيّتها، مصوّرا في الوقت ذاته دورها و مكانتها اللاّئقة بها و الّتي خوّلها إيّاها الإسلام منذ قرون خلت، ولمّا كان الشّاعر أدرى النّاس بأهميّة العلماء و الدّور المنوط بهم - باعتبارهم قادة الأمّة - خصّهم بالحديث طالبا منهم السّهر

---

[1] ينظر : د. صالح خرفي، الشّعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص168

[2] المرجع نفسه، ص 172.

على تربية المرأة التّربية الحسنة القائمة على تعاليم الدّين الحنيف [1] لكي يتسنىّ لها بدورها تربية النّشء التّربية القويمة الصالحة :

أذوي العمائم علّموا و تعهّدوا ∴ بالوعظ و الذّكرى ذوات البرقع

آتوا النّساء نصيبهنّ من الهدى ∴ يخرجن نشأ كالرّماح الشّرع[2]

و لم يكتف الشّاعر بدعوة العلماء إلى الاهتمام بالمرأة، بل لقد التفت إلى المرأة نفسها ليخاطبها داعيا إيّاها إلى اليقظة و الأخذ بأسباب النّهضة متحلّية في ذلك بالفضائل و القيم الّتي تصونها و تصون عرضها و شرفها ليوصها في الأخير بما أوصى به القرآن نساء النبي – صلّى الله عليه و سلّم – "و قرن في بيوتكنّ و لا تبرجن تبرّج الجاهليّة الأولى"يقول :

سرن سير الحرائر ∴ خلف ركب العشائر ∴ يا نساء الجزائر

سرن حول الّذي دعا ∴ للمعالي فأسمعا ∴ يا نساء الجزائر

قمن من رقدة الكسل ∴ و تحرّكن للعمل ∴ يا نساء الجزائر

صُنّ أعراضكنّ عن ∴ كلّ ريب و كلّ ظنّ ∴ يا نساء الجزائر

قرن في البيت إنّه ∴ يقتضيكنّ فنّه ∴ يا نساء الجزائر

و يرسم الشّاعر منهجا للنّساء كفيلا بأن يضمن السّعادة لهنّ و لأزواجهنّ و لأولادهنّ :

كنّ في البيت للرّجل ∴ نسوة فذّة المثل ∴ يا نساء الجزائر

كنّ في البيت للولد ∴ هاديات إلى الرّشد ∴ يا نساء الجزائر

عشن للجيل ألسنا ∴ مرشدات و أعينا ∴ يا نساء الجزائر[3]

---

[1] ينظر : محمد بن سمينة، محمد العيد، شعره الإسلامي، مرجع سابق، ص 250 .

[2] الديوان، ص 149 .

[3] الديوان، ص 574 .

و يحزّ في نفس الشّاعر ما يراه من معاناة المرأة الجزائريّة من سوء الأخلاق - قد تكون هي السبب الأوّل فيه - فقد هجرت زيّ قومها كما هجرت مبادئ دينها و تولّت عن الفضائل و القيم، و لو تمسّكت بها و عملت على المحافظة عليها لكانت لها خير معيّن و لكانت بفضلها سيّدة أمرها، و هي لن تبرأ من عللها و أسقامها إلاّ إذا رجعت إلى شرع الله و سنة رسوله :

إنّ الجزائر أمست بنتها غرضا ∴ لكلّ رام بسهم الغيّ مأجور
ما بالها هجرت آداب ملّتها ∴ ما بالها أعرضت عن خير دستور
إنّ الّذي برّأ الجنسين خوّلها ∴ حقوقها في كتاب منه مسطور
لو أنّها اقتبست من نوره و جنت ∴ من روضه التحقت في الطّهر بالحور
عافت تقاليدها المثلى و قد سطعت ∴ انوارها و ارتمت في كلّ ديجور
ما جلّ آراءها المستحدثات سوى ∴ مستوردات مداها غير مشكور[1]

إنّ الشّاعر يتحسّر و يتأسّف للطّريق الّذي أخذت تسلكه بنت الجزائر أو "فتاة العصر" الّتي أخذت تتنكّر شيئا فشيئا لملّتها و آدابها باسم العصرنة و التّفتّح فأعرضت بذلك عن خير دستور، الدّستور الّذي خوّلها جميع حقوقها إلاّ أنها تجاهلته و راحت تبحث عن حقوقها فيما عداه. و الشّاعر يهيب بها للعودة إلى دينها لتجد فيه ضالّتها فسورة النّور مثلا كفيلة لوحدها أن تنير لها الطّريق و تزيح عنها ستائر الغيّ و الزيغ :

في كلّ مرحلة تزداد ظلمتها ∴ في الرأي فاقرأ عليها سورة النّور

و إذا كان الشّاعر قد شخص مواطن الدّاء في قصيدته تلك، فإنّه يفيض فيها و يفصّل ليخلص إلى سبل العلاج في قصيدة "و يخلد الإسلام" حيث يوجّه حديثه إلى العلماء واضعا

---

[1] الديوان، ص 279.

أيديهم على جملة من الأسس التربويّة التّي تساعد على تكوين المرأةتكوينا إجتماعيّا صالحا يحفظ لها كرامتها و يمكّنها من القيام بواجبها الإجتماعيّ على أحسن وجه[1]:

علّمـــوا البنت ما به تحصّن النّفـــ ∴ ـس لينكفّ عن أذاها اللّئام
علّموا المـرأة الـحقـائق في الدي ∴ ـن فـقد طوّحت بها الأوهام
علّموها كيف النّظام، و كيف السّـ ∴ ـعي في بـيتها، و كيف القيام
علّموها كيف الرّعاية للـطّـفـــ ∴ ـل، و كيف التّلقين و الإلهام
علّموها كـيـف التّودّد للـزوج ∴ و كيف التّـقـدير و الإعظام
علّموهـا كـيـف الـوقاية، ممّا ∴ هـــاجمتها بشره الأيّـام
كيف تنجو من الشّرور نـســاء ∴ لا يـواري وجـوههنّ لثام ؟
عصمة المرأة احتجاب و صـون ∴ و إباء و عفّة و احـتشام [2]

إنّ هذا الموقف من محمّد العيد ليشبه إلى حدّ كبير موقف شاعر النّيل حافظ إبراهيم الّذي يرى أنّ السّبب في تأخّر الشّرق يكمن في تأخّر المرأة، لهذا نجده يطالب أقرانه من الرّجال بأن يهتمّوا لأمرها :

من لي بتربية النّساء فإنّها ∴ في الشّرق علّة ذلك الإخفاق
الأمّ مدرسة إذا أعددتها ∴ أعددت شعبا طيّب الأعراق
الأمّ روض إنّ تعهّده الحيا ∴ بالرّي أو رق أيّـمـا إيـراق
الأمّ أستاذة الأساتذة الألى ∴ شغلت مآثرهم مدى الأفاق [3]

---

[1] لينظر: انيس المقدسي، الإتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، مرجع سابق ص263

[2] الديوان، ص 176 .

[3] ديوان حافظ : ج1، ص 279 .

و لكنّه ما يلبث يستدرك قوله بالأبيات التّالية الّتي تنفي كلّ دعوة للتّحرّر الكلّي فهو محاذر لا يدعو إلى الحريّة المطلقة بل يرغب في السّير المتّئد :

أنا لا أقول دعوا النّساء سوافرا ∴ بين الرّجال يجلن في الأسواق

يدرجن حيث أردن لا من وازع ∴ يحذرن رقبته و لا من واق

كلاّ و لا أدعوكم أن تسرفوا ∴ في الحجب و التّضييق و الإرهاق

فتوسّطوا في الحالتين و انصفوا ∴ فالشّرّ في التّقييد و الإطلاق

ربّوا البنات على الفضيلة إنّها ∴ في الموقفين لهنّ خير وثاق

إنّ كلاّ من الشّاعرين – العيد و حافظ – يدعوان إلى الأسباب الحقيقية و الطريقة المثلى لتقدّم المرأة و تخلّصها من الضّيم و الظّلم هذا من ناحية و من ناحية ثانية نلاحظ أنّ كلاهما أثار قضيّة الحجاب، و الحقيقة أنّها قضيّة قد أسالت الكثير من الحبر سواء في الجزائر أو في العالم العربي ككلّ، و لمّا كانت الحركة الإصلاحية في الجزائر قائمة على أسس دينيّة بحتة فمن البديهيّ أنّ قضيّة الحجاب لم تثر في أوساطها إلاّ على أساس التّمسّك به و التهجم على دعاة السّفور [1]، هؤلاء الّذين طالبوا بضرورة التّخلّص من الحجاب لأنّه – في نظرهم – يعيق الحركة التّحرّرية الّتي تسعى إلى تحقيقها المرأة، و كان على رأسهم قاسم أمين الّذي يعتبر أوّل من دعا إلى تحرّر المرأة جهرة في المشرق العربي، و قد نحا نحوه و ذهب مذهبه محمّد صالح خبشاش في الجزائر بحيث كان أوّل من نادى بالتّخلّص من الحجاب و الاقتداء بالمرأة الغربيّة و الأخذ بأسباب الحضارة الأوروبيّة :

تركوك بين عباءة و شقاء ∴ مكوبة في اللّيلة اللّيلاء

مغلولة الأيدي بأسوإ بقعة ∴ محفوفة بكتائب الأزراء

---

[1] ينظر: د. صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 174.

مسجونة مزجورة محرومة ∴ محفوفة بملاءة سوداء

فإلى متى هذا الحجاب؟ إلى متى ∴ أإلى التّلاشي ؟ أم ليوم لقاء ؟

أترابكنّ من الفرنج غدون في ∴ غرف العلا في عزّة قعساء[1]

و مقابل دعاة التّحرّر وجدنا شعراء يحثّون المرأة على التّمسّك بتلابيب دينها و الذّود عن شخصيّتها و التي يمثّلها الحجاب أيما تمثيل و من هؤلاء الشّاعر عبد المطلب الّذي ينعي على المرأة تقصير الثّياب و التّبرّج :[2]

ما لابنة الخدر المصو ∴ ن و ربّة المجد الأثيل

أودى شفيف نقابها ∴ بكرامة الأمّ البتول

و انجاب جيب قميصها ∴ عن وصمة الشّيخ البجيل

و علا رنين حجولها ∴ أسفا على الذّيل الطّويل

أهي التي فرض الحجا ∴ ب لصونها شرع الرسول ؟

جعل الحجاب معاذها ∴ من ذلك الدّاء الوبيل

و هو نفس ما ذهب إليه محمّد العيد حين ذكر أنّ الحجاب إنّما هو عصمة المرأة و صون لها كما رأينا سابقا .

على أنّ ثمّة ملاحظة لابدّ من ذكرها و هي أنّ محمد العيد لم يتجاوز في حديثه عن المرأة حدود الدعوة إلى تعليمها و حسن تربيتها لتستطيع القيام بواجبها في إطار بيتها كأمّ و زوجة تسهر على تربية أبنائها و تسعى لتحقيق أسباب الرّاحة لزوجها ، إلاّ أنّ نظرته تلك تغيّرت في أعقاب الاستقلال حين أخذ يلمح إلى فكرة المساواة بين الرّجل و المرأة و تعاونهما في شؤون

---

[1] المرجع نفسه، ص 41.

[2] د. محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط8، ج2، 1986، ص 252.

الحياة شريطة أن يكون ذلك قائما على أسس من المبادئ الأخلاقية التي توضّح لكلّ منهما حقوقه و واجباته الاجتماعيّة، يقول :

علّم البنت فهي للبيت أس ∴ و قوام لهيكل البنيان

إنّما الشّعب عنصر بشري ∴ من نساء نما و ذكران

وقف بجنسك في الحياة رجالا ∴ و نساء مواقف الأقران

و إذا ما تعاوّنا في مرام ∴ فعلى البرّ لا على العصيان

بين هذا و هذه من عفاف ∴ برزخ حاجز فلا يبغيان

بين هذا و هذه واجبات ∴ و حقوق عن فعلها يسألان [1]

و حتّى لا يظنّ بالشّاعر الظّنون و يتّهم بأنّه يدعو إلى تحرير المرأة دون أيّ وازع ديني نجده يعقّب على تلك الأبيات بأبيات أخر توحي بأن ما يذهب إليه إنّما هم من صميم الإسلام، ألم تكن السيّدة خديجة أمّ المؤمنين تقف دائما إلى جانب سيّد الخلق – صلى الله عليه و سلّم – تآزره و تقاسمه عبء الحياة :

فقد أعانت خديجة سيّد الرّسـ ∴ ـل برأي و ثروة و حنان

و يواصل الشّاعر يذكّرنا بموقف النّبيّ – صلّى الله عليه و سلّم – من المرأة و ما سنّه من نظم توضح العلاقات بين الرّجال و النّساء فمن عمل بها و أحسن إلى شريكته كان له الأجر العظيم و الثّواب الجزيل :

و لقد سنّ للرّجال وصايا ∴ و مزايا لعشرة النّسوان

أو ما استعطف للرّجال عليهـ ∴ ـنّ و أوصى برفقهم بالعواني

أو ما أنقذ الفتاة من الوأ ∴ د و هضم الحقوق و الحرمان

---

[1] الديوان، ص 265 .

أو ما بشّر المربّي للبنـ ∴ ـت بأمن اللّضى و سكنى الجنان

هذه قيمة الفتاة لدى الشّر ∴ ع فدع عنك غمطك بامتهان

إنّ الشّاعر يصرّ أيما إصرار، و يذكّر دوما بالمكانة العظيمة الّتي خوّلها الإسلام للمرأة، و من ثمّ كان حرصه على النّهوض بالمرأة في إطار إسلامي صحيح و هو نفس ما ذهب إليه شوقي حين نصح النّساء بالعودة إلى الشّريعة الإسلاميّة فهي خير معين [1]:

خذ بالكتاب و بالحديث ∴ و سيرة السّلف الثّقات

و ارجع إلى سنن الخليـ ∴ ـقة و اتبع نظم الحياة

هذا رسول الله لم ∴ ينقص حقوق المؤمنات

العلم كان شريعة ∴ لنسائه المتفقهات

رضن التجارة و السيا ∴ سة و الشّؤون الأخريات

. . . و حضارة الإسلام تنـ ∴ طق عن مكانة المسلمات

و لم يكن ليخرج المرأة الجزائرية من البؤس و الجهل و الاضطهاد الّذي فرضته عليها العادات و التّقاليد الاجتماعيّة و كرّسه الاستعمار سوى حركة ثوريّة تقدّمية تقضي على الاستعمار و على تلك المجموعة من التراكمات الثقافية التي قيّدت آفاق المرأة و تطلّعاتها و حدّدت مجال ممارستها الاجتماعيّة .

إنّ التّصاعد الثّوري أكسب المرأة وعيا وزادها نضجا، و هكذا أخذت تحتلّ مكانة متزايدة الأهميّة في الحركة الثّوريّة [2]، "فالحرب التّحريرية أطلقت العنان لهذه القوى المكمونة

---

[1] محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي، مرجع سابق، ص 253 .

[2] Frantz fanon, l'an « 5 » de la révilution algérienne . ip. cit. p 98.

في المرأة، و مشاركتها جنبا إلى جنب في ميدان الكفاح مع الرّجل قد أحدثت انقلا با جذريا في المفاهيم و الأفكار . . . "[1].

و قد تغنّى كثير من الشّعراء بشجاعة المرأة و مشاركتها في الثّورة المظفّرة و ما من شكّ في أنّ محمّد العيد الّذي تابع قضيّة المرأة عبر مختلف أطوارها سيكون من الأوائل الّذين يتحدّثون عنها إبان الثّورة التّحريريّة و ما قصيدة "ثورة بنت الجزائر" إلاّ دليل على ذلك فهو ينوّه من خلالها بالمرأة الّتي تجاهد و تضحّي إلى جانب أخيها الرجل بغية تحقيق هدف سامي هو استقلال بلادها حتّى إنّك لتجدها تسبق الرّجل في البأس و الصّبر على المحن :

قد سبقن الرّجال في البأس صبرا ∴ و تحملن فتنة الأضداد

و هي تحمل السّلاح و تشهره في وجه العدوّ غير آبهة بالموت الّذي يتربّص بها من كلّ حدب و صوب:

واتّخذنا من الرّصاص عقودا ∴ و انتطقنا بـه على الأكباد

و اعتقلنا رشّاشنا ساهرات ∴ شاهرات له على استعداد

و قـدحنـا زنـادنا فقهرنا ∴ و بهرنا الـعدا بقدح الزّناد

فإذا جنسنا اللّطيف عنيف ∴ و شريف في ساحة الأمجاد [2]

و يعود الشّاعر ليؤكّد على ضرورة التّعاون بين الجنسين و أنّه سبب من أسباب التّقدّم الاجتماعي المنشود، ذلك التّعاون القائم على أسس من التّقوى و الطّهر[3]:

قد أقدم الجنس اللّطيف مناضلا ∴ مع صنوه الجنس الكثيف فأبهرا

---

[1] د. أنيسة درار بركات، أدب النضال في اجزائر من سنة 1945 حتى الاستقلال، الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب 1984، ص48.

[2] الديوان، ص 430.

[3] د. محمد بن سمينة، محمد العيد شعره الإسلامي، مرجع سابق 254.

و تعاون الجنسين حسن توازن ∴ يفوز مجتمع عليه توفّرا

لكن سداه لنا و لحمته التقى ∴ و الطّهر فلنربأ به أن يقذرا

يأبى لنا الإسلام إلاّ صونه ∴ ليكون من كلّ الهنات مطهّرا

إنّ ما نخلص إليه هو أنّ الشّاعر كعادته تتبّع قضيّة المرأة في جميع مراحلها بدءا بعهد الظّلم و الاضطهاد مرورا بالدّور الّذي لعبته المرأة إبّان حرب التّحرير ليرسم لها طريقا واضح المعالم بعد أن طلع فجر الحرّيّة على الوطن و هو في هذا كلّه يغرف من المبادئ الإسلاميّة مؤكّدا أنّها الطّريق الوحيد لخلاص الأمّة و لخروجها من كلّ محنها، و لن تجد إلى ذلك سبيلا غير سبيل العلم و المعرفة فبواسطتهما يمكنها – و قرينها – أن تتخطّى كلّ الصّعاب و أن تستوعب تعاليم دينها الحنيف فتظفر بالسّعادة الحقيقيّة .

4- العلم :

التفت علماء الأمّة إلى حالة شعبهم، فوجدوها مزرية تدعو للقلق، فقد كانت الجزائر تحت أنياب البؤس يمضغها مضغا و الفقر يأكلها أكلا، و كانت فوق هذا و ذاك تتخبّط في جهالة عمياء و تعمه في ضلال مبين . كلّ ذلك كان نتيجة لخطّة استعماريّة وضعها المحتلّ و عمل على تحقيقها و بالفعل فقد كاد أن يتمّ له مراده لولا بعض المخلصين من أبناء الوطن يتقدّمهم علماء الحركة الإصلاحيّة الّذين تفطّنوا لمرامي المستعمر، فكانوا له بالمرصاد بحيث عملوا على ردّ كيده و كان لا بدّ لهؤلاء من خطّة مضادّة محكمة يتبعونها في الرّدّ على المحتلّ، و قد هدتهم بصيرتهم – بعد بحث عميق و دراسة مستفيضة – إلى أن الجهل كان أوّل و أحسن معين يعين فرنسا و يساعدها على نيل مبتغاها، عن هذا يقول أبو اليقظان: " . . . درسوا [1] علل الأمّة

[1] يريد العلماء .

و أدوائها و فحصوها بمسبار العلم و العقل فوجدوا أصل دائها يرجع إلى أمرين خطيرين : تغلغل الجهل في أحشائها و استفحال الخرافات و الأوهام في أدمغة أبنائها"[1] .

و لعلّ الأمر الثّاني كان نتيجة حتميّة للأمر الأوّل، فالجهل يغمض عين صاحبه بل يعميها عن الحقيقة فيصبح الشّخص لا يفرّق بين صالح الأشياء و طالحها كما لا يستطيع التّفريق بين الحقّ و الباطل، و من ثمّ يكون من السّهل على أيّ كان أن يزرع في ذهنه ما يريد، و هكذا وجد أصحاب البدع و الخرافات الآذان الصّاغية و القلوب الفارغة الّتي ما فتئت امتلأت بالأوهام و الضّلالات الّتي زرعها فيها كلّ دجّال أفّاك.

و لمّا كان ذيوع تلك الخرافات و انتشارها نتيجة حتميّة لذيوع الجهل و تفشّيه كان لا بدّ من القضاء عليهما معا، و هكذا التفت المصلحون إلى الإصلاح العلمي "فدرسوا مسارب الجهل إلى جسم الأمّة و كيف تكون مكافحته و أساليب العلم القديمة و كيف يكون إصلاحها وحاجة الأمّة إلى الفنون الحديثة و كيف يمكن جلبها فساروا في هذا السّبيل خطوات بعيدة قلّصوا ظلّ الجهل و نشروا أنوار العرفان، فتحوا المدارس في مختلف البلاد، و هذّبوا أساليب التّعليم و قرّبوا منال العرفان إلى الأفهام فكانت في الشّعب الجزائري الّذي كان مضرب الأمثال في الأميّة و الرّطانة نهضة علميّة مباركة تضمّ بين أبنائها ثلّة من العلماء الفطاحل و الخطباء المصاقع و الكتّاب المجيدين و الشّعراء الفحول[2]" .

إنّ مثل هذا التّطوّر في الفكر الإصلاحي دفع بالعلماء و معهم الأدباء إلى المناداة بالأخذ بأسباب الرّقيّ و التّقدّم و لا سبيل إلى ذلك إلا سبيل العلم و المعرفة :

الله أكبر نور العلم وضّاح ∴ و للخلائق أمراح و أفراح

---

[1] البصائر، س1، ع1، 1 شوال 1354 هـ الموافق لـ 27 ديسمبر 1935، ص 5 .

[2] المرجع نفسه، ص 5 .

و الكون بيت عديم النّور محتجب ∴ و العلم زيت و هذا العقل مصباح

و العقل رثل تسير الكهرباء به ∴ كما تسير بهذ الشّبح أرواح[1]

و قد اهتمّ الكثير من الشّعراء الإصلاحيّين بموضوع العلم و عملوا على الدّعوة إليه و يأتي في طليعة هؤلاء الشّاعر محمّد العيد الّذي أفرد موضوع العلم بعناية حاصّة و قد أوقف الكثير من قصائده عليه داعيا فيها إلى تعظيمه و تكريم رجالاته، مشجّعا ذوي البرّ على البذل بسخاء في سبيل تحقيق مشاريعه . فبالعلم وحده تحقّق الأمّة عزّتها و تقدّمها، و هو السّبيل الأوحد إلى تهذيب الفرد و ترقيته، من أجل هذا و ذاك لم يتوان الشّاعر على استغلال أيّ مناسبة للتّذكير بفضائله و حثّ الشّباب على التمسّك بأهدابه، فها هو يهيب بهم إلى السّهر الدّائب في تحصيل العلوم قائلا :

يا معشر الطّلاّب هل من منصت ∴ منكم لوحي الشّعر في إلهامه ؟

أسديه منّي حكمة مملوءة ∴ عظة يرددها مدى أيّامه

العلم صرح مجادة و سعادة ∴ و من التّعلّم شيّد ركن قوامه

و العلم لم تنحصر أفهامه ∴ فتناولوا يا قوم في أفهامه

و العلم أعمال تزاول، لا منى ∴ تنوى فسيروا في هدي أعلامه

و لربّ غرّ ظلّ يرقب ليله ∴ يرجو استقاء العلم من أحلامه

فخذوا بأسباب العلوم حقيقة ∴ و ذروا أخا الأوهام في أوهامه[2]

---

[1] الأبيات من قصيدة "لا حياة إلاّ بالعلم"لسعد الدين خمار نقلا عن د . عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري، مرجع سابق، ص574 .

[2] الديوان، ص 89 .

إنّ العلم يؤخذ بالجدّ و الكدّ و العمل المتواصل ليس عن طريق التّمني و التّخاذل و التّقاعس و الشّاعر يؤمن كلّ الإيمان أنّ العلم لا ينفع و لا يؤتى أكله إلاّ إذا كان محصّنا بحصن متين قويّ يسدّد خطاه و يوجّهه نحو سبل الرّشاد، و يصونه من الانحراف و الزلل ذلك هو الدّين، فالشّاعر يؤكّد دوما على الرّجوع إلى المنبع الصّافي الّذي لا يشوبه فساد و لا كدر ، فهو لا يدعو إلى العلم المطلق بل يقيّده بالوازع الدّيني و الأخلاقي حتّى يحقّق الهدف المرتجى منه :

إذا لم يكن للعلم دين يقوده ∴ تحرف عن نهج الهدى و تنكّبا [1]

و هاهو يعود للفكرة نفسها في قصيدته "خطر العلم على البشريّة" إذ يؤكّد أنه لا يدعو إلى العلم الفتّاك الّذي يفتك بالأمم و يهدم حضاراتها و يثير النّزاعات بينها، فهذا بعيد عن مرماه، و أمّا ما يصبو إليه و يرشد النّاشئة إليه هو ذلك العلم الّذي يمكن للقيم الفاضلة في نفوس النّاس، و ينشر بينهم المحبّة و السّلام و التّعاون إلى جانب الخير و الحقّ و الرّشاد :

لا أرى العلم هدي ما لم يكن ∴ صافحا عن زلّة الجهل حليما

و أمينا عادلا في حكمه ∴ و كفيلا بالمؤاخاة زعيما

يعرض الحقّ على الخلق كما ∴ يرشد الخلق إلى الحقّ حكيما

هذه مأثرة العلم الّتي ∴ قد أثرناها عن العلم قديما [2]

فالشّاعر إذن يدعو للعودة إلى الأصالة و التّراث من أجل الاستفادة الحقّة بالعلم، و هو إن يدعو إلى الرّجوع للماضي و الاغتراف منه لا يرفض الجديد و لا يدير له ظهره، و غاية ما ذهب إليه هو توخّي الحذر الحذر في أخذ العلوم حتّى يتسنّى للمتعلّم اختيار ما يعينه

---

[1] الديوان، ص 195 .

[2] الديوان، ص 337 .

في حياته و يفيده، و نبذ كلّ ما لا يخدم البشريّة من مبتكرات قد بدأت تغزو الدّيار بصالحها و طالحها و من ثمّ قد تكون نعمة على الشّعب و قد تكون نقمة إن هو لم يحسن الإفادة منها :[1]

و حيّ على نشر العلوم فإنّها :. حصون لحفظ الشّرق من الغرب

توخوا بها البحث اليسير و أخلصوا :. مداركها للنّاس من بحثها الصّعب

و خوضوا بها بحر الحياة تكن لكم :. سفينة أمن، مأمونة الثّقب [2]

إنّ العلم حصن حصين ضدّ شتّى أنواع الاستعمار، فالمحتلّ لا يغزو بلدا ما إلاّ إذا رأى الجهل قد تفشّى فيه، و أنّ العلل و الأسقام عمّت أرجاءه حتّى شلّت فكر أبنائه فيسهل عليه بذلك التّربّع على عرش حكمه دون أن يجد رادعا يردعه أو مانعا يمنعه فالكلّ يتخبّط في جهله و مشغول عنه، لهذا تجد الشّاعر يطالب بنشر العلوم لأنّها ذرع واقية للشّرق تحفظه و تقيه من كيد الغرب، و هو مع حثّه على الإقبال على العلم يوضّح الكيفيّة الّتي يجب اتّباعها للاستفادة منه حقّ الإفادة ذلك بأن يؤخذ العلم تدريجيا فمن اليسير إلى العسير، و من المعلوم إلى المجهول حتّى تكون بذلك في متناول طالبيه، كما يجب ربط المعرفة الإنسانيّة بمحيط الإنسان حتّى يستعين بها فيما يساعده على تطوير حياته و السّموّ بها .

و إيمانا من الشّاعر أنّ الشّباب هم عدّة الأمّة و مستقبلها يخصّهم بالنّصح و يأخذ بيدهم رأفة بهم ليوجّههم الوجهة الصّحيحة المتمثّلة في الجمع بين الأصالة و التّمسّك و الاعتزاز بها مع الانفتاح و الإقبال على معطيات عصرهم فيما يأخذونه من العلوم الإنسانيّة، و هو لا يتوانى عن تحذيرهم من مظاهر المدنية الزائفة الّتي قد تضرّ أكثر ممّا تنفع :

و يا نشأة القطر حقّ التّناد :. إلى ردّ عزّتنا الدّابرة

---

[1] ينظر : محمد بن سمينة، محمد العيد ، شعره الإسلامي، مرجع سابق، ص 426 .

[2] الديوان، ص 248 .

نقلتم عن الغرب عرى الرّؤوس ∴ و بعض بها رجه الساحرة

فأين ملاجئه القائمات ؟ ∴ و أين مكاتبه العامرة ؟

إذا أصبح النّاس غلف القلوب ∴ فما تنفع الأرؤس الخاسرة [1]

و الشّاعر لا يكتفي بتوجيه الشّباب الوجهة الصحيحة بل يولّي وجهه شطر مربّيهم و المشرف على تكوينهم فيرسم له المنهج القويم الّذي يساعده على النّجاح في مهامّه الصّعبة، فيلفت انتباهه أنّ أوّل خطوة للنّجاح في مسيرته المقدّسة هي العودة إلى الأصالة بكلّ قيمها و مقوّماتها ثمّ الإفادة بعد ذلك من المعاصرة بمختلف علومها و فنونها:

قل للمعلّم أكثرت الحلول إلى ∴ أن صرت في حيرة منها و بلبال

حافظ على الرّوح فيما تفتيه و مل ∴ عن كلّ مستورد للرّوح قتّال

و خذ، و دع من فنون العلم مقتنيا ∴ فإنّها ذات ألوان و أشكال

ما أحوج الشّعب في العصر الجديد إلى نشء جديد لعلم العصر نخال

مخضرم القطف يذكو من ثقافته ∴ عرف الورود و ريح الشيح و الضال [2]

و هكذا فقد جمع الشّاعر بين الشّباب و معلّمهم في النّصح و الإرشاد حتّى يتمّ لهم المشاركة في بناء أمّتهم البناء الصّحيح القائم على أسس متينة.

و من مفارقات العصر العجيبة، و الاختلافات البيّنة بين الغرب و الشّرق و الّتي تحزّ في نفس الشّاعر و تجعله في حيرة من أمره ما يرى من تطوّر الغرب و تحكّمه في شؤون الحياة، بينما لا يزال بنو قومه في ظلمات يعمهون، وإنّ تلك المفارقة المخذلة ما كانت لتكون لو لم يفرط المسلمون فيما كان بين أيدي أسلافهم من معرفة أهلّتهم لأن يكونوا في صدارة الحضارة

---

[1] الديوان، ص 252.

[2] الديوان، ص 504.

الإنسانيّة، و الأكيد أنّ المسلمين لن يستردّوا ما أضاعوه من مجد تليد إلاّ إذا أقبلوا على العلم و العمل و تشبّعوا بروح الجهاد و النّضال [1] :

يا شباب العلم قدّس مشعلا ∴ لك جلّى ظلم الكون اتقاد

و الحقوا الرواد في أجوائهم ∴ إنّهم بالكشف جابوها طرادا

مارسوا الأسباب فانقادت لهم ∴ و أضعناها فلم تبد انقيادا

سابقوا الأنجم في أفلاكها ∴ و امتطوا فيها الصّواريخ جيادا

أينَ نحن اليوم من أهدافهم ∴ إنّهم قد أدركوا منها القيادا

فتحرّر و تفتّح مثلهم ∴ و اتّسع فكرا و علما و اجتهادا [2]

و يدعو الشّاعر الشّعب كلّه للأخذ بكلّ ما يسمو بشخصيّة أفراده من معارف، فالكون كلّه ميدان للبحث و مجال للتّفكير و التّدبّر :

يا شعب إنّ الكون حقلك فاحترث ∴ و ازرع فحقل الكون أخصب مزرع [3]

إنّ محمّد العيد كان دائم الرّبط بين العلم و الدّين ذلك لأنّه كان متشبّعا بروح الإسلام و هو دأب الكثير من شعراء مدرسته من أمثال حافظ إبراهيم الّذي طالما ربط بين العلم و الأخلاق:

لا تحسبنّ العلم ينفع وحده ∴ ما لم يتوّج ربّه بخلاق

كم عالم مدّ العلوم حبائلا ∴ لوقيعة و قطيعة و فراق

و العلم إن لم تكتنفه شمائل ∴ تعليه كان مطيّة الإخفاق [4]

---

[1] ينظر : محمد بن سمينة، محمد العيد، شعره الإسلامي، مرجع سابق، ص 248 .

[2] ينظر : محمد بن سمينة، محمد العيد، شعره الإسلامي، مرجع سابق، ص 248 .

[3] الديوان، ص 149 .

[4] ديوان حافظ، ج1، ص 179 .

و كان على إثر اهتمام محمّد العيد بالعلم و تشجيعه الشّباب على النّهل منه و حثّهم على الإقبال عليه، أن هتف لكلّ افتتاح مدرسة أو تدشين نادي أو إنشاء جمعيّة، ذلك أنّه لم يكن يرى فيها سوى منبرا للإصلاح ومعقلا للعلم و المعرفة .

5- المدارس و النّوادي و الجمعيّات:

"بذل محمّد العيد عناية خاصّة بالصّحافة و المدارس و المساجد و الجمعيّات و النّوادي و أكثر من الحديث عن تأسيسها حرّة مستقلّة عن الاستعمار و أتباعه لكي تخدم الأهداف الوطنيّة"[1] .

إنّ النّادي كان يمثّل له مصحّة لشعب تفشّت فيه الأدواء و توزّعت شبابه الطّرق و الحانات- كما رأينا سابقا- :

داووا به مرضى الهوى كمصحّة ∴ فيها لكلّ وجيعة ترياق

لهذا فقد كان يحتفي أيما احتفاء به، فها هو ينظم قصيدة في نادي التّقدّم الّذي أنشأ في مدينة البليدة يقول فيها :

منار به صوت العروبة يعتلي ∴ و كهف به نشء البليدة يحتمي

ألا أيّها النّادي تحيّة شاعر ∴ و لوع بإعلان المفاخر مغرم

و يا فتية النّادي سلام و رحمة ∴ و بشرى، فهذا اليوم أعظم موسم [2]

و للشّاعر قصائد كثيرة أشاد من خلالها بتلك النّوادي الّتي كانت تفتتح في مختلف أصقاع البلاد، و كانت تلك النّوادي تعزّز بجمعيّات ثقافية تسهر عليها ماديا بجمع التّبرّعات و أدبيا بوضع البرامج و تنظيم النّشاطات و نتيجة لمضايقة المستعمر للحركة الإصلاحيّة و محاربته لها، فقد

---

[1] د . أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، مرجع سابق، ص 146 .

[2] الديوان،ص 92 .

غلب على أغلب تلك الجمعيّات طابع الإقليميّة باستثناء جمعيّة العلماء المسلمين[1] و هاهو الشّاعر محمد العيد يلقي قصيدته الخالدة في الإجتماع التأسيسي الأوّل للجمعيّة و مطلعها:

على الرّحب حلوا أجمعين .:.فأنتم ضيوف في حمى الله و الشّعب

و هو يعتبر يوم تأسيس الجمعيّة يوم عيد تحقّقت فيه الأماني البعيدة :

و قد حلّ هذا العيد باليمن جامعا .:.لشملكم فاستأصل البعد بالقرب

هنيئا لكم هذا اللّقاء فإنّه .:. بشير بما تبنون من راسخ الحبّ

فخطّوا له منكم حدودا منيعة .:. من العلم و الشّورى و من صالح الكسب

شكرت لكم يا رفقة العلم وصلة .:. أعدتم بها معنى السّرور إلى قلبي[2]

إنّ النّوادي و الجمعيّات الثّقافيّة كانت تجسّم الإصلاح الفكري و النّهضة الأدبيّة و بالمقابل كان لا بدّ من نهضة ماديّة تحدّ من وطأة الحاجة و الفقر و التّشرّد و غيرها من المظاهر السّلبيّة الّتي كانت تدفع بالنّاس إلى الانحراف، و من ثمّ كان التّفكير في تأسيس الجمعيّات الخيريّة لتخفّف من معاناة المواطن.

كانت القصائد الّتي تلقى في تلك الجمعيّات عبارة عن مرآة تعكس الواقع المؤلم للمجتمع الجزائري "يحشد لها الشّاعر من عناصر التّأثير – أسلوبا و مضمونا – ما وسعته الشّاعريّة المرهفة المستلهمة مأساة الشّعب"[3]. و ما قصيدة "أيها الرّافعون القصور" الّتي ألقاها محمّد العيد في حفلة الجمعيّة الخيريّة إلاّ خير شاهد على ذلك، فبعد أن أشاد الشّاعر بأعضاء الجمعيّة الّذين يسهرون على التّخفيف من معاناة الشّعب انتقل لتعداد المآسي الّتي يعاني منها أبناء الوطن

---

[1] ينظر : صالح خرفي ، الشعر الجزائري الحديث، ص 144 .

[2] الديوان، ص 247 .

[3] ينظر : صالح خرفي ، الشعر الجزائري الحديث، ص 146 .

من فقر و جوع و غيرهما من الآفات الّتي أصبح يتخبّط فيها المجتمع، و ممّا جاء في القصيدة قوله يرحّب بأعضاء الجمعيّة :

سلام على الأوجه الزّاهرة ∴ سلام على الأنفس الطّاهرة
سلام على النّخبة المرتضاة ∴ سلام على العصبة الظّافرة
على كلّ من فرّج الكرب أو ∴ أجار من الأزمة الجائرة [1]

و قد ألقى الشّاعر قصيدة ثانية بمناسبة افتتاح دار الجمعيّة الخيريّة بالعاصمة يقول فيها :

يا دار شادك للخيرات أخيار ∴ فيضي على النّاس بالخيرات يا دار
كوني سماء إليها الخلق راغبة ∴ و غيثها نازل للخلق مدرار [2]

و إن كانت الجمعيات الخيرية تعزّز الرّسالة الاجتماعيّة الّتي نهضت لها النّوادي و الجمعيّات، فإنّ المدارس لم تكن أقلّ شأنا منها و لا أضعف أثرا. و إنّها لتعدّ بحقّ "صفحة مشرقة من صمود الشّعب في سبيل شخصيّته و مقوّماته من عقيدة و حضارة و لغة"[3].

و قد كان محمّد العيد يحثّ على إنشائها و يشجّع على تعليم أبنائها :

ابنوا المدارس نظرة مزدانة ∴ تحكي المغارس في الرّبيع المونع
و ابنوا المساجد حرّة ليست إلى ∴ متحكّم تعزى و لا مبتدع

و هو إنّما يحثّ الأمّة على تشييد المدارس لعلمه بالدّور الخطير الّذي تقوم به هذه الأخيرة لهذا تجده يصرّح قائلا: "فإذا شاءت الأمّة الجزائريّة أن تنال من العلم منالا عظيما و تحتلّ

---

[1] الديوان، ص 250.

[2] الديوان، ص 258.

[3] ينظر : صالح خرفي ، الشعر الجزائري الحديث،مرجع سابق، ص 146.

بين الأمم مقعدا كريما فلتولّ وجهها شطر التّربية المدرسيّة و لتجعلها الحجرة الأساسيّة لصرح مجدها و لتعهد بها إلى ربّانيين بصراء خبراء . . ."[1].

إنّ الجزائر عرفت في الثّلاثينيات و الأربعينيات نهضة مزدهرة في فتح المدارس الحرّة مثل المدرسة القرآنيّة في تبسّة و مدرسة الشّبيبة الإسلاميّة في الجزائر و مدرسة الاستقامة في قالمة. وكان شعارها رفع الأميّة و تصحيح العقيدة إلاّ أنّ "الأبعاد الحقيقيّة لهذه المدارس لا تلمس في برامجها المقرّرة أو قوانينها الأساسيّة و إنّما فيما يقع داخل فصولها من انفجار مشاعر كامنة، و انطلاق آمال مكبوتة وجدت متنفّسا جديدا لها"[2] و عموما فإنّ المدرسة الحرّة قد لعبت دورا رائدا في توعية الشّعب و تحريضه على المطالبة بحقوقه الشّرعيّة المتمثّلة في تحرّره من أغلال المستعمر و قيده، لهذا فقد كانت الجزائر تشهد في مهرجنات افتتاحها و اختتام السّنوات الدّراسيّة بها أياما تاريخيّة فيوم افتتحت مدرسة "دار الحديث" بتلمسان قام محمّد العيد يهتف لها، و قد جادت قريحته بثلاث قصائد "تحية دار الحديث"، "اسوح شعرك"، و"دعاك الأمل"، يقول في القصيدة الأولى :

أحيّي بالرّضى حرما يزار ∴ و دار تستظلّ بها الدّيار
أحيّي خير مدرسة بناها ∴ خيار في معونتهم خيار
تلمسان احتفت بالعلم جارا ∴ و ما كالعلم للبلدان جار
و يا دار الحديث عليك تلقى ∴ مهمّات لنا و منى كبار[3]

---

[1] البصائر، س1، ع2، 15 شوال 1354 هـ- 10 جانفي 1936 ، ص 3 ، التربية و أثرها في المجتمع.

[2] المرجع السابق، ص 152 .

[3] الديوان، ص 79 .

فالقصيدة تعبّر عن فرحة الشّاعر و ابتهاجه لمثل هذا الإنجاز العظيم الّذي يمكّن أبناء الشّعب من المضيّ قدما نحو الازدهار و التّقدّم و هو يشيد بصاحب الفضل الأعظم في إنجازه الشّيخ البشير الإبراهيمي ليذكّر بعد ذلك بما كانت تزخر به مدينة تلمسان من حضارات و عبقريّات و شخصيّات تاريخيّة تعاقبت عليها عبر مختلف العصور .

و بنفس الحفاوة، و بنفس الاعتزاز ينظم الشّاعر قصيدته الثّانية :

استوح شعرك من حنايا الأضلع ∴ و استجل في القسمات حسن المطلع[1]

و تعتبر القصيدة بحقّ سجلاّ صادقا جمع فيه الشّاعر بين التّاريخ العربي و الإسلامي و بين حاضر الجزائر و ما آل إليه، كما جمع فيه بين الإصلاح الوطني و الأخلاقي و الثّورة الجامحة ضدّ الأعادي.

العلم سلطان الوجود فسد به ∴ من شئت أو ذد عن حياضك و ادفع

و الجأ له بدل الحصون فلا أرى ∴ حصنا كمدرسة سمت أو مصنع

إنّ الشّاعر كان يحتفي بتلك المدارس قلاعا للثّورة و فتوحات للنّصر المبين :

فتح جديد قد بدا ∴ في فتح "مدرسة الهدى"

ركب إلى العرفان، أد ∴ هم في سراه و أنجدا

من سامنا بإذايـــة ∴ فعلى الجبال قد اعتدى

نحن الجبال، بنو الجبا ∴ ل صدى الجبال بنا حدا

لا خوف من ظلم الطّر ∴ يق، فقد جلونا المقصدا[2]

---

[1] الديوان، ص 143 .

[2] المرجع نفسه، ص 181 .

و من خلال قصيدة الشّاعر " إلى العلم" تتبيّن لنا مكانة المدرسة في النّهضة الجزائريّة الحديثة إذ يقول :

أراك بلا جدوى – تضجّ من الظّلم ∴ إلى العلم إن رمت النّجاة إلى العلم

و لا تدرع إلا المعارف فإنّها ∴ سوابغ ينبو الطّعن عنها فلا يدمي

رعى الله في أرض الجزائر نهضة ∴ مباركة في العلم، تسمو إلى النّجم

و ترمي إلى أهدافها بقصودها ∴ موفّقة الأنظار صائبة السّهم

و تنشئ للفصحى مدارس عدّة ∴ مشيّدة البنيان، محكمة الدّعم[1]

إنّ المتقصّي لأشعار محمّد العيد سيجددون أدنى شكّ أشعارا عديدة يتناول فيها الحديث عن المدارس و فضلها في بناء المجتمعات ممّا لا يتّسع له صدر هذه الرّسالة و هي كلّها "نداء جهير للعلم، و تثويب للجزائر بأن تجدّ في السّير حتّى تحلق بالنّاهضين به، و كلّها حفز للهمم الخامدة أن تتحرّك، و للنّفوس الرّاكدة أن تنطلق و للأيدي الجامدة أن تتبارى في البذل "[2] و من ذلك ما جاء في قصيدته الّتي أنشدها أثناء حفل تدشين المعهد الكتّاني بقسنطينة و الّتي عبّر فيها عن فرحه العميق لمثل ذلك الإنجاز العظيم ، و قد استهلّ القصيدة بمدح العلم و تبجيله ثمّ أشار إلى تلك الحفلة الّتي جمعت خير أبناء الوطن :

وقف العلم داعيا و مجيبا ∴ فسمعنا له دويّا عجيبا

هذه حفلة إلى العلم آوت ∴ غرّ أنصاره شبابا و شيبا

يا قسنطينة أحمدي سعي حرّ ∴ ذكره في البلاد يعبق طيبا

---

[1] الديوان، ص202 .

[2] القول للشيخ البشير الإبراهيمي ، الديوان، ص 117 .

أ وتر القوس لاقتناص المعالي ∴ و رمى سهمه فكان مصيبا[1]

و القصيدة كلّها فيض من المشاعر الوطنيّة، و فخر و اعتزاز بالعلم و العلماء.

و عموما فإنّ المدارس الحرّة إلى جانب الجمعيّات و النّوادي قد استطاعت أن تنهض بالجزائر نهضة قائمة على الإصلاح سواء منه العلمي أو الاجتماعي فقد استطاعت أن تتخلّص من التّبعيّة للمستعمر و برامجه المدسوسة الّتي لا تخدم سوى مصالحه و مآربه، كما استطاعت في الوقت ذاته أن تقضي على السّموم الّتي كان ينفثها الدّجّالون المضلّلون في أوساط الشّعب فكان أن قضت على الانحراف الدّيني و ما انجرّ عنه من أوضاع مزرية طالما عانى الشّعب من ويلاتها فمهّدت بذلك الطّريق إلى الخطوة الحاسمة الّتي تليها و هي القضاء على المستعمر و تخليص الجزائر من ذلك الضّيف الثّقيل.

---

[1] الديوان، ص 190.

الفصل الرابع

الشاعر و الثّورة

الإرهاصات الأولية للثورة

1- شعره قبل أحداث 8 ماي 1945 :

لقد أشرنا سابقا أنّ مبدأ الفكر الإصلاحي كان قائما على الدّعوة إلى الاستعداد الثّقافي و الاجتماعي قبل المناداة بالثّورة، و مهادنة الخصم و العمل بحكمة و حذر و إيثار السّلم و لكن دون الاستسلام للمهانة و الاحتقار :[1]

سالموا كلّ من طغى ∴ في الخصومات أو فجر

نحن البراء من الجحود ∴ السّالمون من البطر

المؤثرون السّلم إلاّ ∴ أن نهان أو نحتقر[2]

لكن و بالرّغم من مبدإ الحركة القائم على المهادنة و التّروي، فقد كانت تطفو على الواجهة بعض المعاني الدّاعية إلى اتخاذ الجهاد و التّضحية سبيلا للنّجاة و الخلاص، و قد يحدث أن يستغني الشّاعر عن التّصريح مكتفيا بالتّلميح، فها هو محمد العيد يحدّث ذلك الضّيف الثّقيل الّذي أطال الإقامة حتّى ناهزت المائة سنة فيقول :

أطلت بجانبي يا ضيف فارحل ∴ لحاك الله من ضيف ثقيل

مضى عليك منذ نزلت عليّ قرن ∴ متى يا ضيف تؤذن بالرّحيل[3]

و إذا كان الشّاعر يوجّه حديثه إلى ذلك الضّيف الثّقيل الّذي لم يتزحزح و لم يبرح مكانه فإنّه لا محالة سوف يلتفت إلى من شجّعه و لا زال يشجّعه على تلك الإقامة غير المرغوب فيها و هكذا لن نستغرب حين نراه يسخر من النّواب الّذين يطأطئون الرّؤوس خنوعا و خضوعا لذوي السّلطة و يتواطؤون معهم :

---

[1] ينظر: الوناس شعباني، تطور الشعر الجزائري منذ سنة 1945 حتّى سنة 1980، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 48 .

[2] الديوان، ص 134 .

[3] الديوان، ص 97 .

أفدني برأي في النّيابات هل حوت ∴ أساود في قاعاتها أو وسائدا

و إلاّ فما تلك الهموم الّتي سرت ∴ فمن ذاق منها طأطأ الرّأس هامدا

فيا نائب ناب البلاد بحادث ∴ و خلف شعبا قائما فيها قاعدا[1]

عرفنا سابقا أنّ الحركة الوطنيّة الجزائريّة تدرّجت في سياستها عبر مراحل فهي في بادئ أمرها لم تكن ترمي لأبعد من المساواة مع فرنسا "ليس لنا من سياسة إلاّ السّياسة الفرنسيّة الدّيمقراطيّة الحقّة الّتي انبنت على الحرّية و الأخوّة و العدالة"[2] إلاّ أنّ التعنّت الاستعماري دفع بهذه الحركة إلى موقف آخر أكثر حزما و صرامة، موقف ثوري، و لعلّ أبرز وجوه ذلك التّعنّت تتمثّل في الأمر بإغلاق مساجد العاصمة كان ذلك سنة 1933، و كان بهدف تعطيل مسار الحركة الإصلاحيّة عامة و إيقاف نشاط المصلح الشّيخ الطيب العقبي على وجه الخصوص، إنّ قرار إيقاف الشّيخ كان بمثابة القطرة الّتي أفاضت الكأس، فقد أثار موجة استياء عريضة مهّدت الطّريق للثّورة، و قد أصبح الشّعراء يتوعّدون فرنسا بدنوّ رحيلها و بقرب يوم تتفجّر فيه المشاعر المخنوقة و تظهر الأحاسيس المكبوتة[3]:

أرى الأنفاس مرهقة بجوّ ∴ كمثل الغاز يوسعها بخنق

يدوّي بالوعيد دويّ رعد ∴ و يومض بالرّدى إيماض برق

فمهلا يا زمان البغي مهلا ∴ فقد أعيى كواهلنا التّلقي

رحى المهجات أنت فكم تلاقي ∴ بك المهجات من محق و سحق

و رفقا منك بالإنسان رفقا ∴ فما هو للهوان بمستحق

---

[1] الديوان، ص 97.

[2] الشهاب، ع12، 28 جانفي 1926.

[3] ينظر : د. صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 192.

لماذا توضع الأسداد ضربا ∴ على فمه، ألم يخلف لنطق[1]

إنّ المحتل الفرنسي لم يكتف بقراره الجائر الّذي يقضي بإغلاق المساجد بل تعدّاه إلى ما هو أخطر بتلفيقه التّهم الباطلة ضدّ رموز الحركة الإصلاحيّة، و هكذا ظهرت للواجهة قضيّة الشّيخ الطيب العقبي الّذي تمّ إيقافه بتهمة القتل[2]. و ما كان توقيف الشّيخ إلاّ حيلة من الاستعمار لتعطيل مسار المؤتمر الإسلامي الّذي تمّ انعقاده سنة 1936 م و الّذي ضمّ مختلف شرائح الأمّة.

و لئن كانت التّهمة الّتي حيكت ضدّ الشّيخ يقصد من ورائها إيقاف نشاط الحركة و القضاء عليها، فإنّ نتائجها أتت عكسيّة بحيث كان لتلك القضيّة الصّدى الكبير في النّفوس و قد أصبحت وثبة صمود و إقدام و تطلّع أكبر إلى خطوة حاسمة تبشّر بغد أفضل :

أيها الحامون بالعلم أرضا ∴ حرّة ساد عليها الدّخيل

هذه آياتنا شاهدات ∴ سوف يتلوهنّ جيل فجيل

نحن للصّدر، و إن خلفونا ∴ فلنا في الأوّلين رعيل

لا تخف في جانب المجد، موتا ∴ فهو موت بالحياة كفيل[3]

إنّ الشّاعر جعل من المؤتمر منطلقا لغد مشرق ينتظر الجزائر، و هو و إن أثنى على انعقاد مثل هذا المؤتمر لا يفوّت الفرصة ليفضح أمر فرنسا، و عادتها المعروفة في إخلاف الوعود و من ثمّة كان خوض المنايا على الشّعب حتما مقضيّا، لذا نجده يتوعّد فرنسا و ينذرها و يحرّض ابن الجزائر في الوقت ذاته على خوض المعارك :

---

[1] الديوان، ص 83.

[2] اتهم الشيخ الطيب العقبي بالتدبير لقتل المصلح ابن كحول.

[3] الديوان، ص 131.

فسوسي المسلمين بكلّ عـدل ∴ و خلّي ضيمهم، فهم الأســـود

فقم يا ابن البلاد اليوم و انـهـض ∴ بـلا مـهـل، فـقـد طـال القعود

و قـم يا ابن البلاد لكلّ لـصّ ∴ تجلّى الـصّبح، و انتبـه الرّقـود

و خض يا ابن الجزائر في المـنايا ∴ تـظـلـلك البـنـود أو اللـّحود

بغى الباغي رداك فخاب سعيا ∴ و للباغي الرّدى، و لـك الخـلـود [1]

إنّ أبيات الشّاعر تلك دعوة صريحة لخوض المعركة ضدّ العدوّ، و كان قبلها قد أبدى أملا لطالما راوده كما راود كلّ جزائريّ أبيّ يتطلّع إلى آفاق جديدة، آفاق يكون فيها سيّد نفسه لا عبد غيره، و قد رأى آماله تتحقّق بانعقاد المؤتمر الإسلامي، فقام يهلّل له و يهتف.[2]

يقول و هو يودّع الوفد الّذي مثّل الجزائر في المؤتمر يقول في نبرة ذروة في التفاؤل :

يا فرنسا بك الجزائر لاذت ∴ و أكنت لك الولاء الشّديدا

فاز فيك اليسار، فاليوم لا عسـ ∴ ـر أليس اليسار فالا حميدا ؟

ليس حقّا أن تحرمي الشّعب حقّا ∴ لـقـي النّار دونـه و الحديدا

ليس حقا أن تستريحي و يشـفى ∴ لـيس حقا أن تسكني و يميدا

يا فرنـسا ردّي الـحقوق علينا ∴ و أقلّي الأذى، و كفى الوعيدا [3]

إنّ مؤتمر 1936م بقدر ما كان ذروة في التفاؤل بقدر ما أصبح ذروة في اليأس، فلقد رأى فيه الجزائريّون نقطة تحوّل هامّة، تمكّنهم من تحقيق مطالبهم الّتي طالما اشرأبت أعناقهم لها،

---

[1] الديوان، ص 303 .

[2] ينظر : محمد الطيب العلبوي، مظاهر المقاومة الجزائرية من عام 1830 حتّى ثورة نوفمبر 1954، الجزائر، دار البعث للطباعة و النشر، ط1، 1985، ص 138 .

[3] الديوان، ص 294 .

و سعوا بشتّى الوسائل إليها، و لكن تجري الرّياح بما لا تشتهي السّفن، فالمستعمر و كعادته يظهر نواياه الحقيقيّة و يخلف الوعود متساويا في ذلك يمينه و يساره فكلاهما وجهان لعملة واحدة.

و إنّ الشّيخ ابن باديس حين تعرّض للأزمة الّتي خلّفها المؤتمر و أراد تجسيمها لم يجد أصدق من أبيات محمد العيد تعبيرا[1]، فقال بعد أن طرح عدّة أسئلة مفادها أنّ فرنسا تماطل دوما الجزائر:"لقد أعلن شاعرنا القومي جواب هذا السّؤال[2]" في قصيده الّذي نشرناه في الجزء الماضي فقال :

و لعلّ من نظم السّيا ∴ سة أن نغشّ أو نغرّ

و لعلّ منها أن يدسّ ∴ لنا، و نجلب للحفر

و لعلّ منها أن يبس ∴ لنا ، لنحلب كالبقر

و لعلّ منها أن نما ∴ طل، كي يساورنا الضّجر[3]

كذب رأي السّياسة، و ساء فالها، كلاّ و الله لا تسلمنا المماطلة للضّجر الّذي يقعدنا عن العمل، و إنّما تدفعنا إلى اليأس الّذي يدفعنا إلى المغامرة و التّضحية".

إنّ قول الشيخ ابن باديس لخير دليل على أنّ الشّاعر كان من الأوائل الّذين تفطّنوا لسياسة فرنسا القائمة على الإخلاف الدّائم، وأنّه كان في طليعة من نادى بالثّورة و بشّر بها، محرّضا أبناء وطنه على خوض غمارها، و هو حين يعبّر عن مبدئه لم يكن يعبّر عن رأي حزب سياسي

---

[1] ينظر : د. صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 204.

[2] السؤال هو "ماذا تريد فرنسا من مماطلتنا" و ورد في مقال كتبه الشيخ ابن باديس بعنوان "هل آن أوان اليأس من فرنسا ؟ " يعرض فيه قضية إخلاف فرنسا وعودها.

[3] الديوان، ص 306.

معيّن، فقد كان يتفادى الانخراط في الأحزاب أو الانحياز لأيّ منها و لكنّه مع ذلك سار في خطّ المطالب الوطنية الّتي تبنّتها تلك الأحزاب و كان يؤيّدها تأييدا غير مباشر[1].

إنّ محمّد العيد بل و الحركة الإصلاحيّة جمعاء قد أدركت خطورة تحوّل الوجود الفرنسي من احتلال عسكري متسلّط إلى استعمار مقيم، أخذت ثماره تظهر بوضوح مهدّدة الكيان الجزائري، و هكذا تحوّلوا من متفجّعين و محسسين على الجهاد إلى أصحاب دعوة للوعي السّياسي و القومي[2].

من أجل هذا كلّه، فإنّ تقييم المؤتمر الإسلامي لا يكون بنتائجه المباشرة بل بما خلّفه في النّفوس ف "الّذي يريد أن يقيم المؤتمر الإسلامي و أبعاده في التّعبئة السّياسية لا يحتكم إلى مظهره المتداعي، و لا إلى مطالبه المتسامحة، و لا إلى وفوده و لجانه اللّاهثة ذهابا و إيّابا على عرض البحر الأبيض، و إنّما يحتكم إلى الأبعاد المعنويّة الّتي انطلقت منه، و المشاعر الّتي انتعشت فيه و الآمال الّتي تصاعدت في انعقاده الأوّل، ثمّ تهاوت في ذكرياته السّنويّة المتلاحقة"[3].

و لعلّ الأبيات التّالية لمحمد العيد تدلّ على مدى ما وصل إليه الوعي الوطني لدى الشّاعر فها هو يحثّ الشّعب على خوض المعارك بصريح العبارة :

هلمّ نعارك فالحياة معارك ∴ هلمّ نقاحم فالحياة مقاحم

فخذ من دمي يا ابن الجزائر إنّني ∴ أخ لك في كلّ الحظوظ مقاسم[4]

---

[1] ينظر: الوناس شعباني، تطورالشعر الجزائري، مرجع سابق، ص 48.

[2] ينظر : نور سلمان الأدب الجزائري في رحاب الرّفض و التحرير، مرجع سابق، ص 316.

[3] د. صالح الخرفي، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 201.

[4] الديوان، ص 137.

و لئن صرّح الشّاعر بما يخالج نفسه من شوق إلى الحرّية، فإنّنا نجده في قصيدة "أين ليلاي" يرمز لها و يلمح دون أن يصرّح فليلى "ليست امرأة من النّساء، و إنّما هي رمز لشبكة من القيم و المعاني لعلّها أن تتجسّد أساسا في الحرّية، فالموضوع ليلى ظاهرا، و الموضوع هو الحرّية في حقيقة الأمر"[1]

أين ليلاي أينها ∴ حيل بيني و بينها

روّعتني ببينها ∴ لا رعى الله بينها

مال "ليلاي" لم تصل ∴ مهجات فدينها

و قلوبا علقنها ∴ و عيوبا بكينها[2]

فالشّاعر لا يقصد امرأة تدعى ليلى بل كان يقصد قضيّة أمّة بأكملها، بدليل قول الشّيخ ابن باديس معقبا على القصيدة : " . . فمن هي ليلى شاعرنا يا ترى ؟ . . . إنّ محمّد العيد الّذي يشعر شعور الشّعب و يتخيّل خيال الشّعب لا تفتنه و هو البلبل الغريد في قفص . . إلاّ الحرّية . . " .

و هكذا نرى أنّ الشّاعر كان دائم الاهتمام بقضيّة أمّته، و قد تبنّاها دوما إن تلميحا أو تصريحا، فعن طريق الكلمة المعبّرة قدّم التزامه بمبادئ شعبه و مبادئه الرّامية إلى الثّورة و النّضال إذ لا بديل عنهما بعد أن خابت كلّ الآمال و افتضح أمر فرنسا، على أنّ خيبة أمل الجزائري بلغت ذروتها بعد حوادث 8 ماي الأليمة الّتي أكّدت للجميع أنّه لا مناص من اعتماد طريق التّحاور مع عدوّ لا يعرف إلاّ لغة السّلاح و لا يجيد سواها .

---

[1] د . عبد المالك مرتاض، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد ، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1992، ص 94 .

[2] الديوان، ص 41 .

2- شعره بعد حوادث 08 ماي :

قد كانت الحرب العالمية الثانية و ما ترتّب عنها من أحداث أليمة في الجزائر سببا في تحوّل نظرة الجزائري إلى فرنسا و عهودها الكاذبة إذ تأكّد للجميع أنّ الطّريق الوحيد للحصول على حقوقهم هو الثّورة المسلّحة :

حياتك حرب للضعيف فكن بها ∴ قويّا أبيّا أن تذلّ و تخضعا[1]

بمثل هذه اللّهجة أصبح محمد العيد يخاطب الشّعب و المسؤولين : لهجة فيها الكثير من الصّراحة و العنف. إنّ مأساة ماي 1945 خلّفت جروحا لا تندمل و حطّمت آمالا كانت معلّقة على الحرب العالمية الثّانية و على وعود الحلفاء السّخيّة بأن للشّعوب المستعمرة الحقّ في تقرير مصيرها بعد الانتهاء من الحرب و الانتصار على النّازية. إنّ تلك الحوادث الّتي بدأت بمظاهرات سلميّة أراد الشّعب من خلالها التّعبير عن فرحته بانتصار الدّيمقراطيّة على الفاشية و النّازية- تحوّلت إلى لهيب أشعل في نفوس الجزائريّين غضبا تحوّل فيما بعد إلى ثورة[2] ضدّ فرنسا الّتي قابلت تلك المظاهرات بالبطش و التّقتيل "لقد كانت هذه المظاهرات استنجازا ثوريّا لحقوق ضريبة الدّم الّتي دفعها الجزائريون في الحربين الأولى و الثّانية، و لكن المظاهرات كانت من جهة أخرى أشبه بالقنبلة المضيئة الّتي كشفت مكامن و مخابئ النشاط السّياسي، فسيق عشرات الألوف من رجاله إلى السّجون و المعتقلات غير الّذين أطلق على صدورهم الرّصاص"[3] و يستعرض محمّد العيد أحداث ذلك اليوم المشؤوم و يصوّر "حقائقها بعدسة المصوّر المتمرّس بأساليب القهر الّتي ذاقها شعبه على يد المستعمر البغيض،

---

[1] الديوان، ص 188 .

[2] ينظر : الطيب العليوي، مظاهر المقاومة الجزائرية، مرجع سابق، ص 227 .

[3] د . صالح خرفي، الشّعر الجزائري الحديث، مرجع سابق،ص 212 .

و ريشة الفنان الذي اكتوى بنيران شعبه الّتي أشعلها له ألدّ الأعداء"[1] لكنّ الشّاعر و برغم الحزن و الأسى الّتي خلّفتهما الأحداث في نفسه يحثّ الشّعب على مواصلة الدّرب مهما اشتدّ به التّنكيل و التّقتيل، مهيبا به أن لا يضيق ذرعا بالحياة و أن يطرح اليأس جانبا، و أن يستمرّ في مقاومته الشّرعيّة و كفاحه البطولي إلى أن يتحقّق له النّصر :

أأكتم وجدي أو أهدئ إحساسي ∴ و ثامن ماي ماله آسي
فظائع ماي كذّبت كلّ مزعم ∴ لهم و رمت ما روّجوه بإفلاس
فيا لك من خطب تعذّر وصفه ∴ فلم تجر أقلام به فوق أطراس
و يا أيها الشّعب المروع لا تضق ∴ بدنياك ذرعا و اطرح خلق الياس
و قل للّذي آذاك لا وصل بيننا ∴ وموعدنا العقبى فما أنا بالنّاسي[2]

و هكذا و بمثل هذه الأبيات سجّل الشّاعر أحداث ذلك اليوم المشؤوم في أعماق صفحات التّاريخ لتبقى وصمة عار و وحشيّة في جبين الاستعمار في أيّ زمان و مكان و لتظلّ رمزا للتّضحية و الفداء يهتدي بها كلّ من سعى إلى الحرية و الاستقلال[3].

إنّ مأساة ماي 1945 تعتبر بحق بداية مرحلة جديدة في حياة الشّعب من النّاحية الثّقافية و الاجتماعيّة، فتلك التّجربة نبّهته إلى الحقيقة و هي أنّه لا أمل في التّحرّر من غير سلاح[4]، و هكذا ألقى الشّاعر بهدوء الإصلاح جانبا و دخل المعركة السّياسية بوجه سافر :

---

[1] مجلة الثقافة، ع 86، جوان 1980، شعر محمد العيد بين فلسفة الإصلاح و روح الثّورة، زكريا محمد، ص 156.

[2] الديوان، ص 325.

[3] الثّقافة، الجزائر، العدد 57، جمادى 1402 هـ، مايو 1980م، بقلم الأخضر عبد القادر الساحي في ذكرى حوادث 8 ماي 1945، ص 94.

[4] ينظر: سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص 43.

حثّوا العزائم و اصدقوا الآمالا ∴ إنّ الزّمان يسجّل الأعمالا

يا قوم هبوا لاغتنام حياتكم ∴ فالعمر ساعات تمرّ عجالا

الأسر طال بكم فطال عناؤكم ∴ فكّوا القيود و حطّموا الأغلالا

و الشّعب ضجّ من المظالم فانشدوا ∴ حرّية تحميه و استقلالا

لا أمن إلاّ في ظلال مرفوف ∴ حرّ لنا عال ينير هلالا

من فوق جند بالعتيد من القوى ∴ يلقي العدوّ و يصمد استبسالا

و إذا أراد الشّعب نال مراده ∴ و لو أنّه كالنّجم عزّ منالا [1]

إنّ الشّاعر يحرّض الشّعب ضدّ العدوّ و يحثّه أن يهبّ إلى الجهاد و هو يتمنّى أن يرى اليوم الّذي يرفرف فيه علم الجزائر على جيش جزائري مدجّج بالسّلاح يكيل الضّربات للمستعمر، و لعلّ محمّد العيد يعدّ أوّل من تجرّأ و صرّح بالاستقلال و الحرّية و العلم و الجيش الوطني [2].

و من القضايا الّتي احتلّت الصّدارة في تلك المرحلة و الّتي طالما عرض لها الشّاعر و أسهب في الحديث عنها قضيّة الدّعوة إلى الاتّحاد و التّحالف و التّآزر بين أبناء الأمّة الواحدة، يقول محمّد العيد :

هذه الأرض سوف تنبت عزّا ∴ إن تصافت في ظلّها الأحزاب

كلّنا إخوة من الدّين و الجن ∴ ـس عليها و كلّنا أحباب

إنّ الشّاعر يدعو إلى وحدة الأحزاب كخطوة أوليّة لتحقيق العزّ و السّيادة، و يقف بالمرصاد في وجه المحاولات الاستعمارية الرّامية إلى تمزيق صفوف الشّعب بنشر التّفرقة و الطّائفيّة مذكّرا الشّعب بالرّوابط المقدّسة الّتي تجمعه و هي وحدة الدّين، الجنس و المصير.

---

[1] الديوان، ص 339.

[2] ينظر: سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص 45.

فالشّاعر إذن من أوائل الّذين دعوا إلى الوحدة الشّعبيّة و أشادوا بها باعتبارها أقوى الدّعائم الّتي يستعان بها لتحقيق الهدف المنشود، لهذا تجده يصرّ أيما إصرار على معاني التّسامح و العفو[1] :

سامح بلادك و اعف عن أحزابها ∴ و اقبل طوائفها على علاتها
من كان مشغوفا بحبّ بلاده ∴ لم يكشف الأستار عن عوراتها
فادع الجميع لوحدة شعبيّة ∴ نفي المصائب عنك في إثباتها[2]

و يؤكّد الشّاعر على معاني الإخاء قائلا :

نحن في الدّين إخوة و الأماني ∴ لا ترى بيننا قصيا غريبا
أفبعد الرّضى و عهد التّآخي ∴ يتسنّى لعائب أن يعيبا
هذه فرصة الإخاء تجلّت ∴ من سعى لإخاء فيها أثيبا
إن ترد عيشك الهنيء فكافح ∴ و اعزم السّير لا تدبّ دبيبا
أو ترد فوزك العظيم فاخلص ∴ كلّ من كان مخلصا لن يخيبا[3]

و الشّاعر لا يسأم و لا يكلّ من ترداد نفس الدّعوة كلّما وجد إلى ذلك سبيلا، فها هو يحثّ الشّعب على الاتّحاد و نبذ الشّقاق قائلا :

و ما التّسجيل للآثار إلاّ ∴ ببذل المال أو بذل الضّحايا
و حذار من الشّقاق فإن أقمتم ∴ عليه عصاكم انكسرت شظايا
و كم جرّ الشّقاق إلى دواه ∴ و سوّل في خصومته خطايا

---

[1] ينظر : أنيسة درار بركات، أدب النضال، مرجع سابق، ص 90.

[2] الديوان، ص 212.

[3] الديوان، ص 191.

خذوا بالعروة الوثقى و شدّوا ∴ مواثقكم بإحلاص النّوايا [1]

و إذا كان محمّد العيد الّذي يدعو إلى وحدة شعبيّة تقف في وجه العدوّ و تردّ كيده، هو نفسه من يدعو لوحدة أكبر و أشمل – وحدة عربيّة و إسلاميّة – فلا غرو إذن أن يدعو العرب خاصة و المسلمين عامّة للاستماتة من أجل الهدف و التضحية بالأرواح في سبيل الغاية[2].

جدّ جدّ الإسلام في كلّ أرض ∴ و انجلى عن بنيه داء الفتور

يا بني الشّرق و عصمة بالتّآخي ∴ فالتّآخي مذبة للنّفور

فليجاهد في الحقّ كلّ محقّ ∴ و ليدافع بالصّبر كلّ صبور [3]

لقد أعدّ اللّه سبحانه للمجاهدين أجرا عظيما، فلم التّقاعد عن فريضة الجهاد في سبيل اللّه و قد حلّ بديار المسلمين الهوان ؟ لا بدّ لصوت الحقّ أن يعلو في وجه الباطل، و لا بدّ للمسلمين أن يهبّوا لردّ كيد الظّالمين :

أيها المسلمون طال بنا الكر ∴ ب فهل لانفراجه من تسني ؟

نعم أجر الجهاد بالنّفس و المال ∴ و قل للغني إيّاك أعني

إنّما راحة الجزائر راحة حرّ ∴ يسدي العطاء و يسني

و ابتغوا حقّكم من العيش عدلا ∴ لا تميلوا لقسوة أو لجبن

ارفعوا صوتكم به و استميتوا ∴ فيه فلا تيأسوا و لو ألف قرن[4]

---

[1] الديوان، ص 217 .

[2] الثقافة، ع 86، ص 155

[3] الديوان، ص 106 .

[4] الديوان، ص 111 .

و إيمانا من الشّاعر بأنّ الشّباب إنّما هم أشبال في مدرسة المقاومة يخاطبهم معلّقا عليهم آماله و أمال الشّعب في نصرة الأمّة :

حارب الذلّ و الخنوع و أنقذ ∴ شعبك المبتلى فأنت عصامه

و اعتصم بالإله من كلّ عاد ∴ عزّ من كان بالإله اعتصامه

حبّب الموت للمجاهد في الله ∴ و آياته ولذّ اقتحامه [1]

إنّ "فكرة الإصلاح الدّيني كانت تسير جنبا إلى جنب و فكرة الجهاد حتّى امتزجا معا في شعر محمّد العيد و كوّنا موضوعا متكاملا" [2] فالشّاعر عاش معاناة شعبه اليوميّة، و قد أحسّ ما يحسّ كلّ مواطن حرّ الحاجة إلى الثّورة المسلّحة من أجل التّخلّص من ربقة الاستعمار، لهذا نجده يدعو بلسان صريح إلى خوض المعركة ضدّ العدوّ و كان ذلك منذ سنة 1937 م، و ها هو يلقي قصيدة له بمناسبة افتتاح مدرسة باتنة سنة 1954 م يدعو من خلالها أبناء الشّعب إلى الجهاد من أجل تحرير البلاد من مخالب الأعداء و معبّرا عن تشوّقه إلى الحريّة و الانعتاق :

بلادي لا تركت إلى بغاة ∴ تشينك بالفساد و لا بغايا

أغذّي للمعالي السّير و امضي ∴ و لا تهني بجهدك أن تعايا

فنحن يداك في كسب المعالي ∴ و نحن فداك من كلّ البلايا [3]

و نفس التّطلّع إلى غد جديد. تشرق فيه شمس الحريّة، نشتمه من أبيات الشّاعر التّالية:

نبتغي العيش في الجزائر حرّا ∴ مطلقا لا يحفّه إرهاب

---

[1] الديوان، ص 116 .

[2] الثّقافة، ع 86، ص 156 .

[3] الديوان، ص 217 .

ارشدينا السبيل أيّتها الحمـــ ∴ ـراء إنّا قـوم إلـيـك ركـاب

هل إلى وصل بيننا من سبيل ∴ غبت عنّا و طال منك الغياب [1]

و لقد ظلّ الشّاعر يدعو إلى الحرّية و يناشدها و يحضّ أبناء شعبه على الجهاد في سبيل الوطن حتّى رأى أمنيته تتحقّق و دعوته تستجاب باندلاع ثورة غرّة نوفمبر، فما عساه يقول عنها ؟

3-محمّد العيد و ثورة نوفمبر :

لقد مرّ معنا أنّ مجزرة 08 ماي 1945 كانت طعنة مريرة بالنّسبة للحركة الوطنيّة، و أنّها قد أثبتت للشّعب و أكّدت للمناضلين والمكافحين بأنّ حرّية الجزائر لا يمكن أن تتحقّق بوسائل اللاّعنف أو الثّورة بالقانون، و هكذا فإنّ تلك الأحداث تعدّ إحدى الأسباب المباشرة لقيام ثورة 1954م.

إنّ ثورة 1954 م كانت بمثابة بعث جديد للجزائر الجديدة و الحديثة، بكلّ أبعادها ومفاهيمها، جزائر وعت الدّروس الّتي مضت، و استخلصت العبر من إخفاق كلّ الثّورات السّابقة لها، كما كان لتلك الثّورة الفضل العظيم في جمع شمل الأمّة تحت راية واحدة و جبهة واحدة هي جبهة التّحرير الوطنيّة [2].

و الشّعر الّذي واكب الحركة الوطنيّة في مختلف مراحلها لا بدّ ان يواكب الثّورة و يخلّد أمجادها، على أنّ ثمّة ظاهرة لا بدّ من الإشارة إليها و هي أنّ الإنتاج الشّعري تقلّص عند بعض الشّعراء الّذين عرفوا بالمبشّرين للثّورة أمثال محمّد العيد الّذي أثيرت حول ظاهرة سكوته الكثير

---

[1] الديوان، ص 260.

[2] ينظر د. يحيى بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر العشرين، قسنطينة، دار البعث للطباعة و النشر، 1980، ط1، ص 301.

من التساؤلات، و قد أخذت "تردّد بعض الأقلام و الألسنة أنّ محمّد العيد باعتباره لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الّتي كانت تستهدف الإصلاح الدّيني و الفكري، ظلّ بعيدا عن المعاناة الدّمويّة الّتي يواجهها الشّعب الجزائري من جرّاء مقاومته الاستعمار الفرنسي. . ."[1]

لكنّ الشّاعر حتّى و إن سكت فإنّه لم يكن بمعزل عن معاناة شعبه اليوميّة و قد عاشها و عايشها بكلّ جوارحه رغم الطّوق الّذي طوّق به و رغم الحصار الّذي فرض عليه و على نتاجه الفكري على يد الاستعمار الّذي ضيّق الخناق على الشّاعر بملاحقته الدّائمة له و مراقبته المتواصلة، و لكن هذا كلّه لم يمنع الشّاعر من أن يواصل رسالته التّعليميّة و حركته الدّينيّة و قد استمر في نشاطه حتّى اندلعت ثورة 1 نوفمبر 1954 م. تلك الثّورة الّتي طالما دعا إليها من خلال أشعاره و تغنّى بها و بالحرّية المنشودة، وقد واصل محمّد العيد نضاله في بداية الحرب إلاّ أنّ فرنسا – ويقينا منها بخطورة موقفه على مصالحها دبّرت له مكيدة – و الثّورة لاتزال في بداياتها – لتوقف نشاطه الثوري، و بالفعل لقد تمّ لها ما أرادت فقد أوقفت الشّاعر عن عمله و أغلقت أبواب المدرسة لتحوّلها إلى ثكنة عسكريّة يستخدمها جيشها، إلاّ أنّ الشّاعر لم يتوقّف عن بثّ روح الوعي الدّيني و الاجتماعي في صفوف الأمّة متّخذا من المسجد مركزا له يؤمّ فيه النّاس و يحضّهم على مواصلة الكفاح، و لم يكن المحتلّ ليغفل عن تحرّكات الشّاعر أو يتغافلها، فما كان منه إلاّ أن أوقف الشّاعر واقتاده إلى السّجن سنة 1955م، ليقدّم بعد ذلك إلى المحاكمة بتهمة تحريض الشّعب على الانضمام للثّورة، و مساعدته له ماديّا و معنويّا، و قد تمّ الإفراج عنه لاحقا ليعاود نشاطه التعليمي و لكن لم يمض إلاّ وقت قصير حتّى أعاد جنود الاحتلال اعتقاله من جديد بتهمة قتل أحد المستوطنين لينتهي الأمر بفرض الإقامة الإجبارية عليه بمنزله الكائن ببسكرة في نهاية 1955، ليبقى حبيس جدرانه طوال أيام

---

[1] مجلة الثقافة، ع 86، ص 151 .

الثّورة [1]، و قد عاش الشّاعر أوقاتا عصيبة لخّصها في قوله : "كنت لا أخرج من البيت، و كان احتكاكي بالنّاس لا يتجاوز الدّقائق المعدودة، و كنت أغتنم تلك اللّحظات لأؤكّد للزّوّار، قرب انفراج الأزمة و حتميّة النّصر، و كثيرا ما كنت أتلو على مسامعهم قوله تعالى : ﴿إنّي لأجد ريح يوسف لولا أن تفنّدون﴾ "[2].

فنحن نلاحظ إذن أنّ الشّاعر لم يتوان عن تحريض الشّعب حتّى و هو تحت الحراسة المشدّدة، و كان بذلك وفيّا لمبادئه الّتي طالما حدّث عنها حتّى وإن لم يعد ينظم الشّعر ليدعو إليها . فسكوته إذن لم يكن تراجعا عن مبادئه أو هروبا من ميدان التّضحية، و إنّما كان خطّة استعملها حين لم يجد بدّا من ذلك ، سكت حين رأى أنّ السّكوت أسلم و أفضل من أن يكتب ما لا يريد أو بالأحرى ما يملى عليه من الغير إنّه اختار السّكوت حين رأى أنّه السّبيل الوحيد الّذي يضمن له الشّرف لنفسه و الوفاء بعهده لأمّته . إنّ موقف الشّاعر يدلّ دلالة واضحة على أنّ "نطقه بالشّعر أو سكوته عنه إنّما هو حالة نفسيّة واعية مبعثها المصلحة العليا للوطن"[3] هذا إلى جانب أنّه عاش طوال فترة الثّورة بمعزل عن النّاس، محروم من حريّته الشّخصيّة، و مضت السّنون ثقيلة رهيبة بنيران الحرب و جحيمها فكان من الطّبيعي في مثل تلك الظّروف الملئ بمظاهر الرّعب و الظّلم أن تنعدم السّيطرة على الأفكار و تفتر الهمم و تكلّ القرائح و يفتقد المفكّرون و الأدباء الجوّ الملائم الّذي يساعدهم على الإبداع و التّأمّل، و هكذا فقد فترت شاعريّة العيد و لم تجد قريحته طوال تلك السّنين سوى ببضع قصائد و مقطوعة واحدة، كانت أوّلها قصيدة "استقلال السودان" الّتي نظمها الشّاعر سنة 1955 م احتفاءا باستقلال

---

[1] ينظر: محمّد بن سمينة، محمد العيد دراسة تحليلية لحياته، مرجع سابق، ص 74 .

[2] المرجع نفسه، ص 105 .

[3] المرجع نفسه، ص 90 .

السّودان، و الثّانية "أمير المؤمنين عنمت نصرا" نظّمها سنة 1955 هي أيضا بمناسبة عودة الملك "محمّد بن يوسف" من منفاه إلى بلاده بعد أن كتب لها النّصر[1]، و الثالثة هي "مناجاة بين أسير و أبي بشير" و فيها يستبشر الشّاعر لسماعه صوت الطّائر الصّغير و يتفاءل خيرا به و كأنّ الطّائر أتاه خصّيصا ليبشّره بقرب انفراج الأزمة. أمّا الرّابعة فهي تحت عنوان "أبا المنقوش" و يناجي الشّاعر من خلالها جبل "بو منقوش" و قد ضمّنها مختلف الأحاسيس الّتي كانت تجول بخاطره من قلق و ضيق و استنكار، و تشوّق لغد جديد تنتهي بطلوعه مأساة قومه.

أمّا المقطوعة الّتي نظّمها فكانت بعنوان "سأمضي و أترك شعري" كتبها سنة 1960م، هاته هي مجموعة القصائد الّتي خلّفها الشّاعر أثناء فترة الثّورة، فهل هجر محمّد العيد النّظم، و هل جفّت قريحته و خانته شاعريّته ؟

يرى بعض الدّارسين أنّ الأدب قد يمهّد للثّورة و لكنّه لا يستطيع النمو في لهيبها لانعدام المناخ الملائم للإبداع الفنّي.[2]

فهل هذا حقّا ما حدث مع الشّاعر؟ علما أنّه كان من الأوائل الّذين حرّضوا الشّعب على الثّورة و اعتبروها السّبيل الوحيد لخلاص الأمّة. فلماذا سكت عن قول الشّعر في حين كان ينتظر منه أن يواصل نضاله بالكلمة ؟

لقد تعرّض مجموعة من الدّارسين لظاهرة سكوت الشّاعر أثناء الثّورة و حتّى قبلها أي خلال الحرب العالميّة الثانية، و قد خلصوا إلى مجموعة من النّقاط مفادها أنّ الشّاعر قد أجبر على ترك النّظم لأسباب عدّة نوجزها فيما يلي :[3]

---

[1] ينظر الدّيوان، ص 581.

[2] ينظر : د. مندور، الأدب و مذاهبه، مرجع سابق، ص 19.

[3] لمن أراد التوسع في هذه النقطة الرجوع إلى – محمد بن سمينة – محمد العيد، دراسة تحليلية ، مرجع سابق، ص 105.

- أنّ الشّاعر كان ميّالا بطبعه إلى الانطواء و العزلة منذ نعومة أظفاره و رافقته تلك الصّفات عبر مختلف مراحل حياته، و قد ساعدت إقامته الجبريّة على نموّ ذلك الحسّ بعد أن أصبح وحيدا في بيته تحسب عليه حركاته و سكناته، هذا من ناحية، و من ناحية ثانية فقد عرف الشّاعر برزانته و ميله إلى التّروّي و التعقّل، و قد أدرك أنّ مجابهته للعدوّ و هو الضّعيف المكبّل لن تجدي نفعا، بل إنّها قد تؤدّي به إلى التّهلكة ممّا لا يعود بالخير لا عليه و لا على أمّته و من ثمّ آثر السّكوت.

- أنّ الشّاعر يكون قد كتب بعض الشّعر - إضافة إلى الأشعار الّتي ذكرناها آنفا - أثناء الثّورة إلاّ أنه تعمّد إخفاءه خشية من بطش المستعمر و قد تحدّث أحد أقارب[1] الشّاعر عن هذه الظّاهرة فقال :

"إنّ الشاعر كان يقرأ على بعض أفراد الأسرة ما ينظم من شعره أثناء الثّورة، و ممّا أذكر له من ذلك ثلاث قصائد . سجّل في إحداها بعض أحداث القضيّة الوطنيّة و تطوّراتها خلال النّهضة الحديثة و أوقف الثانية على التصوّف، و أمّا الثّالثة فقد نظمها بمناسبة الإضراب الأسبوعي الّذي قام به الشّعب الجزائري سنة 1957 م استجابة لنداء جبهة التّحرير الوطني و هي تربو على مائة بيت كان الشّاعر قد صوّر فيها بعض ما قام به المحتلّون من وحشيّة و مظالم ضدّ المواطنين الأبرياء و كان الشّاعر لشدّة تحرّيه قد كتبها من دون أن يعجمها".[2]

---

[1] القول لابن أخ الشاعر الأستاذ محمد الطاهر خليفة.

[2] محمد بن سمينة، محمد العيد، دراسة تحليلية، مرجع سابق، ص 108.

و كان الشّاعر قد ألمع لشيء من ذلك بقوله : "كنت أكتب و أكتم ما أكتب" ثمّ نجده يصرّح في موضع آخر :"كنت قد نظمت أثناء الثّورة بعض الشّعر و هو قليل، و لكنّه ضاع منّي بسبب ظروف التّحرّي الّتي كنّا نخضع لها في أغلب الأوقات[1]" .

– أنّ الشّاعر قد حمل حملا على السّكوت حتّى يفوّت الفرصة على أعداء الوطن الّذين أرادوا استخدامه لصالحهم و قد طالبوه بالتّنديد بالثّورة و هو الشّيء الّذي لم يكن الشّاعر ليقبله و قد عرف ما عرف عنه من تقوى و ورع و حبّ للوطن ممّا أهّله لتوعية الشّعب بحقيقة الثّورة و أهدافها، و نفخ روح الجهاد في صفوف الشّباب و من ثمّ كان من المحال أن يندّد بالثّورة، الّتي طالما دعا إليها – حتّى يحقّق للعدوّ مأربه .

– أنّ الشّاعر لم يكن بدعا في الشّعراء حين لاذ بالسّكوت، و كأنّا بالشّعراء قد أسلموا الرّاية لحمله السّلاح بعد أن أدّت أشعارهم جزءا كبيرا من رسالتها التّاريخيّة و حقّقت الأهداف المتوخّاة منها و المتمثّلة في إشعال فتيل الثّورة و آن الأوان بعد ذلك للسّلاح لمواصلة الدّرب بإحقاق الحقّ و إبطال الباطل [2] . وهكذا خرست الأقلام بعض الوقت و أخلت الميدان للبنادق و الرّصاص لأنّها أفصح من الأقلام لإفحام المغتصبين :

نطق الرّصاص، فما يباح كلام ∴ و جرى القصاص فما يتاح ملام

السّيف أصدق لهجة من أحرف ∴ كتبت، فكان بيانها الإبهام[3]

إنّ ما أخذ بالقوّة لا يستردّ إلاّ عن طريق القوّة لذا نطق الرّصاص في وقت لم يعد يجدي فيه الكلام :

---

[1] المرجع نفسه، ص 108 .

[2] ينظر :د. صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 225 .

[3] مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص 42 .

حقوقنا بدم الأحرار نكتبها ∴ لا الحبر أصبح يعنينا و لا الورق[1]

و يرى البعض أنّ الشّعرالّذي رفع لواء الثّورة قبل اندلاعها بوقت ليس بالقصير كان يتوقّع حدوث ذلك الانفجار، و من ثمّ لم تكن الثّورة مفاجأة له "و يؤكّد هذه الحقيقة أنّ الشّعراء الّذين سبقوا ميلاد الثّورة بأشعارهم الثّوريّة، ركنوا في عهدها إلى ما يشبه الصّمت المطبق، فاستقبلوها بهدوء المنتظر المتوقّع و كمون الموقد للفتيلة"[2] .

و هناك من يعلّل ذلك السّكوت بأنّ عظمة الثّورة و روعة الأحداث الثّوريّة المتعاقبة تعاقبا سريعا وقف عائقا في وجه الشّعر بحيث لم يستطع مواكبة الأحداث لكثرتها و سرعة حدوثها إلاّ أنّ "هذا التّلعثم لا يعني الهلع في الشّعر بقدر ما يعني الإعجاز في الثّورة، فهو موقف تقديس و ليس موقف تخاذل"[3] .

و كخلاصة نقول إنّ الشّاعر قد هجر النّظم لانعدام حوافز الإبداع الفنّي، فقد كان يعيش حربا ضروسا و هو مكبّل الأيدي بأغلال الأسر ممّا أفقده القدرة على التّأمّل و الإبداع، غير أنّ هذا لا يعني أنّ الشّاعر قد ابتعد عن الأحداث الوطنيّة تمام الابتعاد بل على العكس فلقد ظلّ يعيش قضيّة الوطن بكلّ جوانحه حتّى و إن أبعد عنوة عن أبناء عمومته، فلئن "استطاع الاحتلال أن يجرّد الشّاعر من حريّته الشّخصيّة و يسجنه في بيته و يعزله عن أفراد مجتمعه، فإنّه فشل في أن ينزع من بين جوانحه قلبه و يعزله كلّ العزل كما كان يهوى عن المساهمة في معركة شعبه، فقد ظلّ يعيشها بروحه و وجدانه، يبثّ العزيمة و الصّبر و الصّمود في كلّ زائر يحلّ بناديه على خفاء من العيون المترصّدة، و ينزع من بعض الضّمائر الضّعيفة ما يكون قد تسرّب إليها

---

[1] المرجع نفسه، ص 28 .

[2] ينظر :د . صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 225 .

[3] المرجع نفسه، ص 227 .

من أسباب اليأس و القنوط لشدّة الأهوال و عسرة الأحوال يومئذ مؤكّدا لهم انفراج الأزمة" و عموما فإنّ الشّاعر و إن لم ينظم الكثير من الشّعر فقد نظم القليل منه لأنّ طبيعة الشّاعريّة في نفس صاحبها لن تسمح له بالسّكوت المطلق و قد أشرنا قبلا لتلك الأشعار الّتي خلّفها الشّاعر في تلك الحقبة الزّمنيّة و كان من بينها قصيدته "أبا المنقوش " الّتي أخذ الشّاعر يناجي من خلالها جبل أبي المنقوش لعلّه يشاركه محنته و يقاسمه إيّاها فيخفّف عنه بعض معاناته :

أبـا الـمنقوش هل تدري بحالي ∴ فـأنـت جـاري اليوم بالجبال
رماني حول سفحك موج دهري ∴ أسـيـرا بـعد أحـداث طوال
فـعـشـت بـه كيونس في سقام ∴ لـدى قـومي و لكن في انعزال
أخـال إقـامـتي جـبـرا كقبر ∴ حملت إليه كالـجـثـث البوالي
أرى الأحـيـاء من حولي قريبا ∴ و هم عنّي بالعيش في اشتغال
و أعذرهم فعين الخصم يقضى ∴ ترى شزرا تنذر بالوبال [1]

و كأنّا بالشّاعر قد التفت أمامه فلم يجد أنيسا و لا ونيسا يشكيه همّه و يطلعه عمّا في صدره من ضيق و ضيم، فقد طال به الأسر و انشغل عنه النّاس و بقي وحده يعاني مرارة الوحدة و يكابد ويلات الأسر، لذلك ولّى وجهه شطر الجبل يناجيه، علّه يشاركه همّه و ينفّس عنه كربه.

و تبلغ معاناة الشّاعر ذروتها حين يرى أنّ حياة إخوته الجزائريين أصبحت سجلّا متتابع الصّفحات، متلاحق السّطور بالآلام و المآسي فيتحرّق إلى نهاية تلك المآسي و تلك التّضحيات الجسام :

---

[1] الديوان، ص 425.

مـتى يأتي بربّك نصر شعب ∴ يـقـاسـي كلّ ألوان النّكال

لقد بذل الفدى ثمنا وضحى ∴ بكلّ دم عـزيـز مـنه غالي

فـهـل آن الأوان لـه ليحضى ∴ بما يرجو لمجاهد من منال؟[1]

و لئن كانت قصيدة "أبا المنقوش" صورة للحالة النّفسيّة المزرية الّتي كان يعيشها الشّاعر من يأس و قلق بسبب اضطهاد المحتلّ له و لشعبه فإنّ قصيدة "أبي البشير" تنمّ عن إيمان قويّ بقرب انفراج الأزمة بعد أن رأى الشّاعر رؤى البشائر تلوح في الأفق مجسّدة في ذلك الطّائر الصّغير الّذي أتاه خصّيصا ليبشّره باستقلال بلاده القريب :

جزمت بقرب إطلاق الأسير ∴ غداة سمعت صوت أبي البشير

فـقـمـت مـرحّبا بنزيل يمن ∴ عـلـيّ بـكـلّ إكـرام جـدير

و جـئـت أبثّه نجواي سرّا ∴ و مـن للـحرّ بالصّوت الجهير ؟

أناجيه بآمالي و حالي ∴ واستفتيه عن شعبي الكسير [2]

و بالفعل فقد صدق تكهّن الشّاعر، و تحقّقت الأماني، و قام الطّائر الصّدّاح الّذي أسكتته نوائب الدّهر، قام ليغنّي الحريّة الّتي طالما ناشدها و تمنّى وصلها، قام و قد غمرته الفرحة و هزّته النّشوة يخلّد ذلك اليوم العظيم و ينوّه بصانعيه.

4- شعر ما بعد الاستقلال :

بعدما يزيد عن قرن من العبوديّة الاستعماريّة و الآلام المريرة، و بعد سبع سنوات من التّضحيات و الكفاح البطولي المتواصل بزغ فجر الحريّة في سماء الجزائر، و انقلبت الدّموع و الأنّات و الأتراح أفراحا و أتراحا، فوقف الشّعب و معه الشّعراء وقفة إجلال و إكبار لذلك

---

[1] الديوان، ص 425.

[2] الديوان، ص 22.

اليوم العظيم، و أخذوا ينشدون أهازيج النّصر و ينوّهون ببطولات و مواقف أبطال ثورة نوفمبر، و قد أنشد محمّد العيد قصيدة طويلة سجّل فيها بعض أحداث الثّورة و بعض أحداث عهد الاستقلال، دون أن يهمل ذلك اليوم الميمون و ذلك الشّهر العظيم الّذي عرفت فيه الجزائر عيدها، عيد الكرامة و الحرّية :

يا شهر يوليو أنت وافد رحمة ∴ و نزيل يمن نستطيب له القرى
أنت المتوّج و الشّهور رعيّة ∴ تاجا تسود به اشّهور منضرا
قد جاء نصرك غاسلا الشّعب من ∴ عار احتلال الأجنبي مطهّرا
اليوم يذكّر شعبنا حرّية ∴ بالشّكر منه حرّية أن تذكرا
باع النّفائس و النّفوس لأجلها ∴ و بها اشترى في العمر أغلى ما اشترى
نال النّجاح بها و أصبح منجزا ∴ أهداف ثورته بها و موفرا [1]

و إذا كان الشّاعر ينوّه بذلك الشّهر العظيم و يعتبره شهر رحمة و فخر فإنّه ينظر إلى صانعيه نظرته إلى الصّحابة و الفاتحين في الجهاد، و هو يفخر بهم و ببطولاتهم و شجاعتهم و يثني على إيمانهم القويّ الّذي ساعدهم و هم قلّة قليلة على قهر العدوّ على كثرة عدده و عدّته حتّى أنّ نصرهم ذكّره بانتصار طالوت مع جيشه القليل على جالوت بجبروته و جيشه العرمرم :

عملاقة الثّورات فكّت أسرنا ∴ قهرا فحقّ لنا بها أن نفخرا
و بها عمالقة العزائم ذلّلوا ∴ كلّ الصّعاب فأدركوا ما استعسرا
رعيا لها من ثورة قدسيّة ∴ فيها القليل على الكثير استظهرا
فكأنّ طالوت استعادو جنده ∴ من جند جالوت [2] اللّقاء فظفرا

---

[1] الديوان، ص 445 .

[2] إشارة إلى قصة الملك طالوت مع جالوت، سورة البقرة ، الآية 248 .

و هو يرى في تلك الغابات و الكهوف الّذي اتّخذها المجاهدون قلاعا لهم ينطلقون منها في هجوماتهم ليعودوا إليها سالمين غانمين، يرى فيها صورة غار حراء الّذي كان يأوي الرّسول – صلّى الله عليه و سلّم – للتّعبّد و استقبال الوحي :

سرنا نؤمّ جبالنا العليا كما ∴ أمّ الحجيج بركبهم أمّ القرى

طفنا بكعبتها الشّريفة سبعة ∴ و بنارها الحمراء طبنا مجمرا

غاباتها أحيت لنا آسادها ∴ و كهوفها أحيت لنا ذكرى (حرا)

هكذا فقد أشاد الشّاعر بشهر نوفمبر و غنّاه بشعر كثير منوّها به و بأبطاله الّذين حقّقوا النّصر و خلّدوا أسماءهم في التّاريخ بأحرف من دم ونار :

نوفمبر (هاروت) الشّهور بعصرنا ∴ و (ماروتها)[1] أبدى بثورتنا السّحرا

و علّمنا الإيمان و الصّبر و الفدى ∴ و جلّ مقاما أن يعلّمنا الكفرا

ففاتحه قد كان أعظم فاتح ∴ لنا كسب التّحرير و انتزع النّصرا

و ما جبهة التّحرير إلاّ عريننا ∴ و ما جيشنا إلاّ اللّيوث به تضرى

و نحن رجال السّلم إن رمت سلمنا ∴ و نحن جبال الحرب إن سمتنا نكرا

دعاة إلى الإسلام و السّلم رحمة ∴ وعاة لما يوحي الإله به أمرا [2]

و الشّاعر يؤمن أنّ جيش التّحرير هو وارث مجد الأسلاف و حامل لواء الجهاد، "فإذا كان الأمير عبد القادر قائد ثورة نوفمبر، فإنّ جيش هذه الثّورة هو مجدّد عهده و باعث بطولاته و محقّق آماله"[3].

---

[1] إشارة إلى الآية 102 من سورة البقرة.

[2] الديوان، ص 438

[3] محمد بن سمينة، محمد العيد، دراسة تحليلية، مرجع سابق، ص 419.

و خـاض مـيـادين الجهاد مجدّدا ∴ مـواقـف عـبد الـقادر البطل الحرّ

و ثار عـلى جـور الطّغاة بعـاصف ∴ كعاصف "عاد" عاد في سبعها الغبر[1]

سنو يوسـف السّبع الشّداد تصرّمت ∴ و أعـقـبـهـا عام الإغاثة والعصر[2]

سلوا عنه أطـواد الـجـزائر كـلّـهـا ∴ فـغـاراته فـيـهـا تجلّ عن الحصر

لـقـد غـاب عـنّا و القلوب مروّعة ∴ و عـاد إلـيـنـا بالأمـان من الذّعر

فـيـا أيّـها الشّـعب الخليليّ محنة ∴ تبارك من أنـجـاك مـن لهب الجمر[3]

و يشبّه الشّاعر مجاهدي الثّورة بالمجاهدين الأوائل حتّى إنّه لا يتوانى عن تشبيههم في خصالهم و مواقفهم بجنود الرّسول – صلّى الله عليه و سلّم – و هم متدرّعين بدرع الإيمان سلاحهم الثّبات و مطمحهم النّصر أو الاستشهاد :

و لربّ لـيـث من ليوث محمد ∴ أبـلى بـلاء في الـجهاد مبرّدا

لا درع يـلـبسه سوى إيمانه ∴ و صموده للبأس أشعث أغبرا

لا زاد في يده سوى رشَاشه ∴ و رصاصه للواجهات مذّخرا

فاختر عيش الخالدين مرحبا ∴ بالـمـوت ذات الإلـه مـكبّرا[4]

و كما خلّد الشّاعر ثورة نوفمبر و أبطالها الأمجاد، فإنّه لم يغفل عن تخليد أسماء شهدائها الأبرار الّذين قدّموا النّفس و النّفيس ليطهّروا أرضهم من العدوّ الغاشم، بل إنّه تحدّث عن الشّهيد حتّى قبل اندلاع ثورة نوفمبر 1954، فقد جاشت قريحته بقصيدة "قصّة شهيدين"إثر

---

[1] يقصد قوم عاد و الريح الّتي سخّرها الله عليهم في سبع ليالي وثمانية أيام فأهلكتهم، سورة الحاقة، الآية 6.

[2] يشير إلى سنين الجفاف السبع التي أعقبها عام الغيث – سورة يوسف – الآية 45.

[3] الديوان، ص 432.

[4] المعرفة، السنة 1، عدد 6، رجب 1383، نوفمبر 1963م ، ص 16.

سقوط شابين جزائريين بمدينة بسكرة على أيدي الشّرطة الفرنسيّة في مظاهرات أقيمت تخليدا لشهداء أحداث 8 ماي 1945 :

شهمان في الخطب لم يهابا ∴ ناداهما الخلد فاستجابا
تلقّيا في الحشا رصاصا ∴ مفرغا للرّدى مذابا
فمن رأى عندما أصيبا ∴ رأى شهابا تلا شهابا [1]

و أمّا شهداء ثورة نوفمبر فقد تحدّث عنهم في أكثر من موضع مشيدا بمواقفهم البطولية و حاثّا النّاس على مواصلة الدّرب و الوفاء لعهدهم، مذكّرا بمكانة الشّهيد و مقامه عند الله و عند قومه :

نحن الحماة لشعبنا بدمائنا ∴ و شهودنا شهداؤنا لمن امترى
البالغون لألف ألف كثرة ∴ في العدّ أو من ألف ألف أكثرا
الطّامحون إلى الصّحابة نزعة ∴ يقفون حمزة في ا لجهاد و جعفرا
نزلوا بمولاهم فأكرم نزلهم ∴ و أثابهم نعيمه خير القرى
فهم الشّموع السّاطعات جلّت لنا ∴ في أرضنا فردوسنا المنتظرا
و هم الأئمّة في الجهاد فمن يحد ∴ عن نهجهم ضلّ الهدى و تحيّرا
فمن اقتدى بهم اهتدى و علا يدا ∴ أبدا و نال رضا الإله بلا مرا [2]

و يؤكّد الشّاعر دائما عن مقام الشّهداء عند الله و يشيد بهم دوما مستندا إلى خير شاهد الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه ألا و هو القرآن الكريم :

شهداؤنا الأبرار أعلام الهدى ∴ و معالم الحسنى بهم تسترشد

[1] الديوان، ص 460.

[2] محمد بن سمينة، محمد العيد، شعره الإسلامي، مرجع سابق، ص 419.

إنّ الشّـهيـد مخلّد الذّكرى له ∴ نـصـب لدينا في القلوب مشيّد

حسب الشّهيد رضى الإله كرامة ∴ و رضى الإله هو العلا و السّؤدد

يـروي لنـا القـرآن قـصّة فضله ∴ لا الأصـمـعي أو عـجـرد

فـحـيـاتـه في النّـشأتين حياته ∴ يحيا و يرزق و هو ميت ملحد

و ثوابه عند الإلـه مـضـاعـف ∴ بـشرى و مغفرة و عيش أرغـد[1]

و لا يزال الشّاعر يحدّثنا عن الشّهداء دون ملل و لا كلل، كيف لا و هم الّذين باعوا نفوسهم لله و ضحّوا بحياتهم من أجل أن تعيش الجزائر حرّة أبيّة :

البائعين نفوسهم لله في ∴ سوق الجهاد بجنّة الإنعام

السّـافـكين دمـاءهـم لحياتهم ∴ فجّرت بتربتهم كسيل طامي

لا حرّ أحرى من الشّهيد بالرّضى ∴ و أحـقّ بالتّمجيد و الإكرام[2]

و محمّد العيد الّذي لم ينس الشّهيد و لم يتغافل عنه حتّى و هـو يحـترق بنـار الأسـر، و يتجرّع مرارة الوحدة و العزلة، لم يغفله و تحدّث عنه بعد أن أتاه أبو البشير يبشّره بقرب انفراج الأزمة، فيذكّره ذلك بالتّضحيات الجسام الّتي يقدّمها أبناء الوطن من أجل الظّفر بحريتهم :

و ما شعب الجزائر غير شعب ∴ سخى بالفدى حرّ الضّمير

لـقد ضحّى بثورته فأضحى ∴ بها في الصّبر منقطع النّظير

و لاتزعجك ألاف الضّحايا ∴ و ما أجراه من دمه الغزير

فـتـلـك شهادة الشّهداء فيه ∴ و ذلك أجر مطلبه الكبير[3]

---

[1] الديوان، ص 228.

[2] الديوان، ص 242.

[3] الديوان، ص 424.

و لم يكتف الشّاعر بذكر الشّهداء و التّنويه بمواقفهم البطوليّة عبر أبيات متناثرة يبثّها في ثنايا قصائده، فذلك ما لا يشفي غليله و لا يروي ظمأه، و لذلك فلا غرابة حين نراه قد أوقف عملا برمّته حول موضوع الشّهداء و المتمثّل في قصيدة "وقفة على قبور الشّهداء" التّي ترحّم من خلالها على أولئك الشّهداء الأبرار و حثّ أبناء الوطن على تكريمهم و الاقتداء بهم لمواصلة الدّرب و انتهاج نهجهم في جهاد الأمّة الأكبر :

إنّ ذكرى الشّهيد أرفع من أن ∴ ترفعوها بالصخرة الصّمّاء
فأقيموا لهم تماثيل عزّ ∴ في قلوب ثورية الأهواء
و اقتدوا و ائتسوا بهم في المزايا ∴ إنّهم أهل قدوة و ائتساء
و اخلفوهم بالصّدق في خدمة الشّعـ ∴ ـب و في أهلهم و الأبناء
إنّهم أوفوا العهود فهل أنـ ∴ ـتم لميثاقهم من الأوفياء [1]

و الشّاعر حين يؤكّد على تخليد الشّهيد لا يرمي إلى مجرّد التّخليد و حسب، بل إنّه يجعل منه القدوة الحسنة التّي يجب على الشّباب الاقتداء بها و اقتفاء آثارها من أجل بناء سرح جزائر جديدة، جزائر الحريّة و الكرامة و العزّة، لهذا تجده ينثر من أمامهم بعض ما يمكن أن يساعدهم على تحقيق أهدافهم جاعلا نصب أعينهم مخافة الله و طاعته و الثّقة به وحده مع الاعتصام بكتابه فهو وحده كفيل بأن يطفئ نار الفتنة :

ألا أيّها الشّعب الّذي بجهاده ∴ أعاد جهاد الصّحب يقفوهم أثرا
لقد ثرت في التّاريخ أعظم ثورة ∴ تسجّل تبرا في الصّحائف لا حبرا
أراك بلغت اليوم ما كنت راغبا ∴ و نلت مزايا لا تطيق لها حصرا
و يسرت للعسرى عدوّك نادما ∴ على حكمه الباغي و يسرت لليسرى

---

[1] الديوان، ص 436.

خف الله فيما نلته و اربح روحه ∴ و منه فلا تيأس و لا تأمن المكرا
و دع عنك أسباب التّنازع و ا عتصم ∴ بميثاقك الثّوري و اشدد به أزرا
و حكّم كتاب الله في كلّ فتنة ∴ فتحكيمه لا بدّ أن يطفئ الجمرا [1]

و يهتف الشّاعر بحاضر أمّته و مستقبلها و يستبشر بهما خيرا بعد أن رأى شجرة الحرّية تزهر و تثمر في كامل ربوع الوطن :

و قافلة استقلالنا مستمرّة ∴ على السّير للأهداف في السّهل و الوعر
و مغربنا الحرّ الكبير موحّد ∴ مع العرب الأحرار في كنف اليسر
و جبهتنا تعلو الظّلام و جيشنا ∴ لنا حارس يحمي البلاد من الخسر
و أمّتنا مجموعة الشّمل حرّة ∴ و دولتنا مسموعة النّهي و الأمر
و دام لنا تحريرنا و نظامنا ∴ و دام لنا استقلالنا أبد الدهر [2]

و هكذا فقد قضت مشيئة الله تعالى أن يعيش الشّاعر فترة ما قبل الاستقلال و بعده ليتجرّع علقم الاستعمار و يصطلي بنار جبروته ثمّ يكرع شهد الحرّية و يستنشق عبير الثّرى المتحرّر من دنس الأعداء ممّا أهّله لأن يكون ترجمان صدق لشعبه في السّراء و الضّرّاء فحسبه إذن أن جاهد بالكلمة و حسبه أن جعل من شعره وسيلة لبعث الإحساس الوطني في المجتمع ممّا شجّع الأمّة لأن تقتحم غمار الحرب و تستردّ مجدها .

أفيحقّ لنا بعد هذا كلّه أن نحاكم الشّاعر و نتّهمه بالتّقصير في حقّ الثّورة في حين أنّ شعره كلّه يعدّ ثورة، ثورة ضدّ العدوّ و جبروته من جهة، و ثورة على الأوضاع المزرية السّائدة في أرجاء المجتمع آنذاك من فقر وفاقة، و جهل و ضلال و بدع و خرافات و غيرها من الآفات الاجتماعية الّتي عمل الاستعمار على ترسيخها في المجتمع الجزائري.

---

[1] الديوان، ص 440 .

[2] الديوان، ص 434 .

الـفـصل الخامس

خـصـائـص شـعـره الـفـنـيّة

إنّ المتصفّح لديوان محمّد العيد يدرك بوضوح تنوّع الموضوعات و اختلاف المستويات الفنيّة – جودة و ضعفا – فيه، كما يمكنه أن يلحظ أنّ الشّاعر "لم يقل الشّعر لينال به حظوة لدى أيّ كان، و إنّما وهبه الله ملكة شعريّة، و شاهد أشياء أبهجته و أخرى أثارت حزنه و أدمت قلبه، و عانى من ويلات الاستعمار كسائر مواطنيه و رأى موطنه في مأزق، و دينه ينحرف به أقوام عن الجادة و كانت له تأمّلات إنسانيّة و أخرى شخصيّة فعبّر عن ذلك كلّه في هذه القصائد العديدة . . ."[1].

نعم لقد عبّر الشاعر عن تأمّلاته بلفظ سلس و عبارة قوية و عزّزها بإيمان صادق و أحاسيس واضحة، فشعره أبرأ ما يكون من "أعذب الشعر أكذبه" كيف لا و هو الّذي عبّر بكلّ إخلاص و تفاني عن قضايا وطنه بكلّ عزم و ثبات و عبر مختلف مراحل حياته .

وعموما فإنّ المتتبّع لمسار العيد الشّعري يمكنه استخلاص النّقاط التّالية :

1– أنّ الشّاعر ظلّ يقرض الشّعر على أصوله العمودية المعروفة في الشّعر العربي التّقليدي .

2– أنّه ظلّ يتناول الموضوعات الملتزمة من أوّل قصيدة قرضها إلى نهاية دربه الشّعري [2].

3– أنّه كان شديد التّأثّر بالقرآن الكريم ممّا ساعده على الاقتباس و الإفادة منه.

4– أنّه اعتمد في قرضه للشّعر على الوحدة الموضوعيّة و ليس الوحدة العضويّة، و هو دأب الشّعراء التّقليديين.

5– أنّ لغته الشّعريّة امتازت بالبساطة و السّهولة مع المتانة و الوضوح ذلك لأنّه كان يرى في الشّعر رسالة لا بدّ للشّاعر أن يؤديها .

---

[1] محمد مصايف، فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث، ص 10 .

[2] ينظر : د . عبد المالك مرتاض، دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية 1992، ص 35.

كلّ هذه النّقاط سنعرض لها بشيء من التّفصيل من خلال هذا الفصل .

1-بين القديم و الجديد :

إنّ أوّل سؤال يتبادر إلى ذهننا إن نحن أردنا تصنيف شعر محمّد العيد هو : كيف يمكننا تصنيف شعره، أهو تقليدي محض أم هو يحمل معنى الحداثة، أم هو بين بين ؟ و على ضوء الدّراسة الّتي قمنا بها من خلال هذه الرّسالة يمكننا الإجابة عن هذا التّساءل بما يلي :

إنّنا نرى أنّ شعر محمّد العيد قد تأرجح بين القديم و الجديد- علما أنّ الشّاعر كان ميّالا إلى التّقليد و المحافظة شأنه في ذلك شأن سائر شعراء مدرسة الإحياء - و لكن بالرّغم من ذلك فثمّة مظاهر تعدّ من الحداثة بما كان نجدها مبثوثة في ثنايا قصائده و سنأتي على ذكرها بالتّفصيل.

إنّنا إذا نظرنا إلى الشّاعر من خلال رؤيا تعادلية لا شكّ سوف لن نصنّفه كمجدّد بالمفهوم النّقدي المعاصر، و لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار المحيط الّذي عاش فيه محمّد العيد و ما قدّمه الشّاعر فإنّنا لا محالة سوف نرى أنّه تجاوز إلى حدّ بعيد كثيرا من جيله الشّعري ذلك لأنّ الشّاعر كان همّه الوحيد هو تجسيد آمال و آلام شعبه الّذي كان يعاني تحت نير الاستعمار، فكان يتّخذ أقرب السبل و أنجعها إلى قلوب المتلقّين .

و عموما فإنّ شعر العيد جاء في إطار كلاسيكي تقليدي، و كيف له أن يكون غير ذلك و هو يعيش في عصر كان أبعد من أن يستفيد من إفرازات الثّقافة المعاصرة و سبب ذلك بيّن و هو ضغط المستعمر الّذي وضع كلّ الحواجز الممكنة في وجه الأدباء و المفكّرين حتّى

لا يتسنّى لهم الإفادة من كلّ ماهو جديد، و بالمقابل فإنّ الأدباء و المفكّرين قد اتّخذوا من التّراث ثورة يواجهون بها الغزو بكلّ أنواعه و على الأخصّ الغزو الثّقافي[1].

و هكذا أصبحت فكرة الإحياء و الرّجوع إلى الماضي هي قبلتهم و النّموذج الّذي يحتذون حذوه حتّى إنّنا لنجد ابن باديس يصرّح قائلا : "الشّعر العربي هو أصل ثروتنا الأدبيّة، و أصل بلاغتنا و مرجع شعرائنا في اللّغة و البلاغة و الأساليب العربيّة، فدرسه و الاستفادة منه، أمر ضروري لحفظ هذا اللّسان المبين..."[2].

لقد أشرنا سابقا أنّ محمّد العيد كان ينتمي إلى المدرسة الإحيائيّة لهذا كان شديد الصّلة بالنّموذج الفنّي القديم في طرائق التّعبير و أساليب التّصوير - مع الإشارة إلى أنّه قد استطاع أن يحرّر شعره ممّا طغى على أسلوب الشّعر العربي في عصر الانحطاط من ضعف و ركاكة و تصنّع و جمود[3]. و لتجدنّ الشّاعر يوجّه النّاشئة للإفادة من الأدب القديم فيقول :

إنّي أرى الأدب الجديد كما كسا ∴ حللا ترف بحسنها و برودا

فتعهّد الأدب القديم فإنّه ∴ أحلى محاورة و أصلب عودا[4]

و يمكننا القول إنّ التّجديد قليل لدى شعراء الإصلاح بوجه عام، فالبحور القديمة هي المعتمدة في الأغلب الأعمّ،و القصيدة تتحكّم فيها وحدة الوزن و القافية، و هكذا فليس من الغريب في شيء إن وجدنا الطّابع التّقليدي يطبع شعر العيد و هو ما يعبّر عنه الدّكتور

---

[1] الثقافة و الثورة، مجلة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984 ، ع 11، رحلة في عالم محمد العيد الإنسان، الشاعر الثائر، أحمد دوغان، ص40.

[2] د. محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 428.

[3] ينظر: محمد بن سمينة، شخصيات لها تاريخ، محمد العيد آل خليفة، مرجع سابق، ص 60.

[4] الديوان، ص 413.

أبو القاسم بقوله : "و الواقع أنّنا لو اختبرنا شعره لوجدنا أكثره من الشّعر التّقليدي و لا سيّما من حيث الصّورة و طرق التّعبير، فتمسكه بالقافية و التّصريح و الاقتباس و التضمين و التّلغيز و تصيد الحكمة و المثل و البديع اللّفظي و طريقة تناول الموضوعات. كلّ هذه و غيرها جعلت شعره أقرب ما يكون إلى الشّعر التّعليمي الغارق في التّقليد . و إذا تجاوزنا هذا إلى الأغراض نفسها وجدناها جميعا تقريبا من الأغراض القديمة الّتي نظم فيها الشّعراء العرب على اختلاف عصورهم"[1] .

و كان من نتائج تأثّر الشّاعر بالتّراث القديم أن استخدم في شعره ألفاظا مبتذلة جاهزة، لا خيال فيها، و ما أكثر ما استعمل الألفاظ الّتي تدلّ على البيئة الصّحراويّة القديمة بطبيعتها و حياتها و حيواناتها في تشبيهاته و استعاراته و كناياته، فهو إن أراد تصوير الشّجاعة و الإقدام و الجرأة مثل لها بصورة الأسد و الشّبل و اللّبوءة و غيرها ممّا كان يرى فيه القدامى تجسيدا لتلك المعاني، و إن أراد تصوير النّذالة و الظّلم و الغدر جسّدها في صورة الذّئب و الأفعى و الغراب، و الثّعلب، أمّا عن السّلام و الوداعة و السّكينة فيمثّل لها بصورة الحمام و الغزال و اليمامة.[2]

و أمثلة ذلك كثيرة في ديوان الشّاعر نكتفي بذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر و لنبدأ بتلك الصّورة الّتي أضفاها العيد على واقع الجزائر تحت حكم الاستعمار، يقول :

و أغرب خطب هالني خطب موطن ∴ لنا منعته الشّمس أسراب أغرب

كما حبست عنه الرّياح و عارضت ∴ له دون سيل القطر من كلّ مسرب

---

[1] د. أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد ، مرجع سابق، ص 235 .

[2] ينظر : محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 428 .

فيا لك فردوسا تحوّلت دمنة ∴ و يا وحشة من أغرب فيك نعب [1]

فلا شكّ أنّ الغربان السّود هم المستعمر الّذي حوّل الجزائر من فردوس إلى بلقع ينعقون فيه كما تنعق الغربان على الدّمن و الأطلال و يقول محذّرا من خطر العلم إن هو لم يحسن استعماله :

نشأ العلم ملاكا طاهرا ∴ و استحال اليوم شيطانا رجيما

يطرد السّلم من الأرض كما ∴ يطرد الصّيّاد في القنص ظليما [2]

كما يقول :

ألسن تحتووي على السمّ كالحيّ ∴ ات فيها ليونة و عرام

لاذعات كأنّها جمرات ∴ قاطعات كأنّها أجلام [3]

و لمّا يصف أعضاء جمعيّة العلماء و هم في اجتماعهم السّنوي يقول :

و القوم كالأسد الرّوابض جثم ∴ من حولهم أو كالنّسور الوقع

قل للجزائر و هي أمّ مرضع ∴ مثل اللّبؤة أي أم مرضع

أبناؤك الأشبال فيك تزاوروا ∴ و تزاءروا في الغيل منك بمسمع [4]

إنّ مثل هذه العبارات كثير في شعر محمّد العيد و هو ما يدلّ دلالة قاطعة عن مدى تأثّر الشّاعر بالموروث الثّقافي القديم حتّى أنّ تلك العبارات لتتسلّل إلى أشعاره بصورة عفويّة نتيجة المخزون الثّقافي المتراص في ذاكرة الشّاعر، و هكذا لا نستغرب حين نجده يستعير بعض أدوات

---

[1] الديوان، ص 289 .

[2] الديوان، ص 337 .

[3] الديوان، ص 177 .

[4] الديوان، ص 177 .

الحروب القديمة ممّا يؤكّد سيطرة النّموذج الفنّي القديم في ذهنه كمثل قوله و هو يطالب بالاحتكام إلى كتاب الله و سنّة رسوله :

و لا صبح إلا سنّة نبويّة ∴ فمحص بها الآراء واجل المقاصدا

و حولك أسياف لها و أسنة ∴ تقارع عنها المحدثات الزّوائدا [1]

على أنّ هذا لا يمنع من أنّ أشعار محمّد العيد كانت تصبّ في مجرى واحد وترمي إلى أهداف واحدة يأتي في مقدّمتها : الرّغبة في معالجة الواقع و النّهوض به و بهذا كانت معظم مضامين شعره جديدة، فالشّاعر لم يكن يسعى إلى تحقيق غاية الإمتاع – حتّى و إن كان الهدف الأوّل من أيّ عمل أدبي – و إنّما كان هدفه و غايته هو خدمة مجتمعه سواء عن طريق الإصلاح أو عن طريق التّحريض على خوض المعارك من أجل تحقيق الحريّة المنشودة. من أجل هذا كلّه لم يحذ حذو القدامى في الاهتمام باللفظ أو اللّغة الشّعريّة بقدر ما صبّ اهتمامه على الطّريقة الّتي تساعده على إيصال فكرته إلى أبناء الأمّة، فكان أن اختار السّهولة و البساطة ليلج قلوب السّامعين فغايته أن يستوعب شعره مختلف شرائح المجتمع من شباب و شيب، مثقّفين و أميّين حتّى يتمّ له تحقيق هدفه و تبليغ رسالته، رسالة الإصلاح، هذا من ناحية، و من ناحية ثانية فقد نرى بعض مظاهر التّجديد في شعره كأن يخرج عن القافية إلى الموشّح كما فعل في موشّحه "يا هزارى"[2] و قصيدة "ليلاي "[3] و "آفة العين"[4] و "دمعة على القمر الخاسف"[5] .

---

[1] الديوان، ص 97.

[2] الديوان، ص 49.

[3] الديوان، ص 41.

[4] الديوان،ص 37.

[5] الديوان، ص 34.

كما تناول القصّة الشّعريّة من خلال قصيدة "تاعس ناعس" و غيرها دون أن نغفل عن مسرحية "بلال" الّتي تناول فيها شخصيّة تاريخيّة طالما عانت الظّلم و الإجحاف.

و هكذا أصبح "من الإنصاف أن نقول إنّ شعر محمّد العيد ليس كلّه قديما أو خاطئا فإنّ فيه ألوانا أخرى تعتبر الآن من أحدث الألوان و إن كان لم يرق في هذا السّلم إلاّ بعض الدّرجات فحسبه أنّه كان رائدا في بيئة لا تعرف إلاّ القديم و لا تؤمن بسوى ما جاء على غرار هذا القديم أو اقتبس منه"[1].

و إذا فيكفي الشّاعر فخرا و اعتزازا أنّه كان يعيش آلام شعبه و يعايشها و يشاركه دموعه و بسماته معبّرا عن ذلك كلّه في شعر حماسي يصوّر بصدق غيرته على وطنه المنهوب[2].

و من هنا جاز لنا اعتباره مجدّدا أو لنقل إنّه قد وضع اللّبنات الأولى لمدرسة التّجديد حتّى و إن لم يكن ذلك هدفه و لم يسع إليه.

2- الالتزام في شعره :

إذا كان الالتزام يعني أن يتقيّد الأدباء في أعمالهم الفنيّة بمبادئ خاصّة و أفكار معيّنة يلتزمون بالتّعبير عنها و الدّعوة إليها، و أن يكون الأديب صاحب رسالة في التّنبيه و الشّرح و التّوجيه بحيث لا يسمح لشاعريّته أن تحيد عنها، أو أن يكون مشاركا لأصحاب تلك المبادئ و الدّعوات الإصلاحيّة في نشر دعواتهم والتّمكين لها في القلوب و العقول[3]، فإنّ محمد العيد يعدّ صاحب الرّيادة و في طليعة الملتزمين، و إذا كان أصحاب مذهب الالتزام يؤكّدون على وجوب رعاية الأخلاق و الالتزام بعرض الموضوعات النّافعة و الأفكار الصّالحة الّتي تنمّي الفضائل

---

[1] د. أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد، مرجع سابق، ص 235.

[2] المرجع نفسه، ص 239.

[3] ينظر: بدوي طبانة، قضايا النقد الأدبي، الرياض، دار المريخ للنشر، ط1، 1984، ص 15.

الإنسانيّة و تحقّق غايات أخلاقيّة[1]، فإنّ هذا هو مطلب الشّاعر و غايته، بل هو مطلب شعراء الإصلاح عموما الّذين كانوا دائمي الرّبط بين الشّعر و الأخلاق، فهم يتصوّرون رسالة الشّاعر إصلاحيّة توجيهيّة و تعليميّة، و قد يبلغ بهم الحدّ إلى اعتبار الشّاعر قدوة و مثال يحتذى به لذا كان لزاما عليه التّمسّك بمكارم الأخلاق[2].

إنّ نظرة الشّعراء الإصلاحيّين إلى الشّعر و ماهيته تأثّرت بالواقع السّياسي الاجتماعي المفروض، ممّا جعلهم يغلبون النّظرة إلى المضمون على حساب الشّكل، فهم في إلحاحهم على دور الشّعر الإصلاحي و النّضالي لم ينظروا إلى الشّاعر على أنّه إنسان مبدع له عواطفه الذّاتية و إحساسه المرهف و هي نظرة كان لها الأثر الواضح في النّتاج الشّعري إذ حدّد مجالاته و أنقص من قيمته الفنيّة[3]. و لعلّ محمّد العيد نفسه حاول أن يبرّر موقفهم ذلك حين صرّح قائلا: "إنّ المجتمع في تلك الفترة فرض علينا أن نطرق مواضيع معيّنة و لذا جاءت أشعارنا توجيهيّة تربويّة اجتماعيّة"[4].

إنّ الشّاعر بتعريفه هذا لماهية الشّعر أقرب ما يكون إلى المدرسة الواقعيّة، و إن لم نلمس في أشعاره المدارس الأدبيّة بمفهومها المعاصر و إنّما نلمح شيئا منها و هي عفويّة نابعة من أعماق الشّاعر الذي ساير الواقع الجزائري في جميع مناحيه و تفانى في خدمة قضيّة

---

[1] المرجع نفسه، ص 63.

[2] ينظر : محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 70.

[3] المرجع نفسه، ص 80.

[4] محمد بن سمينة، شخصيات لها تاريخ، محمد العيد، مرجع سابق، ص 59.

شعبه و هو يؤمن كلّ الإيمان أنّ الشّعر علاوة على أنّه يسلّي و يرفّه عن الخواطر "يهذّب الأخلاق و يلطّف الشّعور، و يعين الأمة في حياتها الماديّة و السّياسيّة و الإجتماعيّة"[1] .

و عموما فإنّ ثمّة مواضيع كبرى التزم الشّاعر بالخوض فيها و نافح عنها و كافح من أجلها و يأتي في طليعتها مقوّمات الأمّة: الإسلام و العروبة و هي كلّيات تغلب على نتاج الشّاعر و تطبّعه ، إضافة إلى الأغراض التقليديّة المعروفة من وصف و حكمة و إخوانيات و مراثى، كما أنّ العيد كان صاحب رسالة نضاليّة ممّا أوجب عليه أن يوظّف شعره للنّهوض بتلك الرّسالة، فكان أن اهتمّ بالموضوع على حساب النّاحيّة الفنيّة و هو دأب جلّ الشّعراء الذّين واكبوا الثّورة بحيث تسامحوا في الإحتكام إلى النّظرة الفنيّة في القصيدة و شفيعهم في ذلك القالب الحماسي الذّي ينسجم مع جوّ المعارك[2] .

وما يمكننا استخلاصه في الأخير هو أنّ التزام الشّاعر بمظاهر العصر و البيئة و الحياة العامّة المحيطة به حدّد من إمكاناته بحيث لم يستطع أن ينطلق في فنّه بعيدا، و بقي يدور في آفاق محدودة، ففي مجال التعبير مثلا لم يستطع الشّاعر أن يرقى بلغته- و هي العنصر الأساسي في أيّ عمل أدبيّ- إلى مستوى اللّغة الشّاعريّة بعد أن أثقل كاهلها بتلك النبرة الخطابيّة و التقريريّة المباشرة. وما نقوله عن اللّغة سار على عنصر التصوير، فتصوير الشّاعر يكاد يقوم في معظمه على الصور الشّعريّة البسيطة التقليديّة يستمدّها طورا من الثّقافة الإسلاميّة و يستوحيها طورا آخر من التراث الشّعري القديم . على أ نّ الشّاعر قد اختار ذلك القالب الفنّي لشعره نتيجة لمجموعة من العوامل يأتي في صدارتها التزامه بظروف مجتمعه كما ذكرنا آنفا و مراعاته الغاية التّي ينشدها من الشّعر و الجمهور الذّي يتوجّه به إليه.

---

[1] التعريف للعقّاد نقلا عن: عمر الدسوقي :في االأدب الحديث ،مرجع سابق، ص256

[2] ينظر نور سليمان ،الأدب الجزائري في رحاب الرّفض و التحرير ،مرجع سابق، ص402

3- أثر القرآن الكريم في شعره:

إنّ الدّارس لشعر محمّد العيد يدرك بوضوح مدى تأثره بكتاب الله العظيم و استلهامه في شعره معنى و مبنى و هذا راجع لنشأته الدّينيّة الّتي وطّدت العلاقة بين الشّاعر و المصحف الشّريف، و لتجدنّ أثر القرآن باد في أخبار الشّاعر علاوة على أشعاره ممّا يدلّ دلالة واضحة أنّ ذلك السّفر الخالد كان دائم المرافقة للشّاعر، و أنّ هذا الأخير كان دائم التّدبّر في مقاصده الشّريفة، يتذوّق بيانه و يهتدي بهديه.

و الحقيقة أنّ محمّد العيد لم يكن بدعا في الشّعراء من حيث التّأثّر بالقرآن الكريم، بل إنّ شعراء الإصلاح عامّة كانوا يولّون وجوههم شطره علما منهم أنّه كنز لا يفنى فهو محصّن من كلّ أسباب الضعف والإبتذال:

كتاب الله كنز لايفنى ∴ و شمس لا يغيب لها ضياء

هدى للمتّقين فكن تقيا ∴ و سله من الهداية ما تشاء[1]

و هكذا فقد "كان اتجاه زعماء الإصلاح إلى القرآن حتما مقضيّا لأنّ فيه الدّواء لما يشكون منه و الحلول للمشاكل الّتي يتخبّط فيها مجتمعهم و فيه الغنيّة عمّا يطلبونه من الأساليب و البيان الّذي يساعدهم على الرّفع من مستواهم الأدبي و زادهم اللّغوي..."[2].

و لم يكن القرآن معينا لزعماء الإصلاح في تقويم السّلوك و تهذيب النّفوس فحسب بل لقد كان أيضا منبعا يغرفون منه ما ينمّي ثروتهم اللّغويّة و يكسبهم أساليب أدبية راقية، لهذا

---

[1] الديوان، ص 538.

[2] محمد ناصر بوحجّام : أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث (1925 - 1976) الجزائر- المطبعة العربية 1992، ط1، ج1، ص28.

فلا غرابة إن وجدنا الشّيخ الإبراهيمي أوّل ما ينصح به المتعلّمين في تكوينهم اللّغوي و الأدبي هو الإفادة من القرآن الكريم، يقول : "احفظوا كلّ ما يقوّي مادّتكم اللّغويّة، و ينمّي ثروتكم الفكريّة و يغذّي ملكتكم البيانيّة، و القرآن القرآن ! تعاهدوه بالحفظ و أحيوه بالتّلاوة و ربّوا ألسنتكم على الاستشهاد به في اللّغة و القواعد"[1].

و إذا كان هذا دأب الإصلاحيّين و مذهبم فليس غريبا على محمّد العيد و هو الّذي عرف بورعه و تقواه و تمسّكه بالقرآن الكريم قراءة و تطبيقا أن يرى في لغة القرآن النّموذج الّذي يحتذى به في روعة بيانه و سلاسته، فالدّارس لديوان الشّاعر يذهل أمام ذلك الكمّ الهائل من الاقتباسات القرآنية في شعره بحيث أنّ جلّ أشعاره تنمّ عن تأثّره بالقرآن الكريم تعبيرا و تصويرا، و كثيرا ما كان يشدّه و يجلب انتباهه قصّة سيّدنا يوسف عليه السّلام بدليل أنّه استمدّ منها صوره الشّعريّة أكثر من مرّة [2]، فحين أراد أن يعبّر عن موقف النّاس من شخصه و من شعره تذكّر موقف إخوة يوسف منه حين ألقوه في الجبّ حسدا من عند أنفسهم :

و قافية أمست تمثل يوسفا ∴ بما فيه من يمنّ و حسن صفات
خلعت عليها من شعوري مطارفا ∴ و كلّلتها ما شئت من خطراتي
و قوم رموها في غياهب جبّهم ∴ و يا كثر ما في الجبّ من حشرات [3]

كما شبّه واقع الشّعب الجزائري المظلوم بواقع سيّدنا يوسف الّذي اتهم زورا و بطلانا من طرف امرأة العزيز و لم يكن لديه ما يثبت براءته سوى قميصه.

وطني الّذي همّوا به، و دليله ∴ كدليل يوسف، ثوبه المقدود

---

[1] عيون البصائر، س 1963، ص 210.

[2] ينظر : محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، ص 478.

[3] الديوان، ص 11.

لا يأمنوا صبّ العذاب عليهم ∴ فرعون أغنى منهم و ثمـود [1]

و بعدما تفاقمت الأوضاع في الجزائر و فشا الجوع في أرجائها، رأى الشّاعر في تلك السّنين القاسية السّنين السّبع الشّداد الّتي عرفها التّاريخ و ذكرت في سورة يوسف :

فشا الجوع، و اشتدّ عسر المعاش ∴ و عادت سنو يوسف الغابرة [2].

و الصّورة نفسها تحضره عندما عرفت البلاد طعم الحرّية بعد تلك المعاناة الّتي عاشها إبّان حرب التّحرير .

سـنو يوسف السبع الشّداد ∴ تصرّمت وأعقبها عام الإغاثة و العصر [3]

فكانت البشرى الّتي زفّت إلى الشّعب الجزائري في أعقاب الاستقلال بعد سبع سنين من التّنكيل و التّعذيب بمثابة قميص يوسف "الّذي ألقي على وجه يعقوب فارتدّ بصيرا ":

زفّ البشير إليه بشرى نصره ∴ من بعد عدوان أطال فأضجرا [4]

و كما استخدم الشّاعر قصّة يوسف في الكثير من أشعاره، فقد استخدم قصصا أخرى كقصّة موسى عليه السّلام حين شبّه لهيب الثّورة و التفاف الشّعب حولها بلهيب النّار المقدّسة الّتي أنارت طريق الهدى أمام سيّدنا موسى عليه السّلام و قومه :

مـا شككنا و الشّعب فيها كليم ∴ أنّ نار الأوراس مـن سيناء

حيث صار (طور) التّجلّي و صرنا ∴ كـلّنا حـولها من الكلماء [5]

---

[1] الديوان، ص 22 .

[2] الديوان، ص 250 .

[3] الديوان، ص 432، البيت مقتبس من قوله تعالى : ﴿ ثمّ يأتي من بعد ذلك عام، فيه يغاث النّاس، و فيه يعصرون ﴾ ، الآية 49، سورة يوسف

[4] الديوان، ص 445 .

[5] الديوان، ص 436 .

و هكذا يمضي الشّاعر يغرف من ذلك النّبع الصّافي و يستلهم معانيه الجليلة، و قد لا يتّسع المقام للإشارة إلى كلّ تلك المعاني الشّريفة الّتي تمتّع الشّاعر بالإفادة منها لهذا نكتفي بإيراد البعض منها، كمثل قوله و هو يشير إلى المستعمر حين يحتمي بالأحلاف العسكريّة و المنظّمات الدّوليّة علّه يجد من ينصره ضدّ الثّورة الجزائريّة علما أنّ هذا لا يجدي نفعا و أنّ مآل الظّالم إلى السّقوط، يقول :

هيهات يحرز غاصب نصرا و لو ∴ بالجنّ و الإنس احتمى و استنصر[1]

فالشّاعر يتحدّى المستعمر كما تحدّى الله الإنس و الجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، قال : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس و الجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[2].

و يقول:

أرى حظّ أرذال النّفوس مواتيا ∴ و حظّ كريم النّفس غير مواتي

فأوجس في نفسي من الدّهر خيفة ∴ لعلمي بأنّ الدّهر ذو عمرات[3]

و اقتبس العبارة من قوله تعالى ﴿ فلمّا رأى أيديهم لا تصل إليهم نكرهم و أوجس منهم خيفة، قالوا لا تخفإنّا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾[4].

و بعد أن نجا الطيب العقبي من المكيدة الّتي حيكت ضدّه و ظهرت براءة الشّيخ من تهمة اغتيال المفتي كحول قال :

---

[1] الديوان، ص 444.

[2] الآية 88 من سورة الإسراء.

[3] الدّيوان ،ص10

[4] الآيتان: 9،8 من سورة الطارق

سرمع التوفيق فهو الدّليل ∴ حصحص الحقّ و بان السّبيل[1]

فالبيت يذكّرنا بقوله تعالى : ﴿ قالت امراة العزيز الآن حصحص الحقّ، أنا راودته عن نفسه، و إنّه لمن الصّادقين ﴾[2] .

و قد شبّه الشّاعر الشّيخ الإبراهيمي و مساهمته الفعّالة في نشر العلم بسيّدنا عيسى الّذي يردّ الرّوح إلى الموتى أو بالبشير الّذي حمل قميص يوسف و ألقاه على وجه يعقوب، فارتدّ بصيرا:

هل كنت عيسى الّذي أحيا الرّفاة بما ∴ أحيا، و بدّل آجالا بآجال

أم البشير الّذي ألقى القميص على ∴ يعقوب، طبّا بنور للأسى جالي[3]

و كما تأثّر العيد بالقرآن الكريم فلا بدّ أن يتأثّر بالسّنّة النّبويّة باعتبارها ثاني قطب – بعد القرآن – ينير حياة المسلمين، يقول محذّرا الشّعب من خطر التّفرقة :

و الشّاة للذّئب سهم ∴ إن فرّطت في القطيع[4]

من قوله – صلّى الله عليه و سلّم – "يد الله مع الجماعة، و إنّما يأكل الذّئب من الغنم القاصية" .

و هكذا فقد كان القرآن الكريم بالنّسبة للشّاعر معينا لا ينضب، إذ أنّنا نلمس أثره جليّا في معظم شعره تعبيرا و تصويرا، كيف لا و هو الّذي ظلّ يدعو إلى تنشئة الجيل على هدي القرآن :

---

[1] الديوان، ص 129 .

[2] الآية 51 سورة يوسف .

[3] الديوان، ص 502 .

[4] الديوان، ص 175 .

هـلمّ بـني قـومي إلى الـذّكر نمله ∴ ففي الذّكر أخلاق سمت و مكارم
و لست أرى القرآن إلاّ مـنـاجما ∴ أتـدرون مـا تـحوي عليه المناجم؟
على الدّين و الدّنيا و عليهما معا ∴ شـهـودا و غـيـبا فهو بالكلّ قائم
فربّوا عليه النّـاشـئين تلح لهم ∴ بـه طـرق مـشـروعـة و معالم

4- الوحدة الموضوعيّة :

يقوم تصميم القصيدة عند محمّد العيد على وحدة البيت "فهو مشهور على أنّه شاعر الحكمة و المثل، إنّ المرء عندما ينزع نزوعا تأمّليا عقليّا يكون همّه الأوّل هو إبراز هذا التّأمّل الفكري في أوجز عبارة و من ثمّ يكون البيت حيّزا أو قالبا يحتوي على هذه التّجارب ..."[1].

و قد سئل الشّاعر عن طريقة نظمه للشّعر فأجاب "طريقتي في نظم الشّعر أن أسجّل كلّ ما يجيش بخاطري في موضوع من الموضوعات، وربّما بدأت بآخر القصيدة قبل أوّلها . . ."[2] م

فمحمد العيد يؤمن إذن بوحدة البيت و ليس وحدة القصيدة و هذا ما ذهب إليه الدّكتور سعد الله حين صرّح أنّ الشّاعر " . . . قلّما يحصر انفعالاته في موضوع واحد، و إنّ المرء لا يكاد يظفر بالوحدة الموضوعيّة إلاّ في المقطوعات القصيرة ذات الأبيات المعدودة و حتّى هذه لا تخلو من سرحان ذهني، و مقارنات قد تخرجه فيما هو فيه إلى حين، أمّا قصائده فإنّها لا تكاد تتناول موضوعا واحدا، أو تتحدّث عن فكرة واحدة"[3].

---

[1] محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، ص 599 .

[2] المرجع نفسه، ص 560 .

[3] د . أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر، محمد العيد، مرجع سابق، ص 223 .

و تعليل ذلك السّرحان أنّ "الشّاعر يحاول أن يستولي على انتباه الجمهور، و لذلك فهو يعمد إلى التّنويع في الموضوعات على الطريقة الخطابيّة المعروفة، و الطّريقة الوعظيّة، و أكثر ما نجد هذه الطّريقة عند محمد العيد في قصائد المناسبات الحامية. . ."[1].

و قد يعيب البعض على الشّاعر طريقته تلك في النّظم معتبرا إيّاها غميزة في شعره و يعزّز هذا الحكم قول العقّاد : "إنّ القصيدة ينبغي أن تكون عملا فنيا تامّا يكمل فيه تصوير خاطر أو خواطر متجانسة. . .فالقصيدة الشّعريّة كالجسم الحيّ، يقوم كلّ قسم منها مقام جهاز من أجهزته ، و لا يغني عنه غيره في موضعه إلاّ كما تغني الأذن عن العين، أم القدم عن الكفّ، أم القلب عن المعدّة. . ."[2].

فالعقّاد يعيب على الشّعراء التّفكّك بمعنى أن تكون القصيدة مجموعة مبدّدة من أبيات متفرّقة لا تؤلّف بينها وحدة غير وحدة الوزن و القافية. و حتّى تتجلّى لنا طريقة العيد في قرض الشّعر بصورة واضحة نأخذ قصيدة من ديوانه و لتكن قصيدة "استوح شعرك"[3] الّتي يبدأها الشّاعر بتحيّة يزفّها إلى المجتمعين في الاجتماع السّنوي لجمعيّة العلماء المسلمين ليفصح بعدها عن مدى حبّه و تعلّقه بوطنه :

يا موطنا لي خصبه و نعيمه ∴ و له هوايا على المدى و تشيعي

ثمّ ينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن إفريقيا (و يعني بها المغرب العربي) ليربط بينه و بين الحجاز، و هي طريقة الأقدمين في الانتقال من موضوع لآخر دون تمهيد و لا ربط واضح، ويتعرّض الشّاعر بعد ذلك لموضوع آخر، و هو موضوع العلم ليحثّ على بناء المدارس :

---

[1] المرجع نفسه، ص 224.

[2] مرجع سابق، ص 5.

[3] الديوان، ص 143.

العلم سلطان الوجود فسد به ∴ من شئت أو ذد عن حياضك و ادفع

والجأ له بدل الحصون فلا أرى ∴ حصنا كمدرسة سمت أو مصنع

فموضوع العلم و الحديث عنه مع ذمّ الجهل كان يمكن أن يكون موضوعا مستقلاّ يكرّس له قصيدة برمّتها .[1]

و بعد هذه المواضيع المختلفة و الكثيرة يعود الشّاعر ليتحدّث عن الجزائر و حبّه لها و تفانيه في خدمتها لينتقل بعدها إلى الحكمة قائلا :

و أتى الإله بأمّة لا تنحنى ∴ أبدا لصوت فوقها أو مقمع

تأبى سوى الإسلام فيها مهيعا ∴ لسلوكها أعظم به من مهيع

و هكذا و من خلال القصيدة نلحظ أنّ الشّاعر لا تهمّه وحدة الموضوع بقدر ما تهمّه وحدة البيت و لا أدّل على ذلك من كثرة الأغراض فيها كما في سائر أشعار ديوانه، فوحدة البيت هي مقياس الجودة و الرداءة عنده [2] و يستمرّ الشّاعر في قصيدته ليوجّه خطابه إلى فرنسا قائلا :

يا دولة عنّا تجافي جنبها ∴ رقي لنا و عن التّجافي أقلعي

ليدعو بعد ذلك إلى النّهضة و اليقظة :

يا أمّة يرجو الخصوم هجوعها ∴ من بعد نهضة احذري أن تهجعي

و يتحدّث عن العدل الّذي يهيم به ليخلص إلى التّحدّث عن الشّرق و الصّلة الّتي تربط بلاده به :

بين المشارق و المغارب أخوّة ∴ لك عصبة بقلوبهم و الأذرع

---

[1] ينظر : عبد الله ركيبي، قضايا عربية في الشعر الجزائري، مرجع سابق، ص 151 .

[2] المرجع نفسه، ص 151 .

ليتحدّث بعد ذلك عن القدس و ما يجري فيه، كما يتحدّث عن الأخلاق متأسّفا عن ذهابها بين النّاس، ليعود إلى واقع الجزائر و ما سيطر عليه من ضعف و بؤس ليتنقل إلى الأديب و يتحدّث عمّا يلاقيه من احتقار و ازدراء و يختم القصيدة بمخاطبة المجتمعين ناصحا إيّاهم :

أذوي العمائم سايروا قرآنكم ∴ و تتّبعوا هدي الرّسول الأشفع

أذوي العمائم علموا تعهّدوا ∴ بالوعظ و الذّكرى ذوات البرقع

ليحثّ الشّعب بعد ذلك على الأخذ بأسباب النّهضة و التّقدّم :

يا شعب إنّ الكون حقلك فاحترث ∴ و ازرع فحقل الكون أخصب مزرع

ثق بالإله تعش عزيز القدر لا ∴ بمرغم أنفا و لا بمجدع

فبإذنه في البدء قد حزّت الرّضا ∴ و بإذنه ستحوزه في المقطع

و هكذا فإنّ القصيدة حافلة بأغراض شتّى، و هذا دأب العيد في جلّ أشعاره إن لم نقل كلّها، يجمع في القصيدة الواحدة بين السّياسة و الإصلاح و التاريخ و الوصف و الدّين[1]، و هذا يؤكّد ما ذهبنا إليه من أنّ الشّاعر كان يرمي إلى تأدية رسالة إصلاحيّة لهذا نجده يعمل على التّنويع بغية استقطاب انتباه الجمهور .

5- اللّغة الشّعرية :

تميّزت اللّغة الشّعريّة عند شعراء الإصلاح عامة بالتّقريريّة و المباشرة و هو أمر يعود إلى مفهوم الشّعراء لوظيفة الشّعر و رسالته في الحياة، فلم يكن الشّاعر الإصلاحي ينظر إلى اللّغة من جانبها الجمالي قصد إثارة الإحساس الفنّي لدى المتلقّي بقدر ما كان يهمّه إيصال الفكرة إليه، فالشّعر عنده وسيلة من وسائل الإصلاح و التّربية و التّوجيه و ليس وسيلة للتّرفيه

[1] ينظر: سعد الله، شاعر الجزائر ، محمد العيد، مرجع سابق، ص 224 .

عن الذّات، و التّعبير عنها، و مهمّة الشّعر عنده هي الإقناع لا الإمتاع. إنّ مثل هذه النّظرة إلى وظيفة الشّعر جعلت الشّعراء يتعاملون مع الألفاظ على أنّها وسيلة للتّعبير و ليست غاية في حدّ ذاتها .

إنّ لغة الشّعر الإصلاحي بسيطة و سهلة، لا تخرج عن حدودها المعجميّة بحيث لم تحمل على غير محملها – هذا بالرّغم من أنّ شعراء الإصلاح كانوا شديدي الارتباط بالتّراث العربي القديم المعروف بكثرة المفردات المعقّدة و الغريبة.

هذا عن شعر الإصلاح عامّة، فإذا انتقلنا إلى شعر العيد وجدنا ميزة الوضوح و البساطة تطغى عليه، فقدكان يهمّه أن يفهم الجمهور عليه و يقتنع بآرائه لذلك كان يتوخّى الوضوح في ألفاظه و معانيه معتمدا البساطة المتناهية في الألفاظ و التّراكيب. حتّى "إنّك لتقرأ شعره فلا تحتاج معه إلى قاموس ينجدك في تفسير الغامض من الألفاظ و لا تحتاج إلى كدّ ذهني للوصول إلى ما يريد من المعاني، فهو شعر قريب من النّفس لبعده عن التّكلّف من ناحيتي الأسلوب و المعنى"[1].

إنّ الألفاظ الّتي كان يتداولها الشّاعر تدور في فلك الإصلاح و النّهضة و بالتّالي الدّعوة إلى العلم و مقاومة الجهل و التّمسّك بالمقوّمات الأساسيّة للأمّة من لغة و دين لذلك نجده يستخدم لغة واضحة مباشرة، و قد ساعده على اختيار ذلك المنهج طبيعة عمله، فقد كان يعمل في سلك التّعليم و الصّحافة كما كان إماما في المسجد ممّا جعله يتعامل مع الألفاظ البسيطة، السّهلة حتّى تستطيع استعابها مختلف شرائح الأمّة، على أنّ هذا لا يعني أنّ لغة الشّاعر ضعيفة بل العكس هو الصّحيح، فقد كان يستعمل لغة متينة سليمة تمليها عليه ثقافته القائمة على أسس

---

[1] د. سعد الله، شاعر الجزائر، محمد العيد، مرجع سابق، ص 213.

عربيّة خالصة يأتي في مقدّمتها القرآن الكريم، و يليه التّراث العربي القديم. و عموما فإنّ أسلوبه بسيط لا يبدو فيه التّأنّق و الجري وراء الزّخرفة اللّفظيّة.

و لمّا كان الشّاعر و لوعا بالشعر القديم فإنّ شعره قد احتوى على الكثير من صور التّشبيه ذلك لأنّ التّشبيه كان يحتلّ الصّدارة في الأشعار القديمة، كما اتّسمت أشعاره بالوضوح و السّطحيّة لأنّها تخضع للعقل لا للخيال.[1]

و ما يمكننا استخلاصه في الأخير هو أنّ الشّاعر كان يميل إلى التّعبير عن مشاعره بأقرب الطّرق حتّى أنّه ليوشك أن ينحدر في ذلك إلى لغة النّثر - لغة تقريرية مباشرة - و إن استطاع أن يوفّر لها السّلامة و الصّحّة فإنه لم يستطع أن يضمن لها ما تتطلّبه لغة الشّعر من إيحاء و ظلال و جمال و مردّ هذا أن يكون الشّاعر قد عمد إلى ذلك عمدا و هو يتوجّه بشعره إلى الشّعب و من ثمّ كان لزاما عليه أن يوائم بين أسلوبه و بين من يتوجّه إليهم بحديثه، فالغاية التبليغيّة عنده أسبق عن الغاية الجماليّة[2].

و يكفي الشّاعر فخرا و اعتزازا أنّه جسّد مشكلات شعبه الذّي عانى ويلات الإستعمار في عاطفة نضاليّة هادئة تدعو إلى الإصلاح أحيانا و أحيانا أخرى ثائرة و محرّضة و بذلك يكون بعيدا كلّ البعد عن "أعذب الشّعر أكذبه" و لعلّ قول الشّيخ ابن باديس يغنينا عن أيّ تعقيب إذ يقول : "إذا كان الشّعور هو الإدراك الحقيقي لتفاصيل المؤثرات و دقائقها و الشّعر هو الكلام الفصيح البليغ النّاشئ عن ذلك الشّعور . . . و الشّاعر هو صاحب ذلك

---

[1] ينظر : محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، مرجع سابق، ص 432.

[2] ينظر محمّد بن سمينة ،محمّد العيد ،شعره الإسلامي،مرجع سابقص168

الشّعور المعرب عنه بذلك الكلام و يحرّك شعور السّامع، فهذا هو الشّعور و هذا هو الشّعر، و هذا هو الشّاعر"[1].

و يعزّز قول الشّيخ قول آخر للأمير شكيب أرسلان يصرّح فيه عن مدى إعجابه بالشّاعر فيقول : "كلّما قرأت شعرا لمحمّد العيد الجزائري تأخذني في هزّة طرب تملك عليّ جميع مشاعري و أقول : إن كان في هذا العصر شاعر يصحّ أن يمثّل البهاء زهيرا في سلاسة نظمه، و خفّة روحه، و دقّة شعوره، و جودة سبكه و استحكام قوافيه الّتي يعرفها القارئ قبل أن يصل إليها و إنّ التّكلّف لا يأتيه من بين يديه و لا من خلفه فيكون محمد العيد الّذي أقرأ له القصيدة في المرتين و الثلاث و لا أمل و تمضي الأيام و عذوبتها في فمي. كان يظنّ أنّ القطر الجزائري تأخّر عن إخوته سائر الأقطار العربية في ميدان الأدب و لا سيما في الشّعر و لعلّه بعد الآن سيعوّض الفرق بل يسبق غيره بمحمد العيد".[2]

نعم هذا هو الشّعر و هذا هو الشاعر، شاعر استوفى كلّ معاني الشّاعريّة من صدق عاطفة، و حسن تعبير، و جودة سبك، و سلاسة نظم و . . . .فكان شعره من أحسن الشعر الّذي رافق مرحلة النّهوض السّياسي و الفكري و الإصلاحي و عبّر عن كلّ ما هو وطنيّ و إنساني و ديني، فاستحقّ صاحبه لقب شاعر الشّباب و شاعر المغرب العربي و شاعر الحكمة و غيرها من النّعوت الّتي لم تكن تصدر عن هوى و إنّما عن قناعة بموهبة الشّاعر و تمكّنه من أدوات التّعبير الشّعريّة.

---

[1] الثقافة و الثورة ، ع11، رحلة في عالم العيد، أحمد دوغان، ص 41.

[2] الديوان، التقديم، شكيب أرسلان ، البهاء، البهاء زهير ينشر في هذا العصر .

الخاتمة

الخاتمة

بعد هذه الجولة الّتي قمنا بها في حقل الأدب الإصلاحي و الّتي سمحت لنا أن نتتبّع الشّاعر محمّد العيد عبر مختلف مواقفه الإصلاحيّة استطعنا أن نستخلص عدّة نتائج نجملها فيما يلي :

أوّلا : إنّ الإصلاح وإن كانت له جذور ضاربة في أعماق التّاريخ، فقد وجد في الحركة الإصلاحيّة المناخ الّذي يغذّيه و يعينه على الانتشار في الأوساط الشّعبيّة و خاصّة بعد ظهور جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريّين الّتي مكّنت للمنهج الإصلاحي عبر مختلف أقطار البلاد . و كان الإصلاح الدّيني هو نقطة انطلاقها و فاتحة أعمالها، كما كان محور اهتمام محمّد العيد و هو عضو من أعضاء الجمعيّة و داعية من دعاتها .

ثانيا : كان محمّد العيد من دعاة الإصلاح في المنهج و الطّريقة و شاعر معاصر خدم الأدب العربي في الجزائر و نهض به بعد أن كاد يندثر تحت وطأة موجة الا ستعمار و الفرنسة .

ثالثا : إنّ الشّاعر يعدّ بمواقفه و شعره الإصلاحي من الشّعراء ذوي المهام التّاريخيّة، فقد رافق شعره النّهضة الجزائريّة و سجّل مختلف مراحلها سواء أكان ذلك أثناء الحقبة الاستعماريّة أم في أيّام الاستقلال .

رابعا :لقد استعمل محمّد العيد الكلمة سلاحا يجاهد بها العدوّ و يواجهه، كما استعملها وسيلة يحضّ بها الشّعب عامّة و الشّباب خاصّة على الأخذ بأسباب النّهضة مرتكزا أساسا على المنهج الإصلاحي، فهو وحده كفيل بتخليص الأمّة من الاستعمار و من مخلّفاته، و هو خير معين يعين المصلح على بناء القيم الأخلاقيّة الّتي تصنع الشّخصيّة في الإنسان العربي المسلم.

خامسا : كان الشّاعر يدعو إلى إحياء التّراث العربي و ينادي بالمحافظة على مقوّمات الأمّة من لغة و دين و عروبة و وحدة و تاريخ و تمسّك بأمجاد العروبة و الإسلام، مع الإشارة إلى أنّ دعوته للرّجوع إلى الماضي لم تكن تعني الرّكون إليه بل الإفادة منه و أخذ العبرة من معاني تراثه السّامية.

سادسا : لقد استطاع الشّاعر أن يجمع بين الإصلاح و الصّوفيّة دون أن يجد في ذلك أدنى حرج، فكان بذلك مصلحا صوفيا داعيا إلى الإصلاح ناشرا للمفهوم الصّحيح للإسلام و مقاوما للانحراف و الجمود و الأهواء .

فبحكم تكوينه الدّيني و الثّقافي اعتنق الشّاعر الدّعوة الإصلاحيّة في سنّ مبكّر بعد أن رأى فيها امتدادا للصّوفيّة الحقّة الّتي ورثها عن أبيه.

سابعا : ظلّ الشّاعر طوال حياته يدعو إلى العقيدة يبرز محاسنها و يحثّ على الاعتصام بها لأنّه يؤمن أنّها السّبيل الوحيد لخلاص الأمّة من المكائد الّتي تحاك ضدّها و ضدّ قيمها و مقوّمات شخصيّتها ممّا يؤكّد ارتباطه الوثيق بالحركة الإصلاحيّة الّتي كانت تربط دوما بين قضايا الفكر و الثّقافة و الأدب و بين الدّين الإسلامي.

ثامنا : لم يفصل محمد العيد أبدا بين فنيّة الأدب و اجتماعيته ذلك لأنّه كان صاحب قضيّة، و صاحب رسالة نضاليّة إصلاحيّة ممّا أوجب عليه أن يوجّه شعره للنّهوض بتلك الرّسالة، فمهمّة الشّعر عنده هي الإقناع و ليس الإمتاع، و أشعار محمّد العيد كلّها تصبّ في مجرى واحد و ترمي إلى أهداف واحدة و هي الرّغبة في معالجة الواقع و النّهوض به.

تاسعا : إنّ طبيعة الشّعر في خصائص فنيّات الأداء عند محمّد العيد ، لم تزغ عن مميّزات القصيدة العربيّة في موروثها العربي سواء في البناء أو في الوزن و الإيقاع، فهي تسير على نهج أدب النّهضة و الانبعاث كما ظهر في مشرق الأمّة و في مغربها .

عاشرا : إنّ الاتّجاه الإصلاحي في شعر محمّد العيد آل خليفة يكاد يساير الواقع الحرفي للأمّة العربيّة و الإسلاميّة في مضمونه التّاريخي و الحضاري بكلّ صدق و أمانة في الأداء و لذلك يتجلّى الجانب الفنّي في قصائده الإصلاحيّة شكلا من أشكال الأداء و وسيلة من وسائل التّوصيل و الاتّصال و الخطاب للأمّة.

قائمة المصادر و المراجع

I- الكتب :

1- آل خليفة، محمد العيد : الديوان - الجزائر- المؤسسة الوطنية للكتاب ط2-1922م.

2- الإبراهيمي، أحمد طالب : آثار الإمام محمّد البشير الإبراهيمي - بيروت- دار الغرب الإسلامي-ج1-1977 .

3-الإبراهيمي، محمد البشير : آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي - الجزائر- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع -ط1- ج1-1398هـ-1978م.

4-الإبراهيمي ، محمد البشير : عيون البصائر- الجزائر- الشركة الوطنية للنشر و التوزيع -ج2.

5-إبراهيم ، حافظ : الديوان - بيروت - دار العودة -ج1

6-ابن خلدون، عبد الرحمن : مقدّمة ابن خلدون - بيروت-لبنان - دار القلم - ط6 - 1406هـ - 1986 م.

7-ابن سمينة، محمد : شخصيات لها تاريخ : محمد العيد آل خليفة ، الجزائر - المؤسسة الوطنية للكتاب - 1989م.

8- ابن سمينة، محمد : محمد العيد آل خليفة - دراسة تحليلية لحياته - الجزائر - ديوان المطبوعات الجامعية - 1992 .

9-ابن سمينة، محمد : محمد العيد آل خليفة، شعره الإسلامي - الجزائر - معهد اللّغة و الأدب العربي - جامعة الجزائر .

10- ابن العقون، عبد الرحمن بن ابراهيم : الكفاح القومي و السّياسي من خلال مذكّرات معاصر، الفترة الثانية 36 - 1945- الجزائر - المؤسسة الوطنية للكتاب - ج2- 1984 .

11- ابن قينة، عمر : شخصيات جزائرية - قسنطينة - دار البعث للطباعة و النشر - ط1- 1983 .

12- ابن قينة، عمر ، صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث (أعلام و قضايا و مواقف)- الجزائر - ديوان المطبوعات الجامعية - 1993 .

13- ابن قينة، عمر : في الأدب الجزائري الحديث تاريخا و أنواعا و قضايا . . . و أعلاما)- الجزائر- ديوان المطبوعات الجامعية - 1995 .

14- بوعزيز ، يحيى : ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين - قسنطينة - دار البعث للطباعة و النشر - ط1 - 1980 .

15- بوعزيز ، يحيى : مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية و الدولية - الجزائر - ديوان المطبوعات الجزائرية- 1987 .

16- بوحجام، محمد ناصر : أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث (25-1976) - غرداية - المطبعة العربية - ط1 - ج1 .

17- جغلول، عبد القادر : الاستعمار و الصّراعات الثّقافية في الجزائر - لبنان - دار الحداثة للطباعة و النشر و التوزيع - ط1 - 1984م.

18- حسين، محمد محمد، : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر- بيروت-مؤسسة الرسالة- ط8--ج1 و 2- 1407 هـ-1986م.

19-خرفي، صالح :الجزائر و الأصالة الثورية - الجزائر - الشركة الوطنية للنشر و التوزيع .

20- خرفي، صالح : الشعر الجزائري الحديث - الجزائر - المؤسسة الوطنية للكتاب - 1984 .

21- خرفي، صالح : شعر المقاومة الجزائرية - الجزائر - الشركة الوطنية للنشر و التوزيع .

22- خرفي، صالح : صفحات من الجزائر، دراسات و مقالات من 62 - 72 الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.

23-خرفي، صالح : محمد العيد آل خليفة - الجزائر - المؤسسة الوطنية للكتاب - 1986 .

24- خرفي، صالح : المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث - الجزائر - الشركة الوطنية للنشر و التوزيع - 1983 .

25- الخطيب، أحمد : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر - الجزائر- المؤسسة الوطنية للكتاب - 1985 .

26- الدسوقي، عمر : في الأدب الحديث - القاهرة - دار الفكر - ج2 - ط8 - 1973 .

27- دوغان، أحمد : شخصيات من الأدب الجزائري المعاصر - الجزائر - المؤسسة الوطنية للكتاب - 1989 .

28- رابح، تركي : التعليم القومي و الشخصيّة الوطنية (1931 - 1956) - الجزائر - الشركة الوطنية للنشر و التوزيع - 1975 .

29-ركيبي، عبد الله : الشعر الديني الجزائري الحديث - الجزائر - الشركة الوطنية للنشر و التوزيع - ط1 - 1981م.

30-ركيبي ، عبد الله : قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر - الجزائر - المؤسسة الوطنية للكتاب - 1983 .

31- زكرياء، مفدي : اللهب المقدّس - بيروت - المكتب التجاري - 1961 .

32-سعد الله، أبو القاسم : تجارب في الأدب و الرحلة - الجزائر - المؤسسة الوطنية للكتاب- 1983 .

33–سعد الله، أبو القاسم :دراسات في الأدب الجزائري الحديث – تونس – الدار التونسية للنشر– الجزائر – المؤسسة الوطنية للكتاب – ط3 – 1985 .

34–سعد الله، أبو القاسم : شاعر الجزائر، محمد العيد آل خليفة – ليبيا – الدار العربية للكتاب – الجزائر – المؤسسة الوطنية – ط3 – 1984 .

35– السد، نور الدين : القضية الجزائرية عند بعض الشعراء العرب – الجزائر– المؤسسة الوطنية للكتاب .

36–سلمان، نور : الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحريم – بيروت – دار العلم للملايين– ط1 – 1981م.

37– شعباني، الوناس : تطور الشعر الجزائري منذ سنة 1945 حتى سنة 1980 – الجزائر – ديوان المطبوعات الجامعية .

38– شوقي، أحمد : الديوان – بيروت – دار العودة – ج1 .

39– طبانة، بدوي : قضايا النقد الأدبي – الرياض – دار المريخ للنشر – ط1 – 1984 .

40–الطمار، محمد : تاريخ الأدب الجزائري – الجزائر – الشركة الوطنية للنشر و التوزيع – 1981 .

41–طهاري، محمد : مفهوم الإصلاح بين جمال الدين الأفغاني و محمد عبده – الجزائر – المؤسسة الوطنية للكتاب.

42–عبّاس، إحسان، فنّ الشّعر – الأردن، دار الشّروق للنّشر و التوزيع – ط5 – 1992 .

43– عبّاس محمد : البشير الإبراهيمي أديبا – وهران – ديوان المطبوعات الجامعية – 1983 .

44- عبد الفتاح، ثريا : القيم الروحية في الشعر العربي - بيروت - مكتبة المدرسة و دار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر .

45- العقاد، عباس محمود : 5 دواوين للعقاد - الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1973 .

46- العليوي، محمد الطيب : مظاهر المقاومة الجزائرية من عام 1930حتى ثورة نوفمبر عام 1954- الجزائر - دار البعث للطباعة و النشر - ط1 - 1985 .

47-مرتاض، عبد الملك : دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد - الجزائر- ديوان المطبوعات الجامعية 1992 .

48- مرتاض، عبد الملك : نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر - الجزائر- الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ط2 - 1983 .

49- مصايف، محمد : فصول في النّقد الأدبي الجزائري الحديث - الجزائر- الشركة الوطنية للنشر و التوزيع - ط2 - 1981 .

50- مصايف، محمد : النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي - الجزائر - المؤسسة الوكنية للكتاب - ط2 - 1984 .

51- المقدسي، أنيس : الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث - بيروت - دار الملايين - ط6 - 1977 .

52-ناصر، محمد : الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته و خصائصه الفنية (25 - 1975)- لبنان- دار الغرب الإسلامي - 1985 .

II- المجلات :

1- الأصالة - مجلة - العدد 82/81 - 1980 .

2- الثقافة - مجلّة - الجزائر - العدد 57 - 1400 هـ - 1980م.

3-الثقافة - مجلّة - العدد 70 - 1402هـ - 1982م.

4-الثقافة - مجلّة - العدد 86 - 1405 هـ - 1985م.

5- الثقافة و الثّورة - مجلّة - العدد 11 - 1984 .

6- الرؤيا - مجلة - العدد 2 - السنة 1 - 1982م.

7- الفكر - مجلة - العدد 7 - 1985م.

8- الفكر - مجلة - العدد 10- 1985م.

9- المعرفة - مجلّة - العدد 3 - 1964م.

III- الجرائد :

1- البصائر - جريدة - س1 - العدد1 -1354 هـ - 1935م.

2- البصائر - جريدة - س1 - العدد2 -1354 هـ - 1936م.

3-البصائر - جريدة - س2- العدد41 -1367 هـ - 1948م.

4-البصائر - جريدة - س1 - العدد4 و 5 و 8 و 12 و 21- 1936م.

5-البصائر - جريدة - س1 - العدد105 -1357 هـ - 1938م.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

المقدّمة	أ
المدخل : الحركة الإصلاحية في الجزائر و إرهاصاتها الأولى	01
الفصل الأوّل :حياة محمد العيد آل الخليفة	24
1- النشأة و التكوين	25
2- سيماته الشخصية	34
3-بين الصوفية و الإصلاح	39
4- صلته بزعماء الإصلاح	45
الفصل الثاني : مواضيع شعره	50
1- مناسبات الدينية	52
أ- شهر رمضان	52
ب- موسم الحجّ	57
جـ- المولد النبوي الشريف	61
2- دفاعه عن مقومات الأمّة	69
أ- الوحدة و العروبة	69
ب- الإسلام و المسلمون	82
جـ- القرآن الكريم	95
د- اللّغة العربية	101
الفصل الثالث : محمد العيد و الإصلاح الإجتماعي	109
1- الآفات الإجتماعية	112
2- الشاعر و الشباب	121
3- المرأة	129
4- العلم	139

5- المدارس و النوادي و الجمعيات 146
الفصل الرابع : الشاعر و الثورة 153
1- شعره قبل أحداث 8 ماي 1945 154
2- شعره بعد حوادث 8 ماي 1945 161
3- محمد العيد و ثورة نوفمبر 167
4- الشعر ما بعد الإستقلال 175
الفصل الخامس : خصائص شعره الفنّية 183
1- بين القديم و الجديد 185
2- الإلتزام في شعره 190
3- أثر القرآن الكريم في شعره 193
4- الوحدة الموضوعية 198
5- اللّغة الشعرية 201
الخاتمة 205
قائمة المصادر و المراجع 209
فهرس الموضوعات 216